

دراسات إسلامية

- ٨ -

شهادة العيشة لله

رابع العدوية

تأليف

عبد الرحمن بدوي

الطبعة الثانية

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي، إيتا بالقاهرة

١٩٦٢

مؤلفات

الدكتور عبد الرحمن بدوي

(أ) مبعثكرات

- ١ - الزمان الوجودي .
- ٢ - مفهوم الشباب .
- ٣ - مرآة نفسي (ديوان شعر) .
- ٤ - الحور والنور .
- ٥ - هل يمكن قيام أخلاق وجودية ؟
- ٦ - نشيد الغريب

(ب) دراسة أوروبية

- ١ - الموت والمعقبة .
- ٢ - دراسات في الوجودية .

خلاصة الفكر الأوربي

- ١ - نيتشه
- ٢ - اشينجلر .
- ٣ - شوبنهاور .
- ٤ - أفلاطون .
- ٥ - أرسطو .
- ٦ - ريبم الفكر اليوناني .
- ٧ - خريف الفكر اليوناني .
- ٨ - برجسون .

(ج) دراسات إسلامية

- ١ - التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية .
- ٢ - من تاريخ الحاد في الإسلام
- ٣ - شخصيات قلقة في الإسلام .
- ٤ - الإنسانية والوجودية في الفكر العربي .
- ٥ - أرسطو عند العرب
- ٦ - المثل العقلية الأفلاطونية
- ١٥ - الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام
- ١٦ - في النفس لأرسطو (ومنه الآراء الطبيعية لفيلوثرخس الخ)
- ١٧ - ابن سينا : عيون الحكمة
- ١٨ - ابن سينا : البرهان (من الشفا)
- ١٩ - الأفلاطونية المحدثة عند العرب
- ٢٠ - أفلوطين عند العرب .
- ١٢ - المبدئين فاتك : مختار الحكم .
- ٧ - منطق أرسطو في ٣ أجزاء .
- ٨ - شهيدة العشق الإلهي : رابعة العدوية
- ٩ - شطحات الصوفية (أبو يزيد البسطامي)
- ١٠ - روح الحضارة العربية .
- ١١ - الانسان الكامل في الإسلام .
- ١٢ - الاشارات الإلهية للتوحيدى .
- ١٣ - مسكويه : الحكمة الخالدة
- ١٤ - فن الشعر لأرسطو وشرحه العربية
- ٢٢ - فلهوزن : الحوارج والشيعة .
- ٢٣ - أرسطوطاليس : الخطابة .
- ٢٤ - ابن رشد : تلخيص الخطابة .
- ٢٥ - مؤلفات الغزالي .
- ٢٦ - أرسطوطاليس : الطبيعة .
- ٢٧ - رسائل ابن سبعين
- ٢٨ - أرسطوطاليس في السماء والآثار العلوية
- ٢٩ - مؤلفات ابن خلدون .

(٤) ترجمات

الروائع المائة

- ١ — ايشدورف : من حياة حائر بائر . ٤ — بيرن : أسفار اتشيلد هارولد .
- ٢ — فوكيه : أندين . ٥ — جيته : الأنساب المختارة .
- ٣ — جيته : انديوان المشرق (في جزئين) ٦ — ثرفانتس : دون كيخوته .
- ٧ — راسك : صحائف مالتى برجه .

فهرس الكتاب

- استهلال : بيئة رابعة : مدينة البصرة (٣ - ٦) .
- ١ - مصاعب البحث في رابعة (٦ - ٧) .
- ٢ - نشأتها الأولى محاطة بالأساطير (٧ - ١٠) ؛ رابعة مولاة فارسية أو مسيحية الأصل (١٠ - ١١) ؛ بدء شعورها برسالتها (١٢ - ١٣) ؛ أسرها وتحريرها (١٤ - ١٥) ؛ رابعة تحترف مهنة العزف على الناي (١٦ - ١٧) ؛ حياتها الالهية (١٧) ثم توبتها (١٨ - ١٩) .
- ٣ - توبتها بفضل الله (٢٠ - ٢١) ؛ ملامح هذه التوبة ومعالها (٢٢ - ٢٦) ؛ رابعة في طريق العشق لله (٢٦ - ٢٩) .
- ٤ - أدوات العبادة عندها (٢٩ وما يليها) : التهجد وقيام الليل (٢٩ - ٣٣) ؛ استذكار الموت (٣٣ - ٣٥) .
- ٥ - عهد التنقل في حياة رابعة : الحج لديها : المرحلة الأولى (٣٧) ، المرحلة الثانية (٣٧ - ٣٨) ، المرحلة الثالثة (٣٨ - ٣٩) ؛ الحج يتطور في طريق التنزيه والتجريد (٣٩ - ٤٠) ؛ رفع الظاهر عن معنى الحج وتجريده (٤٣ - ٤٥) .
- ٦ - الخلط بين رابعة الشامية ورابعة البصرية (٤٤ وما يليها) ؛ معيار التمييز بين كليهما (٤٦ - ٤٧) ؛ نقد أخبار رابعة وفقاً لهذا المعيار (٤٨ - ٥٠) ؛ أخبار زواج رابعة (٥٠ - ٥٣) ؛ نظرية رابعة في الزواج ونظرية الصوفية عموماً (٥٣ - ٥٩) .
- ٧ - حبيب رابعة الوحيد هو الله (٥٩ وما يليها) ؛ رابعة أول من تكلم
- في الحب الإلهي بين الصوفية المسلمين (٦١) ؛ الحب ومنزلة الخلة (٦١ - ٦٤) .
- ٨ - الجانب العاطفي في الحب عنده رابعة وتمييزها بين نوعين من الحب : حب الهوى والحب الذي « هو » (= الله) أهل له (٦٤ وما يتلوها) ؛ الحب الخالص وحب الهوى (٦٦ - ٦٨) ؛ التوفيق بين كليهما (٦٨ - ٧٠) ؛ روايات آيات رابعة في كلا النوعين من الحب (٧٠ - ٧٥) .
- ٩ - الجانب الإيجابي في رسالة رابعة (٧٥ وما يليها) المرض حتى الموت (٧٦ - ٧٨) .
- ١٠ - رابعة والله وجهاً لوجه (٧٨ وما يليها) ؛ تجريد العكبة من معناها الحسي (٨٠ - ٨٢) ؛ تنفيذ رأى ابن تيمية (٨٢ - ٨٤) ؛ تجريد الجنة والنار من معناها الحسي (٨٤ - ٨٥) ؛ هل تأثرت رابعة بحركة الزندقة المعاصرة ؟ (٨٥ - ٨٧) .
- ١١ - الفناء في الله وعبادة الأم (٨٧ - ٩٠) .
- ١٢ - حلة رابعة على الأخريات وإنكارها حقيقة الجنة والنار (٩٠ وما يليها) .
- ١٤ - السكرات المنسوبة إلى رابعة وصياغتها وفقاً للنموذج العام للصوفي (٩٢ - ٩٦) .
- ١٤ - أسطورة رابعة : قبرها (٩٦ - ٩٩) ؛ كراماته الشعبية (٩٩ - ١٠٠) ، القبر المنسوب إلى رابعة في دمشق (٩٩ - ١٠١) ، رواية المطار عن قبرها (١٠١) .
- ١٥ - تاريخ وفاة رابعة والاختلاف جوله (١٠٢ - ١٠٤) .

أخبار رابعة

نصوص منشورة وغير منشورة

رقم مسلسل	
١	الملاحظ (١٠٨)
٢	السراج (١٠٨)
٣	الكلاباذى (١٠٩)
٤	الهجویری (١٠٩)
٥	أبو سعيد بن أبي الخير (١٠٩)
٦	ما أورده ماسينيون (١١٠ - ١١٣) : أبو طالب المسكى ، أبو نعيم ، خشيش ، عين القضاة ، ابن العماد ، ابن تيمية ، الأذلاكي
٧	أبو القاسم النيسابوری (١١٣ - ١١٧)
٨	الزبيدي (١١٨ - ١٢٣)
٩	الرسالة القشيرية (١٢٤)
١٠	ابن الجوزی : رابعة العدوية (١٢٤ - ١٢٨)
١١	ابن الجوزی : رابعة الشامية (١٢٨ - ١٣١)
١٢	ابن تيمية (١٣١ - ١٣٢)
١٣	ابن شاكر الكتبي (١٣٢ - ١٣٣)
١٤	السراج (١٣٣ - ١٣٥)
١٥	المنأوی (١٣٥ - ١٤٢)
١٦	المطار (١٤٢ - ١٦٠)
١٧	المشيمخ الحريفيش (١٦٠ - ١٦٣)
١٨	ابن تفری بردی (١٦٤)
١٩	بهاء الدين العاملي (١٦٤)
٢٠	اليافعي (١٦٥ - ١٦٧)
٢١	حكايات عن رابعة في مخطوطات الفاتيكان (١٦٧ - ١٦٨)
٢٢	عبد الرحمن الجامي (١٦٨ - ١٦٩)
٢٣	محرر بن أبي البركات الزيلي (١٦٩ - ١٧٠)
٢٤	ابن العماد الحنبلي (١٧٠)
٢٥	أبو الحسين الماطلي (١٧٠ - ١٧٢)
٢٦	عز الدين بن عبد السلام بن غانم المقدسي (١٨٢ - ١٧٤)
٢٧	أبو بكر الحصني (١٧٤ - ١٧٨)
٢٨	سبط ابن الجوزي (١٧٨ - ١٧٩)
٢٩	عبد الرحمن الجامي (١٨١ - ١٨٢)
٣٠ - ٣٢	شمس الدين الذهبي (١٣٨ - ١٨٤)
٣٣	عبد الرحمن بن خلدون (١٨٦)
٣٤	أبو حامد الغزالي (١٨٦ - ١٨٧)

شهادة العشق الألهى

تُقسى العربية ترفاً كالألال الزاخر بالتهاوليل في رؤى الساغبين اللاغبين
 الضارين إليها من أعماق الفيافي في قلب الجزيرة العربية ؛ حتى إذا بلفوها وأناخوا
 الإبل عند المرَبَد دخلوا المسجد الجامع من باب البادية ، فبهرتهم دقة الأساطين
 وبراعة الفن الذى أضفاه زياد بن أبيه على هذا الأثر الرائع للمعمار الإسلامى
 الأول^(١) وجلوا بأبصارهم المغبرة برمال البادية إلى هذه التقوى المترفة ، فاستشعروا
 حساً مما ينتظرم على الجانب الشرقى ناحيتى الشمال والجنوب حيث السفن الزاهية
 تنحدر من الشمال قادمة من بغداد فى نهر مَعْقِل ، والجوارى المنشآت فى الخليج
 الفارسى تمخرُ عباب نهر الأُبلة متصاعدة من الجنوب فى وقار لأنها موقرة بأمن
 السلعة المحملة إليها من الهند والصين .

تلك هى مدينة البصرة^(٢) التى أنشأها عُتَبة بن غزوان سنة ست عشرة هجرية
 (= ٦٣٧ ميلادية) بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، كما تكون فيها نقلة
 بين البادية والحضر ، بين الخشونة الزاهدة المصلبة القاسية الإيمان وبين الترف
 الناعم الهائم فى أوداء القداسة الشهبانية . ولذا جاءت مزيجاً من هذين الطرفين
 المتباعدين فى تخطيطها ومساق الحياة فيها ، وكانت روحها مسرحاً لمأساة هذا
 الازدواج المتوتر العنيف فى طبيعتها . وبهذا الاستقطاب طبعت نفوس ساكنيها:
 ففى روح كلِّ تسكن طبيعتان متعارضتان : إحداهما تتلمس غذاءها من قوت
 الحواس ، والأخرى تستشرف إلى قوت القلوب . ولن تستطيع إحداهما القضاء

(١) راجع ياقوت : « معجم البلدان » ، نشرة فستفيلد ، ج ١ ص ٦٤١ — ص ٦٤٣ .

(٢) راجع : لوستراخ : « بلاد الخلافة الشرقية » ص ٤٤ — ص ٤٥ G. Le Strange :

كبريدج سنة ١٩٠٥ Lands of the Eastern Caliphate ، و « دائرة المعارف
 الإسلامية » ، تحت المادة ؛ وياقوت ، الموضع السالف ، وكتاب « صورة الأرض » لابن حوقل نشرة
 كرامرز J. H. Kramers فى لندن سنة ١٩٣٨ ، ج ١ ص ٢٣٥ — ص ٢٣٨ .

على الأخرى ، بل سيظل التعارض قوياً عنيفاً ، وفي عنفه يقوم ذلك التوتر الحى الذى يحمل من حيواتهم مصدراً للتشويق لا يقل فى قيمته عن مذاهبهم . ماذا أقول ! بل فى حياة أكثرهم ما يفوق مذهبهم بمراحل عدّة . ولذا يجب على الباحث أن يتلقى عندهم كلتا الناحيتين المتعارضتين ، وأن يفلسف حيواتهم على أنها لنوات وجودية باطنها زخر بممكنات التفتّح على ضوء المجهول . والنوات الوجودية التى من هذا القبيل تحيا فى الأسطورة كما تحيا فى التاريخ ، لأن التاريخ يستحيل عندها إلى أسطورة والأسطورة تستحيل إلى تاريخ ، فلا تستطيع أن تميز بين الجاهليين بوضوح . وحتى لو استطاع ذلك المؤرخ المتزمت لما أبجدى هذا فى التفسير ، لأن حياة هؤلاء بعد وفاتهم أقوى بل وأصدق . لذا يجب أن نعدّ فترة عبورهم فى الدنيا بمثابة زناد يقدهم الشرارة المقدسة التى هى ذاتهم . وستستمر تلك الشرارة تنهى للناس قدراً من الزمان يتوقف على قوة الشرارة الأولى . فمن الخطأ أبن الخطأ فى الفهم التاريخى السليم أن نطرح جانب الأسطورة ، لأن هذه الأسطورة لحمة التاريخ الحقيقى الحى لتلك النفوس الخارقة .

فإلى جانب الحياة اللاهية التى عمّرت بها القنوت والمتاجر مما كان خير إطار لتخص « ألف ليلة وليلة » ، هناك الرُبُط التى تشيع فيها الزهادة والقداسة ؛ وإلى جانب الأسواق الضاحية بمشاغل المادة وشئون الدنيا ، كانت للمساجد والمكتبات العامة بمثابة معابد للفكر الرفيع . وفى ساحة السوق — حيث ضجيج الأهمال وعقد الصفقات ، واختلاط الأجناس الوافدة من شتى الأصقاع ، وأسباب الترف — كان يقوم المسجد الجامع الثانى الذى كان آخر مساجدها حتى لم يكن له فى العراق بأسره نظير . فإذا ما تزود من بالسوق من أنعم السلع المادية أودى إلى المسجد فطاف على حلقته : هنا حفلة النعويين والنعويين يخطبهم فيها الجدال الصارخ حول شاردة من شوارد اللغة قذف بها فى جمعهم كوفى جاء محملاً بأسلحة أهل بلده ؛

وهناك مجلس الحسن البصرى تسوده رهبة ذلك الزاهد الجليل وهو يلقى مواعظه الضاربة في فيافي الزهد فيستدرء الدمع من مآقي الحاضرين، أو يسرعهم إلى مجلس ذكر تتردد فيه الأتعاكرو للصفاية والأدعية الناضرة، أو تثار فيه مسائل من التوحيد تسرعان ما تُشيع الحرارة في هذا الجو الرقيق. فإذا ما جن الليل وسكن الأحياء ووجست خلال المدينة — شأن الغبراء ذوى النفوس الطَّلعة المغامرة — ترامت إلى مسامعك أنغام النهو العنيف في نفس الوقت الذى يقرع أذنيك فيه تضرعات المتهجدين المقاتنين. هنا الملاحون يمخرون بزوارقهم الزاهية في مياه تلك القنوات المتشابكة يعرفون ويعربدون؛ وهناك في زاوية أخرى ترى العابدين سادرين بين المقابر يستاهمون للموت والقبر أفكاراً وموضوعات للتأمل الحزين والعظمة البالغة والعزوف عن الدنيا. هنا أمثال ابن أبي عمينة يقضون الليالى البيض بين أحضان الشهوة الآثمة في إقبال هيف على نغم الحياة^(١)؛ وهناك أمثال رياح بن عمرو القيسى ممن لا يعرف غير البكاء والتهدج والتضرع والصراخ من أعماق الهاوية إلى الله: تراه دائماً هامئاً بين المقابر، وفي الليل يضع في عنقه غلاً من حديد ثم يضرع ويبكى حتى الصباح^(٢): أولها يرتاد منطقة الأبلّة حيث القصور والبساتين والمناظر الأنيقة والبرك الفسيحة المرصوفة وغرائب الملاذ وتحت المتظرفين^(٣). والآخر لا يرتاح إلا إلى البادية، أو يتأمل النخيل في الخريف وقد اسودت جميعه بما حط عليه من غربان قواطع، فكان منظره داعياً إلى التأمل الساجى للبال الكاسف والقلب الهيف.

(١) راجع أشعاره في التشوق إلى لياليه الالهية في البصرة لما أن ارتحل إلى جرجان في ياقوت: «معجم البلدان»، نشرة سستفلد ج ١ ص ٦٥١.

(٢) راجع: «طبقات الأبرياء» لعبد الرؤوف النواوى، مخطوطة بالظاهرية برقم ٤١٦٤ عام ١٠٠١.

(٣) ابن حوقل: «صورة الأرض»، نشرة كراهرز، ص ٢٣٦، لندن سنة ١٩٣٨.

فهبثوا معي الآن، أيها السادة، إلى كوخ وضيع ولكنه عامر بالقداسة، تسكنه
عجوز سُحِلَتْ مَريرتها وقد ذرَّفت على الثمانين، « كأنها الشَّنُّ تكاد تسقط »^(١) .
كل ما في البيت قطعة من البُورِيّ الخَلَقِ ، « ومِشجَبُ قَصَبِ فارسي طوله
من الأرض قَدَرُ ذراعين ، وستر البيت جُلَّة »؛ وليس فيه من الأدوات إلا حَب
وكوز ؛ ثم « لَبْدٌ هو فراشها وهو مُصَلَّاهَا » . أما المشجَب فلم يكن يحوى شيئاً
من الملابس لأنها لا تكاد تملك منها شيئاً، وإنما كان يحمل أ كفانها، فكانت
تستخدم هذا المشجَب بما عليه من أ كفان كما تضع أمام عيونها موضوعاً للتأمل
أثناء الذكر العقلي، مثلها مثل القديسة تريزا الأبلية — والصوفية المسيحية
عامة — في استخدامها نموذج المَصَلَبِ Calvaire فمصليها هو مشجَبها الجلل
بأ كفانها . وما أقوى الشبه — كما سنرى — بين هذه الصوفية المسلمة وبين
تلك الصوفية المسيحية ! وإن في الدراسة المقارنة لكليتهما لما يوضح التصوف
الخاص بهما كما يفسر كثيراً من الظواهر الصوفية عامة.

هذه الصوفية المسلمة هي رابعة العدوية التي قضت عمرها منذ توبتها
وهي تحترق بنار الحب الإلهي حتى آلت في آخر حياتها إلى تلك الحال التي وصفنا،
فكانت شهيدة العشق الإلهي حقاً .

وليس لنا، وبالأسف ! عن حياتها من الوثائق ما يسمح بتأريخ تطورها الروحي
على نحو مفصل أو شبه مفصل ، كما هي الحال بالنسبة إلى القديسة تريزا الأبلية
مثلاً . ولئن كان المؤرخون للتصوف المسيحي يشكون من فقر الوثائق عن الفترة .

(١) ابن الجوزي : « صفة الصفة » ، ج ٤ ص ٥٧ ب ، مخطوط بالظاهرة بدمشق .
رقم ٦٧ تاريخ ؛ وابن شاكر الكندي ، « عيون التواريخ » ج ٣ ورقة ٧ ب (عن سنة
١١٣٥) مخطوط بالظاهرة بدمشق برقم ٤٤ تاريخ .

الأولى من حياة القديسة تريزا ، مع أن لها ما لها من الترجمة الذاتية والمؤلفات الخاصة التي تشير فيها إلى شواردمن حياتها ، فإذا يقول مؤرخ التصوف الإسلامي لاعتن الفترة الأولى من سيرة رابعة فحسب ، بل عن حياتها كلها وهو لا يكاد يملك وثيقة واحدة يستطيع الاطمئنان إليها ! وحتى هذه الوثائق المتهمة الضاربة في نطاق الأسطورة ضئيلة تافهة قد اختلط الأمر فيها إلى أبعد حد لعدة أسباب أهمها أن لها تسمية أخرى تدعى بنفس الاسم أو على الأقل باسم لا يكاد يفترق عن اسمها إلا بنقطة ، مما كان مثاراً للخلط الفاحش في إيراد أخبارها . وأشهد عن نفسى أننى كنت كلما توغلتُ في دراستها وتكشفت لى المخطوطات عن وثائق جديدة ، شعرت بشخصيتها تتراجع إلى كهف الأساطير أو تتحلل أخبارها بين يدي حتى كدت أياس نهائياً من الظفر بشيء عن حياتها وأقوالها يمكن المؤرخ المتثبت أن يقرره وهو مطمئن الضمير . فكل ما يروى عنها ينساب كالماء بين فروج أنامل الباحث الذي يريد أن يتخذ منهجاً نقدياً سليماً في البحث العلمى . على أنى قد حاولت جهدى مع ذلك أن أميز في الوثائق نفسها بين ما ينسب إليها وما ينسب إلى رابعة الأخرى ، معتمداً هنا على تمييز الأسانيد في سلسلة الرواة من ناحية ، وعلى التخلفات التاريخية anachronismes الصارخة من ناحية أخرى .

فإنحاول هنا — معتمدين على هذا المنهج — أن تقدم صورة إجمالية عن تطورهما الروحى .

لا نكاد نعلم — وفقاً لما بين أيدينا من وثائق — عن حياة رابعة الأولى ونشأتها إلا ما رواه فريد الدين العطار « فى تذكرة الأولياء »^(١) . والعطار

(١) نيفرة نيكولسون ، ج ١ ص ٥٩ — ص ٦١ ، لندن ولندن سنة ١٩٠٥ — سنة ١٩٠٧ . وراجع ترجمة ياقبه دى كورتى عن الترجمة الأوجيورية ، ص ٥٤ وما يليها ، باريس سنة ١٨٨٩ A. Pavet de Courteille : Le Mémorial des Saints

رجل جامع الخيال لا يمكن أن يُطمأن إلى أقواله إلا بعد أن تتأيد عن طريق المصادر الأخرى . ومما يؤسف له أن المصادر التي عثرنا عليها حتى الآن لم تُشر إلى هذه الفترة من حياتها . لكننا لا نستطيع مع ذلك أن نرفض ما قاله العطار في هذا الصدد جملةً ، لأن الوثائق الجديدة التي تتكشف لنا يوماً بعد يوم تؤيد كثيراً من الروايات التي أوردها العطار وكنا نظن أنه وحده الذي آتى بها . وهذا يحملنا على الاقتصاد في اتهام أقواله ؛ فلعل وثائق جديدة أن تؤيد رواياته التي لا نجدها حتى الآن في المصادر الأخرى . فمن الإسراف الظالم في التشكك والنقد أن نفترض أنها من اختراعه . وإما تقديمها حذرين ونسوقها على أنها لا تزال بمعزل عن التأييد الكافي .

على أن رواية العطار عن طفولتها وتنشئتها والفترة إلى ما قبل توبتها يمكن أن تقبل في عين المؤرخ إذا ما اطرحنا منها جانب الخوارق والكرامات . فهو يقول إنها حين ولدت ، ولدت في بيت فقير كل الفقر ، فلم يكن لدى أبويها قطرة سمن حتى يذهُنوا موضع خلاصها ، ولم يكن ثمت مصباح ولا خرق لف الوليد . فدعته زوجته إلى الذهاب إلى الجيران للحصول على زيت لإضاءة القنديل . وإرضاء لزوجه — على الرغم من أنه عاهد الله على ألا يطلب من عبد من عباد الله شيئاً — ذهب وطرق باب الجيران فلم يفتح له . فأنبأها بما حدث فبكت . هنالك أطرق على ركبتيه ونام ، فرأى النبي فقال له النبي : لا تحزن ! فهذه البنت الوليدة سيدة جائلة القدر ، وإن سبعين ألفاً من أمي ايرجون شفاعتها ؛ ثم أمره بالذهاب صبيحة الغد إلى عيسى زاذان أمير البصرة . ويكتب له ورقة يقول فيها إن النبي زاره في المنام وقال له أن يتوجه إليه ويقول : إنك تصلى مائة ركعة ، وفي ليلة الجمعة أربعائة ، لكنك في يوم الجمعة الأخير نسيتني . ألا فلتدفع أربعائة دينار حلال لهذا الشخص (والد رابعة) كفارة عن هذا النسيان . « فلما أفاق

والد رابعة من نومه كتب الرسالة التي أمرَ بكتابتها ودفعها عن طريق الحاجب إلى الأمير؛ فلما قرأها الأمير أمر بإعطائه أربعائة دينار؛ وقال لهم: ائتوني به لأراه! ثم راجع نفسه وقال في الحال: لا أرى من الموافق أن يأتى إلى، بل سأذهب أنا بنفسى إليه، وأمسح بلحيتى على أعتابه، وأسمى لأحصل على كل ما تشبهه هذه البنت الجليلة.

تلك رواية العطار عن مولدها. والشئ الوحيد الذى يمكن المؤرخ أن يثق به فيها هو أن رابعة نشأت في بيت فقير كل الفقر. ونحن نعلم من المصادر الأخرى أنها مولاة آل عتيك^(١)، وآل عتيك بطن من بطون قيس؛ ولهذا أطلق عليها الجاحظ^(٢)، وهو أقدم مصادرنا عنها، اسم رابعة القيسية. ومن آل عتيك بنو عدوة ولهذا تسمى أيضاً رابعة العدوية^(٣). أما كنيستها فهي أم الخير. وهنا تبدى أماننا

(١) ابن خلكان، «وفيات الأعيان» ج ١ ص ٢٥٦، القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ = ١٨٥٨ م؛ ابن تفرى بردى، «التجوم الزاهرة» ج ١ ص ٣٣، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩.

(٢) «البيان والتبيين» ج ٣ ص ٨٥، القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ؛ «الحيوان»، ج ١، ص ٧٨، القاهرة سنة ١٩٠٧.

(٣) عتيك هو بطن من الأزد، وهو عتيك بن النضر بن الأزرد بن الفوث بن بنت صالک ابن كهلان بن عامر بن شالح بن ارغشيد بن سام بن نوح. والمشهور بالانتساب إليها أبو أسماء سلمة بن منيب العتكي من أهل مرو، ويروى عن سيف بن سبيعة عن ابن عمر، روى عنه الفضل بن موسى الشيباني وأبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي — مولى بني عتيك من أهل واسط، سكن البصرة، يروى عن قتادة وأبي إسحق، روى عنه الثورى وجماد بن سلمة والبصريون. كان مولده سنة ٨٣ بهريان — قرية أسفل من واسط — ومات سنة ستين ومائة في أولها... وعباس بن ستان العتكي الصيرفي من أهل البصرة يروى عن أبي نصره وأبي الحلال... وأبو الليث عميد الله بن عبد الله العتكي من أهل مرو... والمشهور من المنتسبين إلى هؤلاء يوسف بن عبد العتكي مولى يزيد بن المهلب من أهل البصرة راجع («الأنساب» للسمعاني، نشرة مروجوليوت، ليدن سنة ١٩١٢ ورقم ٣٨٣ بـ ص ١٣٨٤).

ويمكن أن نفترض من هذا أن آل عتيك كانوا في مرو، ومن ثم انتقلوا إلى البصرة، ثم ومواليهم. فهل تكون رابعة أصلها من مرو؟ لا بد حينئذ أن نفترض أنها من أصل إيراني، وقد يؤيد هذا اشتغالها بالعزف على الناي، وهي حرفة كادت تقتصر ممارستها على الفرس..

مشاكل عدة خاصة بهذا الولاء : فهل كان ولاؤها لآل عتيك لما أن أسرت في صفرها وهي تهيم على وجهها وبيعت كما يحدثنا العطار ؟ أم كان الولاء من جانب أبيها وأسرتها ؟ نرجح أن يكون الولاء من جانب أسرتها ، لأن نسبتها بالولاء إلى قيس ترد في نسبها ونسب أبيها . ومشكلة أخرى : متى تم تحريرها ؟ أمن ذلك السيد الذي تحدث عنه العطار وسنذكره عما قليل ، أم تم بالنسبة إلى أبيها من قبل وبقيت النسبة في الاسم فحسب ؟ نرجح أيضاً الرأي الثاني لأن العطار نفسه لا يذكر أن أباهما كان عبداً . ومشكلة ثالثة هي أصل أسرتها : أكان أبوها فارسياً أم من عنصر آخر ؟ ومتى أسلم ؟ وعلى أية ديانة كان قبل إسلامه ؟ ألا يكون في الأصل مسيحياً وأسلم ، أم الذي أسلم هو رابعة بعد أن عانت الرق ؟ أسئلة يمكن أن تثار وتتوارد على الخاطر دون أن يجد لها حلاًّ وعنها جواباً ؛ وإنها لعلی أخطر درجة من الأهمية بالنسبة إلى الباحث ، لأنها تتصل بمشكلة بالغة الخطورة ، هي مشكلة نشأة التصوف الإسلامي لأن رابعة تنتسب إلى الجيل الأول من الصوفية المسلمين الحقيقيين الذين أشاعوا في التصوف روحاً جديدة كل الجدة على التطور العام للحياة الروحية في الإسلام . والنفمة الجديدة التي أدخلتها رابعة في التصوف الإسلامي من العسير ألا نفترض فيها أصولاً سابقة صدرت عنها ، أصولاً كانت على شعور بها أولم تكن ، سواء ؛ فالشعور واللاشعور هاهنا يتساويان في إحداث الأثر . ونعني بهذه النفمة فكرة الحب الإلهي بمعناه الكامل الذي ينطوي على كل معاني الحب الشهوانى متسامياً إلى موضوع غير حسنى . فالاختلاف هنا في الموضوع لا في العاطفة والطريقة . ولسنا نعلم في الروحية الفارسية قبيل الإسلام بوجود مثل هذه النفمة ، ولهذا فنحن أميل إلى استبعاد العنصر الفارسي في المذهب الروحي الذي كانت تدين به أسرتها قبل إسلامها : فإذا كان لا بد من تلمس مصدر للتأثير الواعى أو اللاواعى ، فيجب أن يتجه البحث خصوصاً إلى التأثير

المسيحي لأنه تَمَلَّب عليه هذه الفكرة ، فكرة المحبة الإلهية . على أن هذا مجرد افتراض مُرَجِّح دون توكيد على أى وجه، أولاً لأننا نجمل كل شىء عن ديانة أسرتها ، وثانياً لأن البحث — حتى فى المدى الذى وصل إليه التصوف المسيحي فى تلك المنطقة — لا يزال بعيداً عن أن يسعدنا فى إيضاح هذه النواحي الموغلة فى الغموض . ولنا عودٌ إلى هذه المسألة بعد حين .

أما أبوها فيذكر ابن خلكان^(١) أن اسمه إسماعيل، وعليه جرى الزبيدي^(٢) . أما المناوى^(٣) فلا يذكره ويكتفى بنعتها بالقيسية ؛ ولكنه يذكر بعدها رابعة بهذا الاسم : « رابعة بنت إسماعيل العدوية » وهى رابعة الأخرى أو رابعة التى اختلطت بها ؛ وكذلك فعل الشعراى^(٤) : ميزين « رابعة العدوية » و « رابعة بنت إسماعيل » ؛ وبقية المصادر تغفل ذكر اسم أبيها ، مثل العطار وابن الجوزى ؛ أو تنقل ما أورده ابن خلكان^(٥) . فإذا كان لنا أن نستخلص شيئاً من هذا فهو أن كون أبيها اسمه إسماعيل أمر مشكوك فيه كل الشك؛ ونرجح كل الترجيح أن يكون قد اختلط الأمر على ابن خلكان فى هذا الموضوع كما اختلط عليه فى مواضع أخرى سنفصلها بعد حين ، فمزج بين رابعة العدوية أو القيسية وبين رابعة زوج أحمد بن أبى الخوارى . وهذا هو السر فى أن المصادر الأقدم مثل ابن الجوزى لم تذكره . ومعنى هذا إذن أن اسم أبيها لا يزال لدينا مجهولاً ، مما له أثره فى الجواب أيضاً عن الأسئلة التى أثارناها منذ حين ، وبخاصة ما يتصل بديانة أسرتها .

(١) الموضوع نفسه . (٢) « تحاف السادة المتقين » ، ج ٩ ص ٥٧٦ ، ص ٦٨١ .

(٣) « طبقات الأولياء » ، مخطوط الظاهرية رقم ٤١٦٤ ص ١١٠٤ ، ص ١٠٦ .

(عن رابعة بنت إسماعيل العدوية) .

(٤) « الطبقات الكبرى » ، ج ١ ص ٨٦ ، القاهرة .

(٥) مثل ابن شاكر الكتبي فى « عيون التواريخ » ص ٥٧ (مخطوط الظاهرية رقم

٤٤ تاريخ) .

ولدت رابعة إذن في أسرة فقيرة كانت تدين بالولاء لآل عتيك من بني قيس
لهذا كان أمرُ تنشئتها؟ يقول لنا العطار إنها لما كبرت وتوفى والدها وهي لا تزال
في ريعان الصبا حدث في البصرة قحط، فنفرت وأخواتها الثلاث يهمن على
وجوههن. فرآها ظالمٌ أسرها وباعها بستة دراهم لرجل أثقل عليها العمل.

وهنا يذكر لنا العطار كيف هبطت عليها رسالتها الروحية. فيقول إنها كانت
تسير ذات يوم فشاهدت رجلاً غريباً ظلَّ يرمقها بنظره مضمراً لها الشر، فهربت
وسارت في طريق دمشقها هي الأخرى، ثم ارتمت على التراب وظلت تناجي ربها:
« إلهي! أنا غريبة يتيمة، أرسف في قيود الرق، لكن غمى الكبير هو أن أعرف:
أراض أنت غنى أم غير راضٍ؟ » فسمعت صوتاً يقول: « لا تحزني! ففي يوم الحساب
يتطلع المقربون في السماء إليك ويحسدونك على ما ستكونين فيه ». فلما سمعت
هذا الصوت عادت إلى بيت سيدها، وصارت تصوم وتخدم سيدها وتصلي لربها
متهجدة طوال الليل.

تلك هي الفترة الحاسمة في حياة رابعة وفقاً لهذه الرواية. فلو أخذنا بها لقلنا
إن الانصراف إلى الزهد وابتداء الرسالة الروحية إنما هيأ له ما كانت تعانيه في رقبها
وما احتملته إبان ذلك من آلام وذل ومهانة. فلم تجد خلاصاً أو بالأحرى عزاءً لها
عن تلك الحال إلا في الإيمان والثقة بالله والتعزى بالآخرة عما تلقاه في الدنيا.
وهي ظاهرة طالما حدثت في النفوس النبيلة التي قضى عليها بالعبودية. نراها
في الجيل الأول للمسيحية ونراها كذلك عند الرعيل الأول في الإسلام لدى
بلال بن رباح وصهيب الرومي وسلمان الفارسي. فالنفس النبيلة إن أرغمتها الحياة
الخارجية بقهرها المادى على العبودية انطوت على نفسها كيما تحررها في الباطن؛
وهذا التحرير الباطن لا بد أن يتم في عالم آخر غير العالم المادى الواقعي الذي لا تجد
فيه غير الاستعباد؛ ومن هنا تنصرف إلى تطلب الملكوت الأعلى. حتى إذا

استشمرت شيئاً منه انطلقت بحرية تزداد بمتعة كلما ازدادت النفوس ثمة بذاتها ، ولن تقف حتى تبلغ الانهائية ، وإن تفاوتت النفوس في درجة الشعور بها وفقاً لمرتبتها في معراج السمو الروحي : فإن كانت ذات مكانٍ عالٍ رأيتها هائمةً تحلق في سماء الألوهية إلى درجة الاتحاد بل الهوية فيما بينها وبين الله ؛ وإن كانت من تلك النفوس التي لم تسعدها الثقافة الروحية الرفيعة ، اعتصمت بالتوكل المذعن والرضا الساجي الذي يطوّف أحياناً بجنّات الملكوت أو يزور بيصره إلى أعتاب الحضرة عند حفافى العرش المجيد . فمن النوع الأول سلمان الفارسي ، تلك النفس الهائمة في منطقة الألوهية المستورة ، ومن هنا كان تأويل الشيعة لدور سلمان خير فهمٍ لحقيقته وإن تبدى لنا على أنه من تهاويل الغنوص الشيعي^(١) . ومن النوع الثاني بلال بن رباح مؤذن الرسول ، الذي يجب أن يدرس على ضوء هذه الظاهرة ، ويفسر تعلقه بالأذان على أنه وجد فيه نوعاً من الخطاب المباشر لله ، فكان أذانه بمثابة ذكر للتواجد ، يشيع في نفسه تلك الجذبة الروحية التي تاتي به بين أحضان الألوهية ، وكان ارتقاؤه المثدنة — مهما يبلغ طولها — مثار شعور بالعلاء في معراج السلوك إلى الحضرة .

إن الذات النبيلة المبتارة إذا لم تجد مخرجاً لميكناتها في الخارج ، في العالم ، بين الأشياء والظاهرة ، انفجر باطنها الزاخر بالميكنات فاستحل عالماً آخر سرعان ما يصبح عند صاحبه كأنه العلم الحقيقي الوحيد وتكلم شيء خلاه بالجل ؛ واتصاره الأكبر إنما يتم نهائياً بالقضاء على الوجود — في — للعالم ، على للعالم ذى الأدوات — على التبرية والاعتراض ، على هذه المعوقات التي تقف في سبيل النمو الكامل للميكنات غير المتحققة . والطريق إلى هذا يتفاوت بين النفوس النبيلة بعضها بعضاً وفقاً

(١) راجع بحث ماسينيون عن « سلمان الفارسي » في كتابنا « شخصيات قلقة في الإسلام » ص ٤٣ — من ٤٢ ، القاهرة سنة ١٩٤٦ .

لمزاجها الروحي الخالص . فالذين كانوا يريدون أن يظفروا بالدينا ، بالوجود - في - العالم عن طريق السلطة والقهر يسلكون إلى الأوهية أيضاً « طريق القهر » ، بأنواع التعذيب والزهادة القاسية ؛ والذين كانوا يبتغون الظفر عن طريق الحب ، والتأثير الشخصي بالجادية التي للشخصية الممتازة ، يتخذون إلى الرب « طريق الحب » . ورابعة العدوية ، وهي المرأة ، هل لها أن تسلك غير السبيل الثانية ؟ ! لهذا سنهاها تتخذ طريق الحب للاستيلاء على الأوهية ، بعد أن لم تفجح في الوصول عن طريق الحب في الدنيا إلى الاستيلاء على الناسوتية .

ففي هذه النادرة التي رواها العطار ما يكشف لنا عن طريق دمشق لدى رابعة . ومعناها أنها أفكرت في طريق الخلاص فوجدته في الانكاف على باطنها ؛ لكنها كانت في حاجة إلى صوت يقويها ويشد أزرها فيؤكد لها أن تلك الطريق التي ستسلكها ستفضي بها إلى غايتها الجديدة المنشودة وهي الخلاص عن طريق الحب للأوهية حتى تظفر بالحضرة فيها . فليس بعجب في واقع الأحوال النفسية لأمثال هؤلاء أن يحبل إليهم أن طائفًا رحمانياً قد طاف بنفوسهم ، وهي في الصراع مع أحوالها في العالم للظفر بالنجاة ، فشد أزرها ومناهم ببحر المنقلب وعظم الغاية ونيل النهاية . فهذا يحدث لكل منا في أبسط أحوال مهامته ومشاغله ، فما بالك ونحن يازاء المهم الأكبر في حياة الشخص ؟ ! فتلاميذ عمّوس ، وطريق دمشق عند القديس بولس ، ورويا أوستيا عند القديس أوغسطين ، ووحى دأف لدى سقراط ، ووحى حرّاء عند النبي محمد - كلها أمور لا تتأني على منهج البحث النفساني العلى إذا ما فهمت على أنها أحوال بعين الكلام النفسي الصادر عن ازدواج النفس حينما تُلمُّ بها المهمات .

هذه اللحظة في حياة رابعة يجب أن تعد نقطة التطور الحاسمة في حياتها الروحية ، شأنها شأن تلك الأحوال التي أتينا على ذكرها عند أضرابها من كبار

الشخصيات الروحية في العالم . لكنها لا تزال في الأسر المادي لدى ذلك السيد القاسى الذى أرقها وأعتبها فكان لهذا الإرهاق والإعنت فضل انفجار روحها الباطنة النبيلة . فكيف تنجو من هذا الأسر ؟

هنا يلجأ المطار مرة أخرى إلى الخوارق ؛ فيزعم أن سيدها استيقظ ذات ليلة ، ونظر من خوخةٍ أو خصاص في الباب ، فرأى رابعة ساجدة تصلى وتقول : « إلهى ! أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك ، ونور عيني فى خدمة عتبتك ؛ ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن خدمتك ، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبديتك » . وخلال دعائها وصلاتها شاهد قنديلاً فوق رأسها يخلق وهو بسلسلة غير معلق ، وله ضياء يملأ البيت كله . فلما أبصر هذا النور العجيب فرغ ونهض من مكانه وظل ساهداً مفكراً حتى طلع النهار . هنالك دعا رابعة وقال : « أى رابعة ! وهبتك الحرية . فإن شئت بقيت هنا ونحن جميعاً فى خدمتك ؛ وإن شئت رحلت أنى رغبت ! » ما أجلها فرصة إذن بالنسبة إلى رابعة ! فما كان منها إلا أن ودعته وأرتحلت ، ثم انقطعت للعبادة والتقوى .

نلك أسطورة تحريرها من الرق ؛ ولن يستطيع المؤرخ إلا أن ينعها بنعت الأسطورة ؛ والشئ الوحيد الذى يمكن أن نأخذ به منها هو أن رابعة أعتقت ؛ أما كيف ؟ ولماذا ؟ فهذا مالا تستطيع الوثائق التى بين أيدينا أن تضىفى النور عليه ؛ فلندعه نقطة غامضة إلى جانب النقط الغامضة التى لا حصر لها فى حياة رابعة .

ثم من كان هذا السيد ؟ أكان من آل عتيك ، ما دامت رابعة تسمى مولاة آل عتيك ؟ هذا أيضاً مما لا نستطيع الإدلاء فيه برأى قاطع بآلة راجح . صارت رابعة إذن حرة ؛ فلها أن تسلك سبيلها فى الحياة أنى شاءت . وهنا نلقى رواية لم يذكرها غير المطار ، راوينا الوحيد عن تلك الفترة ، وهى تقول

الرابعة اتخذت مهنة العزف على الناي^(١) زمنًا ما ، ثم ثابت من بعد ذلك وأصلحت وابتنت لنفسها خلية انقطعت فيها العبادة .

هذه الرواية التي ذكرها العطار ومرة بهامراً سريعاً لأنها لا تتفق مع الصورة الخيالية التي يريد أن يرسمها لرابعة وهو الشاعر الجامع الخيال ، نريد نحن أن نقف عندها ملياً لما لها من أهمية خاصة . ونحن نقطع بصحتها لأنه ما كان للعطار أو غيره أن يذكرها لو لم تكن صحيحة ، لأنها ليست مما يشرف به قدرها ؛ وهو وغيره من رواة أخبار الصالحين كانوا حريصين كل الحرص على أن يزوتوا ما استطاعوا في ترجماتهم لحياة أولئك الصالحين .

فنحن نفترض ما يلي : أن رابعة لما اعتقت اندفعت بفضل الحزبية التي وهبتها إلي المشاركة في حياة الدنيا ؛ ومثل هذه الفترة من حياتها مثل تلك الفترة التي أمضتها القديسة تريزا الأبلية منذ أن غادرت دير التجسد في آبله إلى سنة ١٥٥٥ حين بدأت حياتها الثانية . فانطلقت رابعة تسعى لرزقها فلم تجد غير حرفة العزف على الناي والإطراب . وهذا يجعلنا نفترض أنها كانت على حظ من الجمال ، ولعل هذا أن يفسر لنا ما روى من أخبار — لعلها أسطورية — عن تقدم الكثيرين للاقتان بها . ودعاها إلى اتخاذ هذه المهنة خاصة أنها كانت ذات مزاج فني ممتاز بحكم طبيعتها الروحية العالية ، فلم تجد في غير الفن مجالاً للظهور في الدنيا والمشاركة في الحياة . والمشاهد عامة في حياة النسوة اللاتي وهبن قدراً من سمو الروح أنهن يحترفن الفن إذا ما قضى عليهن بتلس أسباب الرزق بوسائلهن الخاصة . ويحصل كذلك أنها إبان هذه الحياة الفنية بما تقتضيه من ملابسات قد اندفعت في طريق الشهوات إلى مدى بعيد . فهذه المهنة في ذلك العصر كان من غير الممكن

(١) « وكرومي كوينددر مطرب افتاد » (العطار ، تذكرة الأولياء ، ص ١٠٠ ، نشره نيغولسون ، ج ١ ص ٦١)

أن تستقل بنفسها ، ولا أن تكون بمنجاة عن ألوان الإغراء بأنواع الأحابيل التي تنصب لمثيلاتها في هذا المضمار. ويختلُ إلينا أنها قطعت شوطاً طويلاً في طريق الإيم وغرقت في بحر الشهوات واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، لأنها ثابت من بعد ذلك. فهذه التوبة نفسها هي أصدق دليل لدينا على اندفاعها إلى أبعد حد في طريق الشهوة . فالأطراف في تماسٍ كما يقولون، والاعتدال لا يمكن مطلقاً أن يؤدي إلى التحول الحاسم conversion. فهذه الانقلابات الروحية الكبرى إنما تقع دائماً نتيجة لعنف وإفراط ومبالغة في الطرف الأول المنقلب عنه . فعنف إيمان القديس بولس كان نتيجة لعنف إنكاره للمسيحية ، وعنف الحياة التقيّة لدى القديس أوغسطين كان لازماً طبيعياً لعنف الحياة الشهوانية الحسية التي حياها قبل تحوله إلى الإيمان. إن الاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين ، أما التطرف فمن شيمة الممتازين الذين يبدعون ويخلقون التاريخ . وما كان يمكن رابعة أن تتطرف في إيمانها وحبها لله إلا إذا كانت قد تطرفت من قبل في فجورها وحبها للدنيا. من أعماق الشهوة العنيفة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة ، ومن عمائق الإنكار والتجديف تنطلق الموجة التي تنشر الإيمان في الدنيا بأسرها . لهذا أدعو إلى التطرف المطلق كل من يريد أن يكون خالقاً للقيم .

أوغلت رابعة إذن في طريق الشهوة الجامحة ما وسعها الإيفال . ثم ثابت . فكيف ثابت ، وماذا دعاها إلى تغيير طريقها ؟

قلنا إن رابعة قبيل إعتاقها قد استشعرت رسالتها الروحية وهي تحت أعباء الرق المهين . لكنها نسيتهما لما أن انطلقت إلى الدنيا الواسعة . لهذا نستطيع أن نفترض أنها إبان انتهابها للذات كانت بين الحين والحين تخلو إلى نفسها وتتذكر تلك الرسالة التي ألهمتها . فكان يطوف بها إذاً بين الفينة والفينة طائف من التائب والتذكير بالطريق السوي . وهذه الفينات خصوصاً هي تلك التي تشعر (م — شهيدة)

فيها إما باليأس من عاطفة اندفعت فيها نحو شخص ثم خاب رجاؤها فيه ؛ وإما بأنها قد اندفعت في طريق الإثم إلى حد بالغ الإفراط . فلا شك في أن هذه التنبيهات المتوالية قد آثرت في منطقة اللاشعور لديها . لكننا لا نستطيع أن نقول إنها كانت كافية لإحداث الانقلاب الروحي . وقضارى أمرها أن تكون حالها تلك التي وصفها القديسة تريزا الآبلية إبان محنة صراع الدنيا والدين في داخل نفسها ، فقالت : «من ناحية كان الله يدعوني، ومن أخرى كنت أشارك في الدنيا. أجل! لقد كنت أجد في الأمور الإلهية نعيماً كبيراً، بيد أن قيود الدنيا كانت لا تزال تأخذ بمُخَنَّتِي ، حتى ليبدو لي أني قد أردت أن أحالف بين هذين الضدين برغم ما بينهما من عداوة : الحياة الروحية بنعماتها ، وحياة الحواس بشهواتها^(١) » .

وثمة عوامل أخرى يمكن إدخالها في تقديرنا : منها إمكان غشيانها بمجالس الوعاظ في مساجد البصرة ، وبخاصة مجلس الحسن البصرى ، فضلاً عما عاها أن تكون لقيته، حتى إبان عملها ، من صوفية وزهاد. وهنا تتجاسر على الإدلاء بفرض لا ندري بعد مبلغ الصحة فيه، وهو أن تكون قد التقت يوماً برياح بن عمرو القيسى الصوفى الكبير ؛ ولعله أن يكون قد توّسم فيها ميلاً إلى الحياة الطاهرة ، فحملها على أطراح حياتها اللاهية ؛ ولعل في هذا ما قد يفسر الصلة القوية التي قامت بين كليهما . فقد يكون العطف قد أخذه عليها ، فتمنى لها—وهو صاحب الطبيعة الممتازة—أن تسلك السبيل الذى سلكه هو . ولئن كانت للمصادر لا يتحدثنا عن وقوع هذا الحادث بالذات ، فإنها تشير إلى صلاتهما الوثيقة إلى أبعد حد : كانوا يقضيان الليل معاً في بيتها انقطاعاً للتمجّد والعبادة . ومثل هذه الأحداث كثيراً

(١) القديسة تريزا الآبلية : « حياة » ص ٦٨ ، ترجمة فرنسية ، باريس ، ليكوفر

ما تقع في حياتنا : فذو النفس النبيلة إذا ما توسم في إحدى بنات الهوى روحاً سامية سرعان ما يفكر في إنقاذها مما هي فيه . فمن يدرى ؟! لعل هذا هو ما وقع بين رياح بن عمرو القيسي وصاحبتنا رابعة .

على أن هذا كذلك ليس كافياً في تفسير الانقلاب الروحي عندها ، على الرغم من قوة هذه العوامل . بل لا بد أن يكون قد واكب هذا كلة تجربة يأسية من دنيا الناس ، ولا بد أن نفترض هنا خصوصاً تجربة حبٍ مخفق يستشرف إلى سراب زواج أو ما إليه . فذكريات الماضي الداعي إلى التقوى والمواعظ مهيبيلغ تأثيرها عن طريق المثل الحى الصديق لا تكف لتفسير ما حدث لديها . فلانماض إذن من افتراض هذا العامل الثالث الحاسم .

فهذه الأسباب الثلاثة مجتمعةً إذن هي التي أدت إلى الانقلاب الحاسم ، بأن عادت إلى نفسها تستلهمها الطريق الذي بدأته ثم تركته لما أن استشعرت نعم الحرية في الدنيا ، وإذا بها عما قليل أسيرة شهوات مدمرة وفريسة خبيات أمل تكسرت على روحها العالية فأشاعت قنوطاً لا يبلغ مداه التعبير . هنالك أحست بأن الحرية التي نشدتها ليست في الانطلاق بين ملاذ الدنيا ، فهذه عبودية لعلها أعنف وأشد إرهاباً من تلك التي كانت فيها . ولعلها سمعت آنذاك قول معاصرها الأكبر منها — وقد كانت قداسته تملأ الدنيا في ذلك الحين — ألا وهو إبراهيم بن آدم لما أن قال : « الحر من خرج عن الدنيا قبل أن يخرج منها ^(١) » . فالحرية هي « في اصطلاح أهل الحقيقة ، الخروج عن رق الكائنات ومراداتها وقطع جميع العلاقات ... وعلامة الحر سقوط التمييز عن قلبه بين أمور الدنيا والآخرة ، فلا يسترقه عاجل دنياه ولا آجل عقباه ^(١) » . نقول : لعل رابعة بتأثير هذا كله قد

(١) أحد ضياء الدين الكمشغاني : « جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم » ، ص ٢٢٠ .

أفكرت في الحرية الموهومة التي اندفعت فيها ، وما كانت إلا أسراً جديداً لمن له مثل روحها ، أسراً أشد هولاً وقسوة . فلا بد أنها ضاقت ذرعاً بتلك العبودية الجديدة وراحت تتلمس سبيل الخلاص نحو الحرية المنشودة ، الحرية الحقيقية التي تخرجها نهائياً عن رق الكائنات .

وتلك هي السنة الحاسمة النهائية في حياتها ؛ فعندها يتحول الطريق فيتخذ الاتجاه الكامل المضاد . ومثل هذه اللحظات مليئة بألوان القلق والعذاب ؛ إنها الليالي الظلماء الحقيقية في تلك النفوس الكبيرة . فكأني من عودات وتقلبات وترجحات تتوالى فيها ، أحياناً بسرعة البرق الخاطف ! فكانت تتذبذب بين العود إلى الشرارة المقدسة التي أضاءت فترة قليلة ، وبين الاستمرار في هذه الحياة اللاهية الناعمة . ولا بد أن يكون التوتر قد كان في نفسها شديداً كل الشدة في ذلك الحين : لأن الحياة في مدينة البصرة كما عرضناها في أول هذا الحديث كانت تجمع بين الطرفين المتباعدين إلى حد هائل : النعيم الصارخ البالغ أوج الشهوات ، والزهد القائم القاسي المعرّ خدّه بالتراب ؛ الفرحة الزاهية تملأ جوانب الأحياء اللاهية ، والحزن الباكي الدامي بين أشباح المقابر . فلم يكن الانتقال إذاً يسيراً بين الطرفين ، إذ لا مجال للانزلاق الطبيعي اليسور بين الواحد والآخر ؛ بل كان لا بد من حدوث انقلاب مفاجيء سريع يعود فيه الوجود الذاتي على وجوده الأصيل فينتزع نفسه بكل قسوة من السقوط — في — العالم .

فارتدت رابعة إلى نقطة ابتداء خدفتها ، ولسان حالها يقول :

تركت هوى ليل وسعدى بمعزل وعُدتُ إلى مصحوب أوّل منزل

ونادت بي الأشواق : مهلاً ! فهذه منازل من تهوى رؤيدك فانزل

هنا حدثت للتوبة . والتوبة عند رابعة لا تتم بالجهود بقدر ما تتم بالفضل

من الله . روى القشيري^(١) : « قال رجل لرابعة : إني قد أكثر من الذنوب والمعاصي ؛ فلو تبت ، هل يتوب علي ؟ فقالت : لا ، بل لو تاب عليك أتبت . »
 فهي كانت لا تثق في قدرتها على الظفر بالتوبة لمجرد استغفارها وإقلاعها عن ذنوبها ، بل كان لابد لها من رضا الله : فهو وحده الذي يتوب على الناس الخاطئين ؛ فلو لم يتب ، لم تتحقق لديهم التوبة . وهي نظرية نجد لها نظائر عدة في التصوف المسيحي ، خصوصاً في كل ما يتصل بفكرة فضل الله *la grâce divine* .
 ومن هنا يظهر الجانب السلبي القابل في كل طبيعتها ، مما سترها ظاهراً لديها بكل وضوح . ومن شأن هذا الطابع السلبي أن يزيد من قلقها على نتائج أعمالها . فهي لا تدري مطلقاً ما إذا كانت توبتها مقبولة عند الله أو غير مقبولة ، لأن التوبة ليست فعلاً أَوْحالاً تحصله بنفسها ، بل توهبه هبةً . وبهذا نفس أقوالها التي تدور حول هذا المعنى ، مثل قولها : « أستغفر الله من قلة صدق في قولي : أستغفر الله^(٢) » ،
 وأقولها مرة أخرى : « استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه^(٣) » . ففي القول الأول تعبير عن شدة قلقها — وقد أُرْهِفَتْ حَسَّاسَتُهَا في شعورها بالخطيئة — على ما سيكون مآل استغفارها . وفي القول الثاني تؤكد لهذا المعنى مع ذكر الجانب الإيجابي وهو الاستمرار في الاستغفار دائماً ، لأن التوبة ليست حالة ثبات يمكن بلوغها مرة واحدة ، بل هي في حركة مستمرة ولن يستطيع المرء أن يبلغها طالما كان حياً . وفي هذا يدخل جانب حركي يجعل أحوالها الصوفية في سورة دأمة :

(١) « الرسالة القشيرية » ، باب التوبة ، ص ٤٨ القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ = سنة ١٩١٢ م .

(٢) أبو بكر محمد بن إسحاق الكلّاباذي (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ = سنة ٩٩٠ م) :

« التعرف لمذهب أهل التصوف » ص ٦٤ ، نشرة آربري ، القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م .

(٣) عبد الرؤوف المناوي : « طبقات الصوفية » ، مخطوط رقم ٤١٦٤ بالظاهرية بدمشق

ورقة ١٠٤ ب ، وقد أورده ابن الجوزي من قبل في « صفة الصفوة » ص ٤ ورقة ٥٧ ب

مخطوط الظاهرية برقم ٦٧ تاريخ ، كما أورده ابن شاكر السكتي في « عيون التواريخ » ج ٣

مخطوط الظاهرية برقم ٤٤ تاريخ ، ورقة ٧ ب تحت أخبار سنة ١٣٥ هـ .

وطابع النقص هذا هو الذى يشعرها بالزمانية المتجددة مما يضىء على أحوالها طابعاً وجودياً بارزاً . إن التوبة ليست حالة سكونية *statique* ، بل هي حركية قُووية *dynamique* . وهذا يزيدنا وضوحاً في فهم ذلك الجانب السلبي الذى أبرزنا معناه من قبل . فهو لم يقصد به مجرد السلب والقابلية ، بقدر ما قصد به أن يكون مدعاة لإشاعة الحركة عن طريق الصيرورة والتجدد لفعل الاستغفار ، وإدخال الزمانية بواسطة فكرة النقص الملازم لهذه الأفعال . وبهذا نتقذ أحوال رابعة من طابع القابلية المطابقة *quietisme* كما نفسرها على نحو ديناميكي يمتاز بالحركة والصيرورة .

والصوفي الحق ، الصوفي بالمعنى الوجودي ، هو ذلك الذى يغزف عن الرضا لأنه ينطوى على فكرة سلبية خالصة ، فتراه دائماً في خوفٍ على أعماله . وهذا ما أكدته رابعة مرة أخرى حين « قيل لها : أعلت عملا ترين أن يقبل منك ؟ » (ف) قالت : إن كان ، فخوفى أن يُردَّ عليّ^(١) .

ولهذا فتوبة رابعة لم تتم دفعة واحدة ، بل كانت طوال حياتها في توبة مستمرة ؛ فمن التقصير في الفهم إذن أن نعدَّ هذه مرحلة في تطورها الروحي . وكل ما يحق لنا قوله هو التحدث عن ابتداء فعل التوبة ، وإلا فحياتها كلها كانت توبة متصلة .

أما كيف بدأت فعل التوبة وعلى أية صورة ، فهذا مالا تتكفل النصوص ببيانه تفصيلاً ، لأن من المسير تأريخ أقوالها بحيث ننسبها إلى هذه الفترة أو تلك . بيد أننا نستطيع معالجة هذا النقص باتخاذ المعيار التالي : وهو درجة حرارة النبرة في شكاتها وتضرعها إلى الله أن يغفر لها . والصورة الأولى — وفقاً لهذا المعيار — نجدناها في تلك الشكاة التى تفوهت بها رابعة لما أن رآها ذلك الغريب وفرت منه ، فيما حكاها العطار^(٢) وأشرنا إليه من قبل .

(١) المناوى . المرجع نفسه ورقة ١٠٥ .

(٢) « تذكرة الأَوْلِيَاء » ص ٦٠ و ٦١ ، نشرة نيكلسون .

ثم تملو هذه النبذة. وتتخذ صورة من بقايا حياتها التي تريد أن تكفر عنها بعد أن بدأت التوبة . فلو لم تمرّ رابعة بفترة الضلال ، تلك التي انصرفت فيها إلى الدنيا ، وكانت عازفة على الناي تشارك في شهوات الجسد بكل فورتها وعرامتها ، لما رأينا هذه النبذة الجديدة في شكاتها . فالعبارات التي رواها العطار في تلك الصورة الأولى قد خلت من فكرة الحب ؛ ولكن لما أن بدأت التوبة ، كان عليها ، وهي الخارجة من دنيا الشهوات ، أن تدخل عنصر العاطفة الغرامية الحارة . لهذا فنحن نفترض أن عنصر الحب بمعناه الحسى مرفوعاً إلى الألوهية قد أدخلته رابعة في حياتها الروحية نتيجة لفترة الضلال واللغو الآثم التي مرت بها . ومن هنا كان توكيدنا لأهمية تلك الفترة التي مرّ عليها الباحثون مع أنها في نظرنا العامل الأكبر في تكيف النظرة الصوفية عند رابعة ، إن لم تكن بمثابة العامل الأوحد .

فمن هذه اللحظة اصطبغت الشكوى إلى الله بصبغة الحب والرغبة في الاتصال بهذا المحبوب الأعلى . ومن الأقوال التي تخلفت لنا عن تلك اللحظة ما رواه صاحب « الروض الفائق في المواعظ والرقائق^(١) » فقال : « حكى عن رابعة العدوية رحمها الله تعالى أنها كانت إذا صامت العشاء قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخارها ثم قالت : « إلهى ! أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ! » - ثم تُقبل على صلاتها ؛ فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت : « إلهى ! هذا الليل قد أدبر ؛ وهذا النهار قد أسفر ؛ فليت شعرى ! أقبِلت منى ليلتى فأهنا ، أم رددتها على فأعزى ؟ فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعدتني .

(١) الشيخ الحريفيش : « الروض الفائق في المواعظ والرقائق » ، ص ١١٧ ، طبع المطبعة الميمنية بالقاهرة ، سنة ١٣٠٤ هـ = سنة ١٨٨٦ م .

وعزَّتْكَ لو طردتني عن بابك يا بَرَحْتُ عنه لما وقع في قلبي من محبتك . . .
 وهذا نصٌّ ثمين يصور لنا دقائق أحوالها في تلك الفترة . ويلاحظ عليه أولاً
 أنه قد صيغ في عبارة بديعة يسرى فيها عرق شعري ظاهر، مما كان نتيجة طبيعية
 لاشتغالها بالفن عازفة على الناي . فنحن نظن أن العرق الشعري إنما نبض عندها
 لما أن اشتغلت بالعرف ، خصوصاً لما يستلزمه من غناء وإنشاد . فالملكة الشعرية
 كانت كامنة فيها ، فلما قضى عليها أن تصبح عازفة انبثقت تلك الملكة ، خصوصاً
 إذا لاحظنا أنه من غير الميسور أن تقتصر على العزف دون الغناء ؛ فروحنا الشرقية
 لم تكن لتستسيع الموسيقى المجردة لما فيها من تعبير عن اللاهائي ، فضلاً عما للكلمة
 في الحضارة العربية من مكانة مقدسة ، لهذا فنحن حتى اليوم لم نستطع في موسيقانا
 أن نجعلها مجردة عن كل صوت إنساني ، وهذه ظاهرة لا تحتاج إلى فضل تأييد .
 لهذا نرجح إذن أن ابتداء قولها الشعر إنما وقع نتيجة لاحترافها العزف على الناي ،
 فتدفق منها منذ ذلك الحين ينبوع الشعر . ولهذا نرى هذا النص يروى بعد
 ذلك مباشرة أنها أنشدت :

يا سروري ومُنيتي وعمادي وأُنسى وعُدَّتِي ومُرادي
 أنت روحُ الفؤاد ، أنت رجائي أنت لي مؤنسٌ ، وشوقك زادي
 أنت لولاك ، يا حياتي وأنسى ! ما تشئتُ في فسيح البلاد
 كم بدت مِنَّةً ، وكم لك عندي من عطاء ونعمة وأيادي
 حُبُّكَ الآنَ بِنيتي ونعيمي وجلاء لَمَسِينِ قَبي الصادي
 ليس لي عنك - ما حيدتُ - براخ أنت مِنِّي مُمكنٌ في السواد
 إن تكن راضياً ظلي فإني يا مُنى القلب ! قد بدا إسعادي^(١)
 والطابع الحسي ظاهر بكل جلاء في هذه الأبيات ، ويلوح منها أن الأمر

(١) الشيخ الحرفيش « الروض الفائق » ص ١١٧ . طبع القاهرة سنة ١٣٠٤ هـ =

كان لا يزال مختلطاً عليها لأن الخطاب هنا يصلح أن يتجه إلى شخص حتى كما يصلح — بصعوبة — أن يتجه إلى الله . ماذا أقول ! بل هي في هذا الشعر قد تناست أو نسيت أنها تخاطب الله ، فتحدثت عن حبيب لها يلوح أنه كان منتقلاً فاضطرت هي — تحت ستار الترحل لكسب العيش بالعزف ، كما هي الحال بالنسبة إلى الموسيقين عامة في تجوالهم لإحياء حفلات في مختلف البلدان — أن تلاحقه في الأماكن التي كان ينتقل بينها ، لهذا اضطرت إلى التشتت في فسيح البلاد . فلعل ذكرى هذا الحبيب — الذي يمكن افتراض أنه كان العلة في إحداث خيبة الأمل عندها في الحب والناس — قد اختلطت في ذهنها آنذاك ، فعبرت بهذه الكلمات المشبوبة الحسية عن تجربتها معه وإن كان الخطاب موجهاً إلى الله . ذلك أنها لن تستطيع أن تتحدث عن حبها لله إلا إذا صدر ذلك عن تجربة حية عاتها . وتلك كانت تجربتها العنيفة الحية . فحدثت هنا ظاهرة القلب الموضوع ، مما يحدث دائماً في أمثال هذه الأحوال ، إذا كانت العبارة مخصصة وليست مجرد صياغة لفظية خالية من كل حياة . ولهذا فإذا صادف المؤرخ إخلاصاً في التعبير عند الصوفي ، فيجب عليه دائماً أن يفترض وجوب تجارب حية صدر عنها ، فقلبَ موضوعها من المحسوس الإنساني إلى الكائن الأعلى الإلهي . ويمكن تأريخ ما يدخل في هذا الباب وفقاً لتضاد التعبير الحسي الظاهر وتزايد التعبير المجرد الباطن ، ولهذا فنحن لا نرى مانعاً أولاً من أن يكون هذا الشعر صحيح النسبة إلى رابعة — فليس ثمة استحالة مادية تقف دون هذا ؛ ونرى ثانياً أنه لا بد أن ينتسب إلى فترة الانتقال للمباشرة بين عهد الضلال وعهد الإنابة والتوبة .

كل هذا من حيث الصورة . والأمر من حيث المادة يؤكد تلك النتائج : فهي تذكر الإطار الغرامي الملائم : هدوء الليل وضياء النجوم ونوم العيون ، لأنها طالما ألقت هذا الإطار الشعري الرائع في أيام غرامها الآثم ؛ وهذا يدلنا على أنها

حديثه عهد به ، وأنها لا تزال تمنح إليه في أعماق نفسها ، ولعالمها تذكرت لياليها
ألمحور بين مخارف النخيل على ضفاف الأبله ، وقد غفّلت عيون الرقباء من الناس
ومن الشرطه خاصه كلما يتبين في عبارتها ذات الدلالة السكيرة هذه : « وغلّقت
الموك أبوها » ، أي اختفى سلطان الحاكم ، ففي وسعها أن تحتل بجيبيها تساقيه
ما تود من اللذات المحرمة . وتأمل خصوصاً الشوق المتحتم في قولها : « وخلا
كل حبيب بجيبه ! » فيه قشوريرة قلب طالما نَمِمَ بهذه اللحظات العالية !
أتراها نادمة في قولها هذا ؟ كلا ، بل هي قلقة لا تزال موزعة الأهواء بين
الدنيا والآخرة ، وحببها الجديد لا يزال بمنأى عنها لأن الطريق إليه شاقة طويلة ؛
وها هي ذى تتضرع إليه فتقول : « وهذا مقامى بين يديك ! » أية لوعة في هذه
العبارة النارية ! وأية صورة فائنة تستثيرها في الخيال !

لقد بدأت رابعة تستشعر الحب لله ؛ وإنه لينمو وتواكبه مشاعر مختلفة ، لعل
من بينها ومن أقواها الشعور بأنها نذرت نفسها لهذا الحب الأسمى ، وعماقليل ستمعان
خطبتها إليه ، ولعل ذلك أن يفضى في النهاية إلى الزواج الروحي بينها وبين الله .
إنها لم تبلغ بعد تلك المرحلة من التفكير في الاقتران بالله ؛ ولا بد أن تأتي
حَيُونَة - صديقتها الهائمة في أودية العشق الأسمى *consommé* - فتنبها إلى هذا
المعنى . ذكر أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابورى^(١) أن رابعة زارت حَيُونَة ؛
« فلما كان جوف الليل حمل النوم على رابعة ؛ فقامت إليها حَيُونَة فركلتها برجلها
وهي تقول : قومي ! قد جاء عرس المهتمدين . يا من زين عرائس الليل بنور التهجد ! »
وهذا نص على أكبر درجة من الخطورة لأنه يتحدث عن وجود فكرة
الزواج من الله والاقتران به لدى الصوفيات المسلمات حتى منذ القرن الثانى الهجرى

(١) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى : « عقلاء المجانين » ، نشرة وجيه
التكلىانى ، ص ١٢٨ ، دمشق سنة ١٩٢٤ م .

أى الثامن الميلادى ، وهى الفكرة التى لعبت دوراً خطيراً فى التصوف المسيحى ابتداءً من القديسة تريزا الأبلية التى عاشت فى القرن السادس عشر الميلادى ، أى بعد أولئك الصوفيات المسلمات ثمانية قرون. وإذا كنا لا نستطيع أن نتحدث عن تأثير مباشر لهؤلاء الصوفيات المسلمات فى القديسة تريزا ، فإننا نترك هذه المسألة مفتوحة أمام الباحثين .

وندع هذا النص جانباً الآن ، ونعود إلى النص السالف ، فراها بعد أن تقبل على صلاتها حتى مطلع الفجر تسأل الله هل قبل منها ليلتها فتحناً ، أم ردها عليها فتأسى . وإنها لتعاهد الله على أن تكون راضية بكلتا الحصلتين : فسواء لديها أقبَل الله أعمالها أم لم يقبلها ، فستلح وتناضل ، لأنها تجد فى هذا الجهاد النفسى وحده معنى حياتها ، ولا عليها إن كُتِل بالقبول أو لم يكَلَل . ولذا تقول بعبارة تم عن إخلاص لا حد له فى العبادة : « وعزتك ! لو طردتنى عن بابك ، ما برحتُ عنه ، لما وقع فى قلبى من محبتك » . وهنا يتجلى التواضع عندها بأجلى صورته . وما أبعد الفارق بينها وبين الخلاج مثلاً لما أن قال : « يا أهل الإسلام ! أغثونى ! فليس (أى الله) يتركنى ونفسى فأنسى بها ، وليس يأخذنى من نفسى فأستريح منها . وهذا دلال لا أطيعه^(١) » . فى هذه النبذة من الأدعاء والكبرياء ما لا يتفق وروح رابعة ، على الأقل فى الفترة التى لا تزال بصدها . فالدلال فى هذه العبارة الخلاجية هو بالأحرى من جانب الخلاج على الله ، أما رابعة فإله هو الذى يتدلل عليها ، لذا تدعوه وترجوه بكل خشوع وذلل وضراعة . وتلك هى الدرجة العليا فى الصلة بين العبد والرب ، فى صلة الحب الحقيقية التى لا تستلزم تبادلًا وإلصارت إلى حال من السكون هو والموت سواء . إنما الحب الحق هو ذلك الذى يتألم فيه أحد الطرفين دون أن ينال شيئاً ، لأنه إذا تم التبادل فسد معنى الحب . وهذا

(١) ماسينيون وكراوس : « أخبار الخلاج » ، تحت رقم ٣٨ . باريس سنة ١٩٣٦ .

أمر قد فصلنا القول فيه في موضع^(١) آخر فلا مجال بعد لفضل بيان . ورابعة هنا تريد أن تؤكد هذا المعنى بكل قوة ، وفي توكيدها له تريد أن تدل على معنيين : الأول النزاهة المطلقة في صلة الحب بحيث لا يُقصد من ورائه جزاء ، ولا حتى مجرد التبادل فيه ؛ الثاني أن الحب الصحيح هو ذلك الذي يستبعد كل تبادل . وكأنها كانت تريد من الله أن يقول لها ما قالته فيلين في « فلهلم ميستر » لجيته : « إذا كنت أحبك ، فهل هذا يعينك ؟ »

ولكى نزيد هذا المعنى في نص رابعة إيضاحاً و بروزاً نود أن نضع إلى جواره نصاً آخر لصوفي كبير هو أبو سليمان الداراني (المتوفى سنة ٢١٥ هـ = سنة ٨٣٠ م) يكاد أن يتشابه مع نص رابعة في بعض حروفه ، لكن لستان ما بين المقصود في كل منها ! قال القشيري : « حَدَّثَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ وَهُوَ يَبْكِي ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا يَبْكِيكَ ؟ فَقَالَ : يَا أَحْمَدُ ! وَلِمَ لَا أَبْكِي ، وَإِذَا جَنَّ اللَّيْلُ وَنَامَتِ الْعْيُونَ وَخَلَا كُلُّ حَيْبٍ بِحَيْبِهِ وَاقْتَرَشَ أَهْلُ الْحَبَّةِ أَقْدَامَهُمْ وَجَرَّتْ دُمُوعُهُمْ وَتَقَطَّرَتْ فِي مَحَارِبِهِمْ ، أَشْرَفَ الْجَلِيلُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — فَنَادَى : يَا جَبْرِيْلُ ! بَعْنِي مِنْ تَلَذُّذِ بَكْلَامِي وَاسْتِرَاحِ إِلَى ذِكْرِي ، وَإِنِّي لَمُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ فِي خَلْوَتِهِمْ أَسْمَعُ أُنْيُنَهُمْ وَأَرَى بَكَاءَهُمْ ؛ فَلِمَ لَا تَنَادِي فِيهِمْ يَا جَبْرِيْلُ : مَا هَذَا الْبَكَاءُ ؟ هَلْ رَأَيْتُمْ حَيْبًا يَعْذَبُ أَحْبَاءَهُ ؟ أَمْ كَيْفَ يَجْمَلُ بِي أَنْ آخِذٌ قَوْمًا إِذَا جَنَّ اللَّيْلُ تَمَاقَوْا لِي ؟ فَبِي حَلَفْتُ أَنَّهُمْ إِذَا وَرَدُوا عَلَى الْقِيَامَةِ لَا كَشْفَنَ لَمْ عَنْ وَجْهِ الْكَرِيمِ حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَيَّ وَأَنْظُرَ إِلَيْهِمْ »^(٢) . فهنا نرى الداراني يلجأ إلى أمثال هذه الأحاديث القدسية التي بدأ الصوفية في إذاعتها على أنها من وحي الله لهم^(٣) كما يجد عزاءً في تبادل الحب بين الله وبينه هو ومن

(١) راجع كتابنا : « الزمان الوجودي » ، ص ١٦٤ . القاهرة سنة ١٩٤٥ .

(٢) « الرسالة القشيرية » ص ١٥ ، القاهرة ١٣٣٠ .

(٣) راجع : ماسينيون : « بحث في نشأة المصطلح الفني للصوفية في الإسلام » ، باريس سنة ١٩٢٢ .

على شاكلته من أهل المحبة . وفي هذا نجد تراجعاً عن ذلك المعنى الجليل الصافي الذي أعطته رابعةٌ للحب الإلهي .

وهذا كله فضلاً عن معاني القلق والاضطراب واللهفة التي تشيع في عبارات رابعة في ذلك النص ، مما يصف حال العاشق القلق أدق وصف . على أن فكرة الحب لم تكن بعد قد اتضحت في نفس رابعة ، إنما هي معاني امتلأت بها نفسها ولما تَشَحَّلُ إلى صورة عقلية بادية الأسارير .

— ٤ —

بدأت رابعة إذنب في التوبة ، وفتحت صفحة جديدة من حياتها الروحية هي مزيج من القلق والاستغفار والشوق إلى المحبوب الجديد الذي اتخذته لنفسها .

فإذا حاولنا تعرّف العناصر الجديدة في حياتها وما اتخذته من وسائل للسير في الطريق إلى الله لم نعر إلا على أخبار متناثرة ، سنحاول مع ذلك ، جهدنا ، أن نستخلص منها ما قد يجلو هذا الجانب .

أما الأدوات التي اصطنعتها فهي التهجّد وقيام الليل : تصلى وتدعو وتقرأ ما تيسر من آي القرآن . ثم استذكار الموت .

فكل المصادر تجمع على أنها كانت تقوم الليل كله . قال ابن الجوزي في « صفة الصفوة » بعد سلسلة من الأسانيد تنتهي عند عبدة بنت أبي شوال ، وكانت من خير إماء الله تعالى ، وكانت تخدم رابعة ، قالت : « كانت رابعة تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر ، هجعت في مصلاتها جمعة خفيفة حتى يسفر الفجر فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فزعة : يا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور -

عالت : فكان هذا دأبها ، دهرها ، حتى ماتت ^(١) . ويلوح أنها كانت حريصة كل الحرص على التهجيد . ويدل على هذا أنها ما كانت تنقطع لحظة عنه حتى تشعر بالزواج تترى عليها لتردها إلى سالف سُنَّتِها . ولعل أبلغ دلالة على هذا ما رواه صاحب « مصارع العشاق » ^(٢) من أنها كانت قد انقطعت عن قيام الليل إثر علة ، فرأت في منامها حلاماً مفزاه أنها بانقطاعها عن الليل قد جرّت عليها غضب السماء وكادت تفقد بهذا ما حصلته من قبل بتهجدها . ولهذا أقبلت عليها الحورية التي رافقتها في تجوالها في الجنة إبان هذه الرؤيا وقد رأت انصراف الوصفاء عنها تؤنبها بهذه الأبيات :

صلاتك نورٌ والعباد رقود . ونومك ضد للصلاة عنيد

وَعُمْرُكَ غَمٌّ إِنْ عَقَلْتَ وَمَهْلُهُ يَسِيرٌ وَيَفْنَى دَائِمًا وَيَبِيدُ

ثم غابت عن بين عيني ؛ واستيقظتُ حين تبدى الفجر . فوالله ما ذكرتها فتوهمتها إلا طاش عقلي وأنكرتُ نفسي . قال : ثم سقطت رابعةً مغشياً عليها . ورابعة في هذا لم تكن تفعل غير ما سنه القرآن وأنت به الشئمة وسار عليه الصحابة والتابعون . فالآيات التي تحث على قيام الليل عديدة منها : « والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً » (الفرقان : ٦٥) ؛ « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » (السجدة : ١٦) ؛ والأحاديث لاتكاد تحصى مثل : « عليكم بقيام الليل فإنه مرضاة لربكم ، وهو دأب الصالحين قبلكم ؛ ومنهاة عن الإسهم ؛ وملغاة للوزر ؛ ومذهب كيد الشيطان ؛ ومطرودة للداء عن الجسد » . وبالغ التابعون في هذا حتى ليدكر

(١) ابن الجوزي : « هفة الصفة » ج ٤ ص ٥٨ ب ، مخطوط الظاهرية برقم ٦٧ تاريخ . وأورده ابن خلكان : « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٢٥٦ ، القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ . سنة ١٨٥٨ م ، وابن تغري بردي : « النجوم الزاهرة » ، ج ١ ص ٣٣٠ ، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ .

(٢) أبو محمد جعفر بن أحمد بن حسين السراج القارى : « مصارع العشاق » ، ص ١٣٦ ، طبع الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠١ هـ = ١٨٨٣ م .

عن أربعين منهم أنهم كانوا يُصَلُّونَ الغداة بوضوء للعشاء ، منهم سعيد بن المسيب
رواه الفضيل بن عياض وهيب بن الورد وأبو سليمان الداراني وأبو خنيفة ، وهم جميعاً
ينتسبون إلى محصر رابعة ؛ فعادة قيام الليل إذن كانت منتشرة عند كل الصالحين
سواء أكانوا من أهل الطريق فعلاً أم لم يكونوا . وإنا لنجد كثيراً من المؤلفين
في التصوف يكرسون فصولاً طويلاً لمسألة قيام الليل ، ولنذكر على سبيل المثال
صاحب « عوارف المعارف » الذي عقد أربعة أبواب لقيام الليل^(١) .

وكان قيامها الليل إما مفردة وحيدة أو مع أصحابها وصواحبها . أما أصحابها
فمن بينهم سفيان الثوري فيما رواه العطار فقال : « قال سفيان الثوري : كنت
عند رابعة ذات ليلة . فصلت حتى مطلع الفجر ؛ وصلت أنا كذلك . وفي الصباح
قالت : علينا أن نصوم اليوم شكراً على هذه الصلوات التي أقمناها الليلة^(٢) » .
وهو يروى كذلك حدثاً مشابهاً مع الحسن البصري يقول فيه : « يروى أن الحسن
البصري قال : بقيت يوماً وليلة عند رابعة تتحدث عن الطريق وأسرار الحق
بحرارة بلغت حدّاً نسينا معه أنني رجل وأنا امرأة . فلما فرغنا من الحديث
شعرت بأنني لم أكن إلا فقيراً ، بينما هي كانت غنية بالإخلاص^(٣) » . وهذه الرواية
لا يمكن أن تكون صادقة من الناحية التاريخية في نظرنا لأنها تجمع بين الحسن
البصري ورابعة ، ونحن ممن يرجحون أن تكون وفاتها سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ
لا سنة ١٣٥ هـ كما يود أولئك الذين يريدون أن يجمعوا بينهما حتى يفسروا ورود
أخبارها مع الحسن البصري — وسنرى أدلة ترجيح رأينا بعد حين . ولذا
سنرفض كل ما يروى من أخبار لرابعة مع الحسن البصري . وإنما صيغت هذه
الرواية ، كما صيغ أمثالها ، من أجل التمجيد لسكتها هاتين الشخصيتين الكبيرتين .

(١) من ٤٥ إلى ٤٨ ، ص ٢٥٠ إلى ص ٢٦٣ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م .

(٢) فريد الدين العطار : « تذكرة الأولياء » ، (راجعه بعد) نشرة نيكولسون .

(٣) المرجع السالف .

على أننا نستطيع مع ذلك أن نستخلص من هذا الخبر أنها كانت تَمْضَى الليل أحياناً بصحبة بعض الصالحين . أما الصواب فقد روت لنا المصادر من بينهن حيونة^(١) — كما أشرنا إلى هذا من قبل — وهى التى يذكر عنها فى هذا الخبر أنها كانت أقدر على قيام الليل من رابعة .

على أنه يلوح أن رابعة لم تكن تقوى على الاستمرار فى هذا التهجد ، خصوصاً لما بالغت فى الزهادة فهزل بدنها وضعفت مُنتَهَا فلم تعد تقوى على السهر الدائم . وآية ذلك ما روى عن أخبار بعض اللصوص معها ؛ هذا إن صحت هذه الأخبار ، وإن كان الأرجح أنها من نسج خيال القصاص استنباطاً للعبرة فى هذه الأحداث التى جرت لها معهم أو بياناً لكرامات لها أرادوا نسبة وقوعها إليها .

ذلك فيما يتصل بالتهجد الذى كان يُقضى فى قراءة القرآن وذكر الله . لكننا لانستطيع أن نعرف بالتفصيل من أى شىء كان يتكون هذا الذكر . فالسمع بالمعنى المعروف بعد ذلك عند الصوفية لم يكن قد نظم على هيئة حلقات ، إذ أن أول حلقة للسمع أنشأها صديق للسرى السَّقَطِي (المتوفى سنة ٢٥٣ هـ) فى بغداد ، وهو على التنوخى . أما مجالس الذكر فكانت قد أنشئت ، منها مجلس الحسن فى مسجد البصرة الجامع ، ومنها مجلس الذكر الذى أقامه عيسى بن زاذان فى الأبلَّة حوالى سنة ١٢٠ هـ . ولا بد أن يكون الذكر قد تطور فى هذه المجالس فلم يعد يقتصر على مجرد تكرار اسم الله وما يشابهه من الصيغ البسيطة ، خصوصاً ونحن نعلم أنه قد بدىء بإقامة رِبْطٍ ، فكان أول رباط أنشئ حوالى سنة ١٥٠ هـ فى عبادان على يد تلامذة عبد الواحد بن زيد ، صديق رابعة ، وهو الرِّبَاط الذى ظفر بشهرة واسعة حتى كانت للصلاة فيه فضيلة وميزة ، ويلوح أن الرِّبَاط فى ثورتهم هم الذين

(١) أبو القاسم النيسابورى : « عقلاء المجانين » ، ص ١٢٨ ، دمشق سنة ١٩٢٤ .

هدمونه سنة ٢٦٠ هـ^(١) فلا بد أن تكون قواعد الذكر ، ولو في صورة أولية ، قد صيغت وتطورت في هذا الرباط ، ولا بد أن تكون رابعة على صلة بما يجري فيه : أولاً لصلتها بعبد الواحد بن زيد شيخ الذين أنشأوه ، وثانياً لكونه في عبادان أى في ضواحي البصرة ، فمن الطبيعي أن تكون على صلة به ، وإن كانت لم تدخله مرابطة ، لأن الأخبار لا تحدثنا عن نزولها به ، ولعل وصفها امرأة لم يكن يجوز لها الاتصال به ، كما أن الأخبار لم تحدثنا عن نزولها بغير بيتها الذى أتينا على وصفه في مستهل هذا الحديث ، اللهم إلا أن نفترض في هذا « الكوخ » نوعاً من الصومعة أو الدويرة ، وهو افتراض لا ينهض لأن صلاتها العديدة برجال عصرها تنفي عنه هذه الصفة ، فضلاً عن أن أخبارها تتحدث عن جيرة لها ؛ فمن المستبعد أن يكون « كوخها » هذا صومعة أو دويرة بالمعنى الحقيقى . إنما عكفت على نسكها وانقطعت للعبادة في بيتها بالبصرة ؛ ونميل إلى تحديد مكانه في القسم الغربى من المدينة ، بعيداً عن الحى اللاحى الذى هجرته مادامت هجرت نوع الحياة فيه .

أما الأداة الأخرى التى كانت تستخدمها للتواجد فهى كما قلنا استذكار الموت . ولهذا اتخذت مشجب قصبٍ طوله من الأرض قدر ذراعين عليه أكنافها كى تتأمله على الدوام فتتغبط بكل المعانى التى تتضمنها فكرته ، وتجتلب أحوال الخوف والفرح والإغماء والبكاء التى كانت تستدعيها إمعاناً في الضراعة . ويلاحظ أنه كان له أثر شديد في نفسها : فبه كانت تستدعى البكاء مبتهلة ومصلىة . قال المناوى : « وكان كنفها لم يزل عندها ، ويجدون محل سجودها كالماء المستنقع من كثرة البكاء^(٢) » . ولقد كان عصرها عصر بكائين ، خصوصاً أصدقائها مثل

(١) راجع في هذا كله : ماسينيون ، « بحث في نشأة المصطلح الفنى للتصوف في الإسلام »

ص ١٣١ و ١٣٦ ، باريس سنة ١٩٢٢ .

(٢) عبد الرؤوف المناوى : « طبقات الصوفية » ورقة ١٠٥ — ب ، مخطوط

بالظاهرية برقم ٤١٦٤ عام

رياح بن عمرو القيسي الذي « كان إذا دخل المسجد بكى ، وإذا دخل بيته بكى ، وإذا دخل الجبانة بكى . فيقال له : أنت دهرك في ماتم ؟ فيقول : يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا ^(١) » . ولعل الحسن البصرى قد كان من أول الذين بدأوا هذه السلسلة الحافلة من البكائين الذين زخر بهم القرن الثاني للهجرة في مدينة البصرة . وي لوح أن انتشار هذا البِدْع إلى أبعد حد هو الذى حال بين رابعة وبين التجديد في هذا المضمار . فلقد كان ينتظر منها — وقد كانت عازفة — أن تستعين في التواجد بأدوات السماع ، لكن يظهر أن طبيعة العصر — بما طبع عليه من قسوة وميل إلى الحزن والبكاء والصراخ والإغماء وبالجملة كل ما يتصل بالأحزان والغم — قد فرض عليها فرضاً أن تتابع السُّنمة الجارية والعادة المتبعة ، وإلا كانت في خطر ألا ينظر إلى أعمالها على أنها تدرج في باب التقوى . ويبدو كذلك أنها لم تكتفِ باتخاذ ما كان جارياً ، بل بالغت فيه كما تفيض بهذا أخبارها وأحكامها على زهاد عصرها . فهي كانت تسمى عبد العزيز بن سليمان الراسبي ، من الطبقة السادسة من تابعى أهل البصرة ، باسم سيد العابدين ، وهو قد « كان إذا ذكّر القيامة والموت صرّخ كما تصرخ الثكلى ويصرّخ الحاضرون من جوانب المسجد ، وربما وقع الميِّت والميتان من جوانب المسجد ^(٢) » . فيشبه أن يكون تقديرها له كل هذا التقدير إنما كان لإفراطه في البكاء والصراخ والفرع من الموت .

على أننا لا ندرى إلى أى مدى أثر تأمل الموت هذا في تكييف حياتها وتصوير نظرتها في الوجود . إذ ي لوح أن الأمر لم يكن يتجاوز الجانب العاطفى دون أن

(١) التناوى : المرجع السابق ، ورقة ١٠١ ب .

(٢) راجع : ابن تفرى بردى : « النجوم الزاهرة » ، ج ٢ ص ١٥ س ١٤ — ص ١٥ ، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ . تحت سنة ١٥٠ هـ التى توفى فيها عبد العزيز الراسبي . هذا . وهو ينقل هذا الخبر عن أبى المظفر عبد الرحمن ابن الجوزى في « مرآة الزمان » .

يتحول إلى تفكير نظري فيما ينطوي عليه معنى الموت ، أو على الأقل ليس لدينا
من الأقوال ما يبين لنا عن نتائج تأملها في الموت والفناء . فكانت تستعينه لجرد
استدعاء الأحوال الوجدانية ، مما كان يولد في نفسها خوفاً هائلاً . وإلى هذه
الفترة يجب أن نعزو ما ينسب إليها من أوصاف وأقوال تتصل بالخوف وخشية
النار والشعور بالعدم . قال المناوي : « وكانت شديدة الخوف جداً . فإذا سمعت
بذكر النار أغمى عليها^(١) » . وهي أقوال لا تتفق مع الأقوال الأخرى التي
تنسب إليها عن نظريتها في النار . ومعنى هذا الآن بإزاء مرحلة التكوين
في نظريتها الجديدة في الحياة الصوفية .

ومرحلة التكوين هذه ، في هذه النقطة كما في السابقة (أى في التهجذ وقيام
الليل وفي تأمل الموت) ، إنما كانت لا تزال فيها تسير على سُنَّة العصر ، بل والجيل
الذي قبله ، فعند الخوارج كما عند بقية الصالحين نجد هذه الأحوال كلها . إن
رابعة لم تكتشف بعدُ طريقها الحقيقي . ذلك عهد الطلب عندها .

أما عهد التقل قد بدأ لما أن ذهبت إلى الحج . متى تم هذا وكَم كان عمرها ؟
هذا ما لا تكشف الوثائق عنه . على أنه لا يمكن أن يتعدى هذه المرحلة المباشرة
الوقت التوبة ، لأن فريضة الحج بالنسبة إلى الصوفي من الفرائض الضرورية
في مستهل الحياة الروحية . على أن حجها كان في البدء لجرد إتمام الواجبات
الدينية ؛ ولا يمكن أن نفترض في حجها الأولى أنه وقعت لها تلك الكرامات
المرعومة التي تنسب إليها في عدة روايات .

إنما يلوح أن معنى الحج قد تطور في نفسها شيئاً فشيئاً سنة بعد سنة ،

(١) المناوي : « طبقات الصوفية » ، ورقة ١٠٤ ب .

فتضاء الجانب المادى وازداد الجانب الروحى المجرى. ولئن تستطيع أن تتابع
مراحل هذا التطور وترسم له المنحنى بالدقة، خصوصاً لأن الروايات الخاصة بحجها
توغل في أعماق الأساطير، لأنها تتعلق بكرامات وقعت على يديها، مثل ما رواه
الطار^(١) من أنها ارتحلت ذات يوم إلى الكعبة ومعها حمار يحمل متاعها. فنفق
الحمار في الطريق، فقال أصحاب القافلة: سنحمل متاعك على دوابنا. فقالت رابعة:
ما كان اتكالى عليكم لما أن رحلت؛ بل ثقى بالله تعالى. فارتحلوا إذن وهدموا.
فلما ارتحلت القافلة دعت رابعة الله وهى تقول: «إلهى! أكذا يفعل الملوك
بمبيد الضعفاء العاجزين؟ لقد دعوتنى إلى زيارة بيتك، وها أنت ذاتدع حمارى
ينفق في الطريق وتدعى في الفياق وحيدة!» فما آتت هذه الكلمات حتى نهض
الحمار مليئاً بالحياة. فوضعت عليه متاعها واستمرت في طريقها ولحقت بالقافلة.

تلك وأمثالها من الروايات القائمة على الكرامات لا يمكن أن نقيم لها وزناً.
لكن يمكن أن نأخذ منها أن رابعة كانت لا تزال تغدو إلى الحج على دابة.
وتمت روايات أخرى تقول إنها ذهبت وهى تتقلب على أضعالها. قال الطار^(٢)
أيضاً: «روى الشيخ أبو على الفارمذى^(٣) أنه لما جاء موسم الحج، توجهت
رابعة ناحية الصحراء، وتقلبت على أضعالها حتى بلغت التكبية في سبعة أعوام». —
ولهذا يجب أن نفترض — على صحة هذه الرواية — أنها قد انصرفت عن اتخاذ المظلمة
وهى غادية إلى الحج. لكن هذا يجب أن ينسب إلى دور متأخر لما أن دخلت
في دور الزهادة الكاملة.

وتتابع في هذا الموضوع تطور معنى الحج عندها حتى آخر حياتها على افتراض

(١) فريد الدين الطار: «تذكرة الأولياء»، ج ١ ص ٦١ نشرة نيكولسون.

(٢) المرجع السابق، ج ١ ص ٦٢.

(٣) هو أبو على الفضل بن محمد الفارمذى تلميذ أبى القاسم القشبرى وأستاذ الغزالي.

راجع عنه ما ورد في كتابنا: «شخصيات قلقة في الإسلام»، ص ١٤٠ تعليق.

أن ذلك كان في توازٍ مع تطور حياتها الروحية نحو زيادة التجريد والتنزبه والعزوف عن الدنيا والتجرد عن كل ما فيها . ونستطيع أن نقسم هذا التطور إلى ثلاث مراحل :

فالمرحلة الأولى كانت فيها تؤدي تلك الفريضة كما يؤديها بقية الناس ، ولا تكاد ترى في الحج إلا ما يراه المسلم العادي من التبرك بزيارة البيت العتيق وقبر الرسول واستعادة آثار الإسلام الأول وإحياء معاني الإيمان الوليد ليزيد المرء إيماناً وتقياً ، فضلاً عن فوائد الاجتماع بالناس . وما إلى هذا مما يعرفه الناس العاديون للحج من فوائد . وهي إذن لم تكن تفعل إلا ما يفعله بقية الناس ولم تهَبْ الحجَّ بعدُ معنى روحياً خاصاً . ولهذا تقع هذه المرحلة في العهد التالي لتوبتها مباشرة ؛ ويجوز أن تكون هذه المرحلة قد امتدت سنوات يقدر عددها بمقدار تعاقبها بعدُ بالأوضاع الحسية في الدنيا ، أي أنها تقع في عهد الطلب والتنقل الأول . وهي كانت لا تزال ترى أن للقيام بالحج ثواباً شرعياً كبقية أركان الدين . ولعل مما يمكن نسبتته إلى هذا الدور قولها : « إلهي ! وعدت بجزاءين لأمرين : القيام بالحج والصبر على الشدائد . فإن لم يكن حجّي صحيحاً مقبولاً عندك ، فياويلتاه وما أشد هذه المصيبة عندي ! لكن ما جزاء هذه المصيبة ؟ » (١) . فهذه صرخة من أعماقها تدل على أنها لا تزال تحرص على المعنى الحسني المادي في الحج .

ثم كانت المرحلة الثانية لما أن بدأت تؤدي الحج على قدميها أو متقلبة على أضلاعها وما إلى هذا من أنواع التعذيب التي يرى الصوفي أنها ضرورية لمضغفة ثواب الحج . فيأبراهيم بن أدهم يحكي عنه أنه أمضى أربعين سنة في حجة واحدة لأنه كان في كل خطوة يصلي ركعتين . وكان يقول : « غيري يسلك هذا الطريق على قدميه ، أما أنا فأسلكه على رأسي » (٢) . ومع إسقاط عنصر المبالغة الضرورية

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ٦٢ .

(٢) العطار : المرجع نفسه ، ج ١ ص ٦١ .

في مثل هذه الأحوال — طبقاً في هذه الرواية! — فإنها يمكن أن تشير مع ذلك إلى أن الصوفية كانوا يَفْتَنُونَ في التعذيب لأنفسهم وهم يسبيل الحج حتى يزداد الأجر ويضاعف الثواب . والطار يروى هذا الخبر ليربطه بكرامة أخرى لرابعة وهي أن الكعبة قد ذهبت بنفسها للقاء رابعة واستقبالها ، ولهذا لم يجدها إبراهيم بن أدهم في مكانها بعد هذا الجهد الشاق كله !

أما وقد ارتفعت حرارة إيمانها وازدادت شعوراً بنفسها بفضل هذه المجاهدات التي فرضتها على نفسها وهي بسبيل الحج ، فقد كان من الطبيعي أن يعلو معنى الحج في نفسها . فبعد أن كانت في المرحلة الأولى تطلب الكعبة لرؤية الكعبة ، صارت تداعبها الآن فكرة طلب الكعبة لرؤية رب الكعبة . روى الطار^(١) فقال : كانت رابعة في طريقها إلى الكعبة ذات يوم ، فبقيت وحدها في الصحراء ، وشعرت الوحشة فصاحت : « إلهي ! إن قلبي ليضطرب في هذه الوحشة . أنا لَبِينَةُ والكعبة حجر . وما أريده هو أن أشاهد وجهك الكريم ! » فناداها صوت من عند الله تعالى يقول : « يارابعة ! أتطلبين وحدك ما يقتضى دم الدنيا بأسرها؟ إن موسى حين رام أن يشاهد وجهنا ، لم نُلقِ إلا ذرة من تورنا على جبلٍ نَفَرَ صَعَقاً ! » . في هذه الرواية نرى رابعة تتحدث عن الكعبة على أنها حجر فحسب ، أي أنها بدأت تتخلص من التلبس بالمعنى الحسي في الحج . والرواية الأخرى التي يرويها الطار نقلاً عن الشيخ أبي علي الفارمذي فيما يتصل بتقليها على أضلاعها سبعة أعوام يمكن أن تندرج تحت هذا المعنى عينه . فهي في هذه المرحلة الثانية إذاً قد جردت الكعبة عن مادتها وأبقت لها معناها . وهي لا تزال تؤمن بفائدة الحج إليها . أما في المرحلة الثالثة والأخيرة فقد زال كل معناها وعادت لا ترى للكعبة معنى . ذكر الطار قال : « يروى أن رابعة كانت بسبيل الحج فرأت الكعبة قادمة

نحوها عبر الصحراء ، فقالت : « لأريد الكعبة ، بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها؟! » ولم تشأ أن تنظر إليها ^(١) . هذه فكرة على أكبر درجة من الخطورة ، إن صحت الرواية التي أوردتها العطار ، وليس بمستبعد أن تكون صحيحة ، فهي نفس الفكرة التي لعبت دوراً خطيراً في مذهب الحلاج وكانت من بين أسباب تكفيره ثم صلبه . ذلك أن الحلاج بعد أن حجّ للمرة الثالثة والأخيرة اعتقد « أن شوقنا إلى الله يجب أن يمحو عقلياً في نفوسنا صورة الكعبة كيما نجد « من » أقامها ، وأن نحطم معبد بدننا كيما نبلغ « من » جاء إليه ليتحدث إلى بني الإنسان » ^(٢) .

فها هي ذى رابعة قد أمتحت في نفسها صورة الكعبة لأنها تريد أن تجد من أقامها . وبهذا تطور المعنى الحسى للحج فأصبح مجرد مناسبة لرؤية الله ، بل صار في وسعها أن تستغنى نهائياً عن هذه الفريضة لأنها ستجد الله في نفسها ، فما حاجتها بعد إلى مشاهدته عند الكعبة ! وهذا كله كانت تواكبه عملية التنزيه المستمر والتجريد المتصل في فهما لسائر معاني الحياة الروحية .

ولعل هذا التطور في التنزيه والتجريد قد أبلغ أوجه فيما رواه ابن تيمية قال : « قال على الحريري : قيل عن رابعة إنها حجّت فقالت : هذا (أى البيت الحرام) الصنم المعبود في الأرض ، وإنه ما واصلج الله ولا خلا منه » ^(٣) . وهذا يؤيد الرواية التي ذكرها العطار ، وفيه من الجرأة في التعبير قدر هائل يدل على مدى بلغه فكر رابعة من جسارة لا نجد لها نظيراً في هذا القرن ولا في الذي يليه عند الصوفية ؛ ولعله لم يظهر بوضوح لأول مرة إلا ابتداءً من الحلاج . كيف لا ، وهي ترى في

(١) فريد الدين العطار : « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ٦١ .

(٢) ماسينيون : « المنحى الشخصى لحياة الحلاج » في كتابنا « شخصيات قلقة في الإسلام »

ص ٦٨ ، القاهرة سنة ١٩٤٦ .

(٣) ابن تيمية : « الرد على الحريرية » ، (أوردته ماسينيون في : « مجموع نصوص

غير منشورة خاصة بالصوف الإسلامي » ص ٨ برقم ٨) .

فيه أبلغ دلالة على مرتبة التجريد والتنزيه التي بلغتها، إن صحت هذه الرواية؛ أو التي ظن الكتاب المؤرخون للصوفية أنها بلغتها بالنسبة إلى إبراهيم بن آدم وهو من هو زهداً وعلو كعب في الطريق— إن لم تصدق هذه الرواية. ذلك أنها تقصد من قولها إنه جاء الكعبة ومؤهلته الصلاة: أنه لا يملك إلا هذه الشعائر الدينية والمراسم والطقوس يؤديها بمعناها الظاهر دون أن يجردها ويرفعها إلى المعنى الباطن؛ أما رابعة فقد ارتفعت فوق هذه الدرجة التي تقوم على الظاهر المحسوس، إلى درجة عليها استحال فيها المرسم الديني إلى رمز، وآضت فيها الشعيرة من شعائر الإيمان إلى معنى مجرد. « فالفقر » هنا هو « الفقر من المادة » أي التجرد عنها نتيجةً للتجرد عن الدنيا، هو التروحن المستمر، هو الشفوف الذي يطلع على النور الأعلى. ورد في « جامع الأصول » أن الفقر أصله رجوع العبد « إلى عدمه الأصلي بحكم سبق الأزل، حتى يرى وجوده وعمله وماله ومقامه كلها فضلاً من الله وامتناناً محضاً^(١) » فيشعر بارتداده إلى حال العدم الأصيل لما أن كان إمكاناً محضاً، ويفنى في صفات الألوهية، ويطمس في عين الجمع الأحادية فيكون على أتم إعداد لقبول الاتحاد بالألوهية — وهذا هو معنى مشاهدة الله وجهاً لوجه: فهو امتزاج الواحد بالآخر إبان لحظات تطول وتقص وتقل وتكثر وفقاً لما يهبه الله من لطف من لدنه بالعبد المتجرد في حضرته. إن إبراهيم كان لا يزال يرسف في قيود الشعائر لأنه يرى الغاية في أداء التكاليف، أما هي فقد تجاوزت نطاق المراسم إلى المعاني الثابتة في ملكوت الأزل قبل الخلق الزماني، وتجردت عن الأعيان الزائلة كما تحيا في الأعيان الثابتة وهي حقائق الممكنات في علم الحق تعالى، هي الوجود الماهوي (Existenz) الذي تسوده الطهارة والبركة.

(١) الشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخاني: « جامع الأصول في الأولياء » ص ٣٥١ .

لتستغن عن الكعبة إذاً : فالحضرة تنشد في أى مكان . لقد كان هذا البيت العتيق ، « هذا الضم المعبود على الأرض » ، بمثابة أداة تعينها على السباحة في بحر الألوهية الزاخر ، وجناح صناعى تدرعت به ربثاً ينبت في جناحيها الطبيعيين الريش . أما الآن وقد بلغت ما بلغت ، فلتطرّحه . وهذا معنى إقبال الكعبة إليها ، أى أنها لم تعد في حاجة إلى الانتقال كما تنعم بالحضرة ، بل ستفقدتها أياً كانت هي .

لقد بلغت مرحلة التبادل بين الحضرة وبينها . كانت تقبل على الكعبة ، وإذا بالكعبة هي التي صارت تقبل عليها . أقبلت عليها في ذلك العام ، فعليها أن ترد لها الزيارة . قال العطار بعد ذلك مباشرة : « وفي السنة التالية قالت : لما كانت الكعبة قد أقبلت إلىّ في العام المنقضى ، فسأقبل أنا عليها هذا العام » . إنها صلة متبادلة ، لأنها صلة صداقة ومحبة بين أربعة وبين الحضرة الإلهية التي ترمز إليها الكعبة . ومن شأن هذه الصلة أن يكون ثمت تراور دون ما تكلف . لهذا قالت تلك العبارة وفيها من البساطة وعدم الكلفة ما يكشف عن الصلة الجديدة التي عقدها مع الله .

ومن الواضح طبعاً في هذا كله أن انتقال الكعبة هنا وانتقالها هي يجب ألا يفهما بمعنى حسى ، بل بمعنى مجرد هو سعى رابعة إلى بلوغ الحضرة الإلهية للفناء فيها والامتزاج بها ، وسعى الحضرة نفسها لمبادلتها هذا السعى وذلك بتلطفها ورضاها وقبولها في داخل الحضرة .

لهذا نحسب أن معنى الحج قد رقّ ولطّف وتروحن في نفس رابعة إلى حدّ أنها لم تعد تشعر بالحاجة إلى أداء فريضة الحج بالمعنى المادى ، فانقطعت عنه في سنواتها الأخيرة بعد أن امتلأت بهذا المعنى الجديد للحج ، وهذا هو ما يفسر قولها لما رأت الكعبة — بمعناها الحسى — قادمة نحوها : « لأريد الكعبة ، بل رب

الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ! » ولم تشأ أن تنظر إليها^(١) فغنى هذا أنها لم تعد ترغب في النظر إلى الكعبة ، الكعبة المحسوسة ، البيت الذي بركة ، أى أنها ، بصريح العبارة ، لن تحج بعد ذلك اليوم ، وستأوى إلى بيتها وتنقطع فيه ، فمنه هو الآخر أيضاً تستطيع أن ترى وجه الله وأن تنعم بالحضرة ، فالإقتصار على البيت العتيق الذى بركة وثنية ، شأنها شأن أولئك الذين اقتصروا على أصنامهم فرأوا فيها وحدها آلهة . لقد قال تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله » .. إذاً فما معنى الإقتصار على البيت الحرام !

وتلك أعلى مراتب التنزيه ، بلغتها رابعة فودعت التنقل وأوت إلى بيتها هي الحرام .

— ٦ —

أوت رابعة إذن إلى بيتها واستغرقت في انقطاعها لله . فماذا كان من أمر حياتها الدنيوية ؟

هنا يجب أن نبدد أولاً خطأ وقع فيه المؤرخون القدماء وجاراهم عليه المحدثون الذين كتبوا عن رابعة ، وبخاصة مارجرت اسمث في كتابها عن « رابعة وزميلاتها المتصوفات في الإسلام »^(٢) ، مع أن كثيراً من أولئك الأقدمين أنفسهم قد نبهوا عليه ، وبخاصة عبد الرؤوف المناوى في كتابه الجيد « طبقات الأولياء »^(٣) ، كما سنرى عما قليل ، ومن قبله ابن الجوزى في « صفة الصفوة »^(٤) ؛ وقد رأينا من قبل آثاراً لهذا الخلط نبهنا عليها .

(١) الططار : المرجع نفسه ، ج ١ ص ٦١ .

(٢) Margaret Smith ; Rabi,a the Mystic and her Fellow-saints in Islam. Cambridge, 1928.

(٣) مخطوطة الظاهرية بدمشق رقم ٤١٦٤ ورقة ١٠٦ — ١٠٦ ب .

(٤) ج ٤ ص ٢٠٢ أ برقم ٦٧ تاريخ بالظاهرية بدمشق .

ذلك هو الخلط بين رابعة الشامية وبين رابعة البصرية صاحبنا . أما رابعة الشامية فهي التي قال عنها المناوي إنها « رابعة بنت إسماعيل العدوية : ورابعة هذه بمشاة تحتية ، وهي شامية ، والتي قبلها بموحدة [١٠٦ ب] تحتية ، وهي بصرية فافتراقاً » ، والغريب في هذا أن المناوي يقول عنها إنها تسمى « العدوية » أيضاً وهو ما لا نجد في المصادر الأخرى . فهل اختلط عليه الأمر هنا في هذه الدقيقة ؟ لانستطيع الجواب حتى نظفر بمصدر آخر مستقل ، لأن حجة الصمت لا تصلح كثيراً في البحث التاريخي . والغريب أن ابن الجوزي في « صفة الصفوة » لم يشير إلى نسبها هذا . لذا لو كان لنا أن نرجح لقلنا إننا ننجح إلى أن يكون هنا عدم تنبه من جانب المناوي أو غفلة من جانب الناسخ . والمناوي على كل حال إنما يردد هنا ما قاله ابن الجوزي من قبل في « صفة الصفوة » في تفرقة بين كليهما . قال ابن الجوزي : « رابعة زوجة أحمد بن أبي الخوارى ، كذا نسبها أبو بكر بن أبي الدنيا . وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي أن رابعة العدوية تشارك هذه في اسمها واسم أبيها . وعموم ما يأتي في الحديث عن زوجة أحمد أنها رابعة بالياء ، والعدوية بصرية ، وهذه شامية » ، وليس من شك في أن هذا يدلنا على أن الخلط قد حدث منذ عهد مبكر جداً مادام السلمي (ولد سنة ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م وتوفي سنة ٤١٣ هـ — سنة ١٠٢١ م) قد نبه إليه . وقد يكون في قول ابن الجوزي هنا « والعدوية بصرية ، وهذه شامية » ما قد يزيد في تأييد ما رجحناه من غفلة المناوي (أو الناسخ) بذكره رابعة الشامية على أنها « عدوية » أيضاً ، مادام ابن الجوزي في معرض التفرقة يكتفي بقوله « العدوية » ، فلو كانت رابعة الشامية عدوية هي الأخرى لما لجأ إلى هذا التمييز فاقصر على هذه النسبة . خصوصاً أنه من المحتمل جداً أن يكون ابن الجوزي هو مصدر المناوي في هذه التفرقة ، كما هو مصدره في غالب ما يورد من أخبار في هذا الكتاب .

ثم يؤكد ابن الجوزي هذه التفرقة بعد ذلك مباشرة عن راوٍ آخر فيقول: « وقد أخبرنا أبو ناصر قال: أنبأنا أبو الغنائم بن النرسی قال: رابعة بالباء بنقطة في تحتها بصرية، ورابعة بألفتين من تحتها شامية^(١) ». »

هناك إذن رابعتان، إحداهما رابعة العدوية البصرية، والأخرى رابعة أو رابعة بنت إسماعيل الشامية زوجة أحمد بن أبي الحواري. وهذا الأخير هو أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري. « واسم أبي الحواري ميمون. من أهل دمشق. صحب أبا سليمان الداراني وسفيان بن عيينة ومروان بن معاوية الفزاري وبشر بن السري وأبا عبد الله النباجي وغيرهم من المشايخ — رضى الله عنهم أجمع! — وله أخ يقال له المولى بن أبي الحواري يجرى مجراه في الزهد والورع؛ وابنه عبد الله من الزهاد؛ وأبوه أبي الحواري... كان من العارفين والورعين. فيبيتهم بيت الورع والزهد. مات سنة ثلاثين ومائتين^(٢) ». أما زوجه، رابعة الشامية، فإنها ماتت سنة خمس وثلاثين ومائتين، « ودفنت برأس زينا بيت المقدس »، كما يقول المناوي^(٣). إلا أنه ورد في مخطوطة المناوي هذه أنها توفيت سنة « خمس وثلاثين ومائة ». وليس من شك في أن هاهنا تحريفاً، والأصل « ومائتين »، لأنها وهي زوج أحمد بن أبي الحواري المتوفى سنة ثلاثين ومائتين لا يمكن أن تكون قد توفيت سنة خمس وثلاثين ومائة. فهل يكون المناوي قد وقع في هذا الخطأ الفاحش وهو الذي حرص على التنبيه على هذه التفرقة وقال بصراحة إن رابعة بنت إسماعيل الشامية هذه هي زوجة أحمد بن أبي الحواري — من أجل أن يتقذ التاريخ

(١) ابن الجوزي: « صفة الصفوة »، مخطوط الظاهرية بدمشق برقم ٦٧ تاريخ

ميدان ٤ من ٢٠٢.

(٢) أبو عبد الحسين بن نصر الجهني: « مناقب الأبرار وشعار الأخيار »، مخطوط

في مجموع بالظاهرية برقم ٤١ تصوف، ورقة ٧٢.

(٣) المرجع نفسه، ورقة ٦٠٦.

الأخر — وهو سنة ١٣٥ هـ — الذى ينسب فى بعض المصادر — كما سنرى — أن رابعة توفيت فيه ؟ لو كان هذا هو ما قصد ، فيالسوء ما قصد ! فقد أفسد كل ما فعله فى مستهل حديثه حينما ميز بين كلتا الرابعتين . وليس ببعيد أن يكون قد وقع فعلا فيه — ولم يكن عن تحريف النسخ — إذ ا ما تذكرنا أنه اكتفى فى بيانه لوفاة رابعة العدوية البصرية بذكر سنة ثمانين ومائة ؛ وإذا ما تذكرنا كذلك أنه كان متردداً فى إيراد أخباره ، فتردد كذلك فى الحديث عن القبر القائم بقرب بيت المقدس : فقال : « ودفنت برأس زيتا بيت المقدس . وقيل [١٠٧] المدفونة هناك إنما هى الأولى » أى البصرية . ومع هذا فقد افترضنا أن تكون هنا سقطت قلم والأصل هو « سنة خمس وثلاثين ومائتين » أى بعد وفاة زوجها أحمد بخمس سنين . فهى لا شك توفيت فى ذلك العهد أو قريباً منه زيادة أو نقصاً بقليل .

ونحن نفترض أن ابن الجوزى كان المصدر لمن جاء بعده من المؤرخين الذين تحدثوا عن رابعة . وإنا لنراه فى كل ما أورده من أخبار عن رابعة الشامية يذكر سلسلة من الرواة تنتهى كلها دائماً باسم أحمد بن أبى الحوارى ، فهو إذن الراوى للباشر . وهذا يعطينا مفتاح المشكلة فى كل الأخبار التى وردت باسم رابعة — بدون تمييز — مشفوعة بأسماء الرواة . فكل سند يرد فيه ذكر أحمد بن أبى الحوارى يجب أن تقدر أنه يتحدث عن رابعة الشامية ، لا عن رابعة العدوية البصرية صاحبتنا فى هذا البحث .

لهذا يجب علينا اتخاذ هاتين القاعدتين :

(الأولى) أن نستبعد كل رواية وردت سند رواها ومن بينهم أحمد بن أبى الحوارى ، لأن هذا ما كان له أن يحدث إلا عن رابعة الشامية ، وزوجها ؛ وهو شامى ولا نعلم أنه أتى البصرة ؛ وفضلاً عن هذا فإن موته سنة ٢٣٠ يجعل من المستبعد جداً أن يكون قد عرف رابعة البصرية حتى لو كان قد ارتحل إلى البصرة

لأنه لا بد أن يكون ذلك في سن مبكرة كثيراً ، اللهم إلا إذا افترضنا أنه عُمر طويلاً جداً وبدأ التصوف مبكراً . كل هذا على افتراض أن رابعة البصرية توفيت حتى في أبعد سنة نفترض لها وهي سنة خمس وثمانين ومائة . وإذن فكل ما يزوي عن ابن أبي الحواري يختص برابعة أو رابعة الشامية وحدها ، وزوجه .

(الثانية) أن كل الأخبار التي ثبتت سند روايتها وفيهم أحمد بن أبي الحواري يجب أن نسقطها من حساب رابعة البصرية إذا نسبت إليها عُقلاً من كل سند . ذلك أن بعضاً من الراوة والمؤرخين لا يأتون بالسند ، أو لا يأتون به كاملاً بحيث يصل إلى الراوى الأخير ، ويذكرون عن رابعة البصرية أخباراً وردت عن مؤرخين آخرين مشفوعة بسند فيه أحمد بن أبي الحواري أى — تبعاً للقاعدة الأولى — مما يجب أن ينسب إلى رابعة الشامية . فهؤلاء إذن تسقط رواياتهم لمجرد ورودها منسوبة في روايتها إلى أحمد بن أبي الحواري في المصادر الأخرى المعنية بسلسلة الرواة .

فبتطبيق هاتين القاعدتين نستطيع أن نميز بين ما يصح لرابعة البصرية صاحبتنا ، وما يصح لرابعة الشامية زوج أحمد بن أبي الحواري . على أن التمييز — مع ذلك — لن يكون هاهنا كاملاً كما نود ، وذلك لسببين :

(الأول) أن القليلين من المؤرخين هم الذين حرصوا على الإتيان بسلسلة الرواة كاملة ، لأنهم مُحَدِّثُونَ فيحرصون على ذكر السند تاماً ؛ وخيرهم في هذا من غير شك هو ابن الجوزى في « صفة الصفوة » .

(الثاني) أن تمت أخباراً عديدة لم ترد عند الأولين — أى المعنيين بذكر السند التام — ، فلاندرى ، وهي مُعَقَّلة من كل سند ، أهي حقاً لرابعة البصرية ، أو لعها لرابعة الشامية ؟ إن منهم من يقدمونها على أنها لرابعة البصرية — لكن من يدرينا لعلها في الأصل لرابعة الشامية وخلطوا فيها كما فعلوا في الروايات الأخرى

التي استطننا تمييزها وفقاً للقاعدتين السابقتين . وإن منهم كذلك لمن يكتفون بنسبتها إلى مجرد « رابعة » ؛ فليت شعري أية رابعة يعنون ! أما وصاحبتنا رابعة البصرية هي الأشهر التي ينصرف إليها خصوصاً ذهن القارئ ، فقد افترضنا — لأننا لا نملك أن نفعل غير ذلك — أن المقصود هو رابعة العدوية البصرية صاحبتنا ، وإلا كان على الراوى أن ينبه إلى ذلك . فإغفاله التنبيه على غيرها يُفسّر بقصده إياها وحدها .

ذلك التقدير المنهجي الذي قمنا به على أكبر درجة من الخطورة لأنه سيوضح شخصية رابعة العدوية البصرية أتم إيضاح مستطاع بوسائلنا . فكأين من آراء تنسب إليها كان مصدر التناقض الفاحش فيها هو ذلك الخلط بين كلتا الراجعتين ! وكم من مسألة استعجبت مذاهبها وعميت مسالكها في البحث في رابعة : حياتها وأفكارها ، لا شيء إلا لوقوع هذا الالتباس بين رابعة البصرية ورابعة الشامية ! أجل إن كثيراً من الأخبار والأقوال ستبتر بحد هذا المنهج ، ونحن أحوج مانكون إلى تلمس أخبار رابعة لندرتها . لكن ما قيمة هذه الأخبار مادامت لا تنتسب إليها ، بل ولا إلى أسطورتها هي الخاصة ؟ !

وأول ضحية لهذا المنهج كل ما روى من أخبار تفترض أنها تزوجت . وهي :

١ — ما رواه صاحب « الروض الفائق في المواعظ والرفائق » ^(١) من أنه :

« لما مات زوج رابعة العدوية استأذن الحسن البصرى في الدخول عليها هو وأصحابه ؛ فأذنت لهم وأرخت ستراً ، وجلست وراءه ، فقال لها أصحابه : إنه قد مات بعلك ولا بد لك من زوج وقد انقضت عدتك ، فاختارنى من هؤلاء الزهاد من شئت منهم . . . » إلى آخر ما ذكره هنا من أنها طلبت من الحسن

(١) الشيخ الحريفيش : « الروض الفائق في المواعظ والرفائق » ، ص ١١٧ — ١١٨

البصرى الذى كان أعلم هؤلاء أن يجيبها عن أربع مسائل ، فإن فعل فهى له أهل .
والخبر كله غير صحيح أولاً لأنه يتحدث عن الحسن البصرى ، والحسن
البصرى ولد سنة ٢١ هـ (= ٦٤٢ م) وتوفى سنة ١١٠ هـ (= ٧٢٨ م) ، بينما
التاريخ الذى سننتهى إليه فى بيان وفاتها هو سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ ، فلا يمكن
وقوع هذا الحادث بينهما . وإنما هو من الأخبار العديدة التى شاء أصحابها
أن يربطوها فيها بالحسن البصرى . وسنرى تفصيل هذا التفضيل لوفاتها المتأخرة
حين الحديث عن تاريخ وفاتها .

وغير صحيح ثانياً لأنها لم تزوج كما سيتأيد فيما يلى :

٢ — ما ذكره الياقنى^(١) فى «روض الرياحين فى مناقب الصالحين» فى قوله :
«وحكى عن أحمد بن (أبى) الحوارى عفا الله عنه أنه قال : كانت لرابعة العدوية
أحوال (فى المطبوع : أهوالاً) شتى : فكانت مرة يغلب عليها الحب . . . »
إلى آخر الأبيات التى أوردها من أقوالها فى حال الحب ثم فى حال الأناس ،
ثم فى حال الخوف . والغريب أنه يستمر فى الخبر فيقول بعد هذه الأبيات مباشرة :
« قال زوجها : فقلت لها ليلة من الليالى . . . » فكيف يكون الحديث عن رابعة
البصرية إذا كان زوجها أحمد بن أبى الحوارى ؟! كذلك الحال فى كل ما أورد
الياقنى بعد ذلك « عن زوجها » ، وكذلك ما قاله من أنه « كانت تأتىها الجن
بكل ما تطلب » ، فهذا أيضاً من شأن رابعة بنت إسماعيل الشامية ، كما يتأيد ذلك
مما رواه المناوى حين قال عن رابعة بنت إسماعيل الشامية : « وكانت ترى الجن
عياناً » ، فهى إذن الشامية التى كانت على صلة بالجن ، لا رابعة البصرية .

على أن ابن الجوزى فى « صفة الصفوة »^(٢) قد ذكر هذه الأخبار تحت

(١) الياقنى : « مختصر من كتاب روض الرياحين فى مناقب الصالحين » ، ص ١١١ —
س ١١٢ ، طبع المطبعة الكستلية ، القاهرة سنة ١٢٧٩ هـ = سنة ١٨٦٢ م .
(٢) ورقة ١٢٠٢ — ١٢٠٣ .

اسم رابعة الشامية ، ورواها نقلاً عن أحمد بن أبي الحواري . فهذا يقطع أيضاً بأن اليافعي هنا قد أخطأ خطأ ظاهراً ، اللهم إلا إذا فهمنا من قوله : « رابعة العدوية » أن المقصود هو رابعة الشامية على أساس أنها عدوية أيضاً .

٣ — مارواه جامي في « نفحات الأنس » ^(١) من أنها كانت إذا طبخت قدرأ قالت لزوجها : « كُناه ياسيدي فما نضج إلا بالتسبيح » . وهو خبر ورد عند اليافعي في الموضع السابق ؛ ورواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » على أنه خاص برابعة الشامية .

٤ — ما أورده العطار من حكاية الحسن معها في سؤالها إياه عن عدة مسائل — وهو ما ذكر من قبل تحت رقم ١ — والعطار يذكر الخبر دون ذكر الحسن ؛ وبدلاً من أربعة مسائل يذكر ثلاثة . ونحن نرى أنه مادام العطار لم يفعل إلا أنه اختصر في الخبر الوارد في رقم ١ ، فهو إذن لم يأت إلا بالخبر عينه ؛ فحكم هذا الخبر حكم رقم ١ ، أي أنه غير صحيح .

من هذا يتبين إذاً أن الأخبار التي تفترض زواج رابعة البصرية إنما هي في الواقع أخبار خاصة برابعة الشامية ، كما يؤكد ذلك ابن الجوزي بما لا حاجة بعده إلى فضل بيان . وعلى هذا فليس لدينا مصدر واحد يصرح بأن رابعة البصرية تزوجت .

ذلك هو الجانب السابي من حججنا للبرهنة على أن رابعة البصرية لم تزوج . والجانب الإيجابي هو أخبار طلب الزواج منها :

(أ) أما ما يتصل منها بالحسن البصري ففروض جملة لما ذكرناه في رقم ١ .

(ب) أما الأخبار التي لا يقف حائل دون صحتها فهي خطبة عبد الواحد

ابن زيد لها ثم خطبة أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمي كذلك .

(١) جامي : « نفحات الأنس » ، ص ٧١٩ ، نشر-ليس وتساو ، كلكتا سنة ١٨٥٩ م .

والمخطبة الأولى روى نبأها كل من عين القضاة الهمداني في « شكواه »^(١)
ثم الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين »^(٢). قال عين القضاة في الحديث عن
رابعة: « وخطبها عبد الواحد بن زيد ، مع علو شأنه ، فهجرته أياماً حتى شفع له
إليها إخوانه . فلما دخل عليها قالت له : « يا شهواني ! اطلب شهوانية مثلك ! » .
ورواه الزبيدي بصورة أكل فقال : « وخطبها عبد الواحد بن زيد فحجبتة أياماً
حتى سئلت أن يدخل عليها ، فقالت له : « يا شهواني ! اطلب شهوانية مثلك !
أى شيء رأيت في من آله الشهوة ؟ ! »

كذلك روى المرتضى الزبيدي الخطبة الثانية فقال: « وخطبها محمد بن سليمان
المهاشمي أمير البصرة على مائة ألف وقال : لى غلة عشرة آلاف فى كل شهر
أجعلها لك . فكتبت إليه : ما يسرنى أنك لى عبدٌ وأن كل مالك لى ؛ وأنتك
شغلتنى عن الله طرفه عين . »

وروى ذلك الخبير أيضاً عبد الرؤوف المناوى^(٣) فقال: « كتب محمد بن سليمان
المهاشمي — وكانت غلة مُلكه كل يوم ثمانية آلاف درهم — إلى كبراء
أهل البصرة فى امرأة يتزوجها ، فأجمعوا على رابعة . فكتبت^(٤) إليه : « أما بعد !
فإن الزهد فى الدنيا راحة البدن ؛ والرغبة فيها تورث الهم والحزن ؛ فهىء مزادك
وقدم لمعادك ، وكن وصى نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك ؛
وصم الدهر ، واجعل فطرَكَ الموت . وأما أنا فلو خولنى الله [١٠٤ ب]

(١) عين القضاة الهمداني : « شكوى » مخطوط برلين ، ورقة ٥٧٣ . (أورده ماسينيون
فى : « مجموع نصوص غير منشورة خاصة بالتصوف الإسلامى » ، ص ٧ تحت رقم ٦ ، باريس
سنة ١٩٢٩)

(٢) المرتضى الزبيدي : « إتحاف السادة المتقين » ، ج ٩ ، ص ٧٥٦ .

(٣) « طبقات الأولياء » ورقة ١٠٤ ، ب ، مخطوط الظاهرية رقم ٤١٦٤ .

(٤) فى المخطوط : فكتب لىها — والسياق يقتضى ما أتيتناه لأن المخاطب مذكر
فى الأفعال الواردة فى هذه الرسالة .

أمثال ما حزت وأضعافه [ف] لم يسرني أن أشتغل عن الله طرفة عين -
والسلام» .

فها تان الخطبتان ورفض رابعة لكاتبيهما تدلان تمام الدلالة على فكرتها
عن الزواج بالنسبة إلى نفسها وهي أنها لا تراه يصلح لها . والذين وضعوا قصة
الحسن المذكورة في رقم (١) إنما قصدوا إلى إبراز هذا المعنى ، خصوصاً حينما
ختموها بأن جعلوا رابعة تقول لما أن أعيت الحسن الإجابة عن أسئلتها الأربعة :
« إذا كان الأمر كذلك وأنا في قلق وكرب من هذه الأربعة ، فكيف أحتاج
إلى الزوج وأتفرغ له ! ثم أنشدت :

راحتي ، يا إخوتي ، في خلوتي	وحبيبي دائماً في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضاً	وهواه في البرايا محتى
حينما كنتُ أشاهدُ حسنه	فهو محرابي ، إليه قبلي
إن أمتٌ وُجداً وما ثمَّ رضا	واعنأني في الوري ! واشقوتي !
يا طيبَ القلبِ يا كُلهُ المنى !	جُدْ بوصلٍ منك يشفي مهجتي
يا سروري وحياتي دائماً	نشأتى منك وأيضاً نشوتي
قد هجرتُ الخلقَ جمعاً أرتجى	منك وصلًا، فهو أقصى مُنيّتي» ^(١)

فهذه أسطورة ، ولعل الأبيات نفسها منحولة عليها ، ولكنها مع ذلك تعبّر
عن الصورة التي تصورها واضعوها عن رابعة ؛ وهي تؤذن بأن رابعة كانت ترى
استحالة الزواج بالنسبة إليها ، لأنها في شغل بالمهم من أمور الآخرة والحياة
الروحية ومسائلها ، فأثى لها أن تفرغ للزوج والحياة الدنيا !

لهذا كله نرى أن حكاية زواج رابعة إن هي إلا أسطورة نشأت عن الخلط

(١) الشيخ الحزقيش : « الروض المفايق في المواعظ والرفائق » ، ص ١١٨ ، القاهرة
سنة ١٣٠٤ هـ = سنة ١٨٨٦ م .

بين رابعة الشامية زوج أحمد بن أبي الحواري وبين رابعة البصرية العدوية
«القيسية صاحبتنا هنا .

فإذا نظرنا الآن في نظرية رابعة في الزواج تأيد لنا الأمر وازداد وضوحاً .
وهنا يحسن بنا أن نتحدث عن نظريات رجال عصرها وأصدقائها لنعلم في أية بيئة
نشأت نظريتها هي، ولماذا اتخذت ذلك الطابع الذي اتخذته : وإنا لنجد على رأس
هؤلاء الحسن البصري، رائد حركة الزهادة في ذلك العهد كله، الذي لا يرى الزواج
بالنسبة إلى الزاهد ، بله إلى العبد الصالح . قال : « إذا أراد الله بعبده خيراً في الدنيا
لم يشغله بأهل ولا ولد »^(١) . كذلك نرى أبا نعيم يقول في « الحلية »^(٢) :
« قال (رباح) سمعت مالك بن دينار يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى
يترك زوجته كأنها أرملة ، ويأوى إلى مزابل الكلاب » . وفي هذا ما يدل على
نزعة إلى تقرير العزوبة بمشابهة فرض على من يريد أن ينقطع لله ويبلغ منزلة
الصديقين . وذلك لأن في الزواج صرفاً له عن الانقطاع لله وعدم الاشتغال بشيء
غير ذكر الله ، كما أن ما يلاقيه من رفاهية ودعة يمنع من « كثرة الاشتغال بالله
وقيام الليل وصيام النهار ؛ ويتسلط على الباطن خوف الفقر ومحبة الادخار —
وكل هذا بعيد عن التجرد » كما قال السهروردي^(٣) في « عوارف المعارف » وفي هذا
يقول ابراهيم بن أدهم (المتوفى سنة ١٦٠ هـ أو سنة ١٦٦ هـ) : « من تعود أخذ
النساء لا يفلح »^(٤) .

فإذا صحّت هذه الأخبار وغيرها مما ينسب خصوصاً إلى الحسن البصري —

(١) الشعراني : « الطبقات » ، ١ ، ص ٢٥ .

(٢) وقد أورده الشعراني (« الطبقات » ، ١ ، ص ٤٠) على أنه قول رباح بن عمرو
«القيسي ، ولكن هذا غير صحيح لأنه ينقل عن صاحب « الحلية » أولاً ، وثانياً لأن هذا
«القول يفترض إمكان الزواج بالنسبة إلى الصوفي ، وهو ما لا يقول به رباح .

(٣) ص ١١٩ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ — سنة ١٩٢٩ .

وليس مانع يمنع من أن تكون صحيحة لأن أصحابها لم يتزوجوا ، فإن كان عدم تأهاتهم عن مبدأ ، فلا شك في أن هذه الأخبار تعبر عن آرائهم إن لم يكونوا قد نطقوا بها فعلا — نقول إذا صحّت هذه الأخبار فإن هذا يدل على أن الدعوة إلى التجرد ، أى عدم الزواج ، قد وجدت في عصر مبكر ، أى في أواخر القرن الأول والنصف الأول من القرن الثانى. وليس من شك كذلك في أن هذا الرأى الذى دَعَوْا إليه إنما اعتقدوه لما رأوه من عدم توافق في الجمع بين التأهل وبين ممارسة حياة الزهادة ، ولم يكن ذلك نتيجة تأثر بنظام رهبنة - أجل إن الأحاديث العديدة التى اخترعها الصوفية وفيها تمجيد للعزوبة إنما هى وليدة القرون المتأخرة ابتداء من القرن الثالث للهجرة ، لأنها لا تتفق مطلقاً مع ما كانت عليه حياة الرسول وهو القدوة الكبرى ، فما كان ينتظر منه إذن أن يدعو إلى حياة التجرد والعزوبة على أنها الحياة المثلى ، بينما هو — وهو الرسول — لا يسلكها ، بل ولا يقترب منها . ومن هنا كان على الصوفية الواضعين لتلك الأحاديث أن يبرروا ذلك بتفرقهم بين عهدين: عهد إلى سنة مائتين من الهجرة ، وعهدٍ إلى ما بعد المائتين . وإنا لنعلم تلك الأحاديث الكثيرة التى تذكر فيها سنوات وتواريخ للهجرة ، وكأن واضعها لم يكونوا من الفطنة بحيث لم يتنبهوا إلى أن التاريخ بالهجرة إنما تم في عهد عمر ، فكيف يؤرخ النبيّ السنين ابتداء من الهجرة !! وعلى كل حال فقد ذكروا تلك الأحاديث ذوات التواريخ فيما يتصل بمسألة العزوبة . قال أبو طالب المكي في « قوت القلوب »^(١) : « وفي خبرٍ : إذا كان بعد المائتين أبيضت العزوبة لأمتي ؛ ولأنّ يربى أحدكم جرّو كلبٍ خيرٌ من أن يربى ولداً » . وقال السهروردي في « عوارف

(١) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » ، طبع القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م .

المعارف»^(١) : وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ . قيل : يا رسول الله ! وما خفيف الحاذ ؟ قال : الذى لا أهل له ولا ولد »^(٢) . وواضح ما فى هذه التفرقة بين عهدين فى التشريع بعد وفاة الرسول من مجافاة لكل ألوان الاحتمال والقبول .

إنما رأى الصوفية أنفسهم بإزاء وضع جديد ابتدعوه ودعوا إليه فكان عليهم أن يبرروه بواسطة الأحاديث الموضوعية ، شأن كل مذهب أو رأى ابتدع فى الإسلام بعد وفاة الرسول .

ولا نرانا تتجاوز المعقول كثيراً إذا افترضنا أن الحسن البصرى كان أول من دعا إلى العزوبة صراحة ، ووضعها شرطاً من شروط التقوى والزهادة الحقة . ومنذ عهده وطوال القرن الثانى للهجرة تضافرت الآراء عند بقية الصوفية حول هذه الفكرة ، لأنهم وجدوا فيها ما يتفق مع مقتضيات الأسلوب الذى اتخذه لأنفسهم فى الحياة . لقد كانوا منصرفين عن الدنيا ، فكيف يمدون بجذورهم فيها عن طريق الأهل والولد؟! وهنا لم يعدموا فى القرآن آيات يمكن أن تؤول على أن فيها تأييداً لاتجاههم هذا . ورد فى القرآن : « إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم »^(٣) ؛ وورد كذلك : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً » (سورة الكهف ، آية ٤٦) ؛ وفى الآية الأولى تحذير من الأهل والولد ، إن لم يدع إلى تركهم فهو يحذر منهم ، وهذا التحذير يمكن أن يفسره من يأخذ بالأحوط على أنه نوع من النهى . وفى الآية الثانية تفضيل بين حالتى التأهل والتجرد ، مع القول بأن التجرد

(١) أبو حفص عمر السهرودى : « عوارف المعارف » ص ١١٨ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ - سنة ١٩٣٩ م .

(٢) وفى « قوت القلوب » الموضع السابق ورد هكذا : « خيركم بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لا أهل له ولا ولد » .

(٣) سورة التفتان : ١٤ .

أو ما في معناه وإن لم ينطق به بصراحة هنا « خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً »
فضلاً عما في كلمة « زينة » الحياة الدنيا هنا من معنى لا يخلو من التهمم والقدح ،
وإن فيها للبقاء في التعبير كانت مميزة واضحة لما في جوهر الإسلام من ثنائية ومحاولة
للجمع بين الطرفين المتعارضين في كل المذاهب والمسالك .

في القرآن إذاً ما يستطيع الصوفية الاستناد إليه في دعواهم إلى العزوبة حتى
لو أعوزتهم سنة الرسول قولاً وفعلاً وتقريراً . على أن المشاهد في هذه الحالة —
وفي كل الأحوال المشابهة لها — أن المسلم لا يصدر هنا في رأيه أو فعله عن القرآن
مباشرة أو عن السنة ؛ إنما يصدر أولاً عن مقتضيات حياته الباطنة أو الخارجة ،
ثم يغدو من بعد ذلك إلى الكتاب وأحاديث النبي عساه أن يجد فيها السند
الديني لما يذهب إليه . فأولئك الصوفية — ابتداءً من الحسن البصري — ممن
رأوا عدم إمكان الجمع بين التأهل وسلوك الطريق قد ابتدأوا أولاً بأن اقتنعوا
بعدم إمكان الجمع بين هاتين الحالتين المتعارضتين تعارضاً عبر عنه بعض الفقهاء
أجمل تعبير لما أن قيل له : تزوج ! فقال : « أنا إلى أن أطلِّق نفسي أحوج مني إلى
التزوج ^(١) » . ثم راحوا من بعد ذلك يجدون لهذا أصلاً من الكتاب والسنة عليهم
أن يجدوه . ووجدوه في الكتاب فعلاً في أمثال تلك الآيات التي أوردناها منذ
قليل . لكن كان عليهم بعد ذلك أن يوقفوا بين مقتضى الآيات والأحاديث
والسنن المضادة لهذا الاتجاه ، وبين مقتضى حياتهم الداعية إلى التصوف الزاهدي
الزواج . فلجأوا أولاً إلى أحاديث إباحة العزوبة بعد المائتين ، لكن يلوح أن
هذا لا بد أن يكون متأخراً عن المائتين ، ومن وضع من أتوا بعد ذلك ، خصوصاً
في القرنين الرابع والخامس . فبقي إذاً أن نجد تبريراً لمسلك من كانوا قبل سنة مائتين :

(١) أبو حفص السهروردي : « عوارف المعارف » ، ص ١٦٨ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ

أنتدّهم خارجين على الكتاب والسنة؟ لعل الذين وضعوا تلك الأحاديث الخاصة بالعهدين (ما قبل المائتين، وما بعدها) لم يحرصوا كثيراً على مصير من كانوا قبل المائتين، وكانوا من الأثرة بحيث قصروا الإباحة على أنفسهم! لهذا كان على الذين يريدون تبرير أحوال التجرد وعدم الزواج عند من كانوا قبل المائتين أن يلجأوا إلى ذريعة أخرى هي التفرقة بين مرتبتين إحداهما أعلى من الأخرى: مرتبة المتجرد، ومرتبة المتأهل. فقالوا إن التأهل رخصة وسنة؛ أما التجرد - بالنسبة إلى الصديق الورع - فهو عزيمة وفرض. وفي هذا^(١) يقول بشر بن الحارث الخافى (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ = سنة ٨٤١ م) لما قيل له: «إن الناس يتكلمون فيك. فقال: ما يقولون؟ قيل: يقولون إنه تارك للسنة - يعنى النكاح. فقال: قولوا لهم: أنا مشغول بالفرض عن السنة». كذلك ما حكاه صاحب «عوارف المعارف» أيضاً فقال: «سمعنا أن الشيخ عبدالقادر الجيلي قال له بعض الصالحين: لم تزوجت؟ فقال: ما تزوجت حتى قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: تزوج! فقال له: ذلك [١٢٠] الرجل: الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالترخص، وطريق القوم: التزم بالعزيمة! - فلا أعلم - كذا يقول أبو حفص السهروردي - ماقال الشيخ في جوابه»، ويأخذ السهروردي في الجواب عن الشيخ عبد القادر الجيلاني ويبرر فعلته. والمهم في هذا عندنا أن نبين الوسيلة التي اتخذها الصوفية في بيان أسباب اتخاذهم التجرد بدل التأهل، ثم مفاضلتهم بين الحالين بما يجعل التجرد فرضاً على الصوفى.

ونحسب هذا القدر كافياً لبيان الجو الذي عاشت فيه رابعة من حيث مسألة التأهل أو الزواج. فهو بالجملة جو يدعو عند الصوفية إلى عدم الزواج، لأن الزواج يتنافى مع الوفاء بالحياة الروحية العالية وما تقتضيه من مجاهدات وانقطاع لله

وانصراف عن الدنيا وإماتة للشهوات وارتفاع بالمضمون الروحي الباطن بارتفاع الجانب المادى الظاهر . بيد أنه يلاحظ مع ذلك أن هذا كله لم يكن قد استقام على قاعدة ثابتة .

لكن رابعة جاءت فضربت بسهم وافر في سبيل تقنين عدم الزواج عند أصحاب الطريق . ونظن أنه كان لها أثرها الحاسم في هذا التوجيه ، بعد أن كان الأمر في الغالب أمر مزاج شخصى عند الحسن ورياح وإبراهيم بن آدم والدارانى ومن إليهم ؛ إذ صار بمثابة قاعدة كان من الصعب على الصوفية من بعد ذلك الخروج عنها ، وحتى انقطع الشيخ عبد القادر الجيلانى فى الجواب فلم يُحِرْ قولاً لما أن أخمعه السائل إياه عن سبب تزوجه . ذلك لأن رابعة امرأة . والغاية العظمى عند المرأة فى الحياة هى الزواج ، ولذا كان له عند المرأة أهمية كبرى أشد بمراحل عدة من أهميته عند الرجل . فإذا وجدناها ، وهى المرأة ، تحرص على عدم الزواج ، فما أبلغها من قدوة عند أهل الطريق ! ومن هنا كانت مسألة خطبتها مرتين : لعبد الواحد بن زيد ، الصوفى الكبير ، ولمحمد بن سليمان الهاشمى أمير البصرة ، غنيةً بالدلالة على قوة نفسها فى هذا الباب . فإجابتها عن خطبة الأول بقولها بعد أن حجبتة أياماً ولم تشأ أن تراه بعد أن سمعت منه هذا المنكر الأكبر فى نظرها ونظر كل صوفى حقيقى وهو طلبها للزواج منه : «ياشهوانى ! اطلب شهوانية مثلك ! أى شىء رأيت فى من آلة الشهوة ؟ !» ^(١) - هذه الإجابة هى أبلغ ما يمكن أن يقال فى هذا الباب . ففيها تقرير مُرّ لهذا الصوفى الذى يريد الإقبال على الدنيا ، وفيها لوم قارس له لأنه لم يفهمها ولم يفهم رسالتها وهى أنها انقطعت لله ، حبيها الأوحى ، فلا تريد أن تشغل بغيره ؛ وفى هذه الإجابة كذلك وصف للحال التى صارت إليها وهى أنها صارت من القداسة والطهارة والروحانية بحيث لا يجوز

(١) راجع قبل ص ٥١ ؛ وقد أورده أيضاً « لسان العرب » تحت مادة : شها .

لأحد أن يخطر بباله أن فيها أثاراً بعدُ للدنيا والشهوة . وهي معانٍ قد أكدتها مرة أخرى في جوابها عن اختيار كبراء أهل البصرة لها زوجةً لمحمد بن سليمان ، أمير البصرة (كان والياً على البصرة سنة ١٤٥ هـ ؛ وتوفى سنة ١٧٢ هـ) ، كما ذكرنا ذلك الجواب من قبل ^(١) ، وفيه تنصحه بأن ينصرف عن الدنيا ويتهياً للأمور الآخرة . ويصوم الدهر حتى يكون الموتُ فطرته ؛ وهي ليست ممن يطلب المال والجاه ، وكل ما يملك منهما لا يمكن أن يغيرها على الاشتغال عن الله طرفة عين .

- ٧ -

إنما نذرت رابعة نفسها لله ؛ وإذا كان الزواج الحق هو زواج الحب ، وحببها الوحيد هو الله — فإذا كان لها أن تقترن بأحد ، أفبغير الله تستطيع الاقتران ؟!

هنا تأتي نظريتها في الحب فتؤيد نظريتها في الزواج . وهذا هو الجديد حقاً في مذهب رابعة في التجرد والعزوبة .

وتقدم بين يدي هذه النظرية بمقدمات في المصطلح الفني وفي تطور معنى الحب عند الصوفية ، فنقول إنه يلوح أن كلمة « محبة » بدت غريبة لما استعملت لأول مرة . وفي هذا الصدد يقول الأستاذ ماسينيون : « كان عبد الواحد بن زيد يرى أن كلمة « عشق » هي الوحيدة المعترف بها في التحدث عن الله ، وكان يرفض كلمة « محبة » على أساس أنها أثر لا يليق من آثار اليهودية والمسيحية ، مؤمناً كل الإيمان بالعشق الإلهي (سورة المائدة : ٢٠) . أما مالك بن دينار ومضر القارى و (ذو النون) المصرى فيقترحون اللفظ « شوق » ، بيد أن كلمة « حب » (تحبب ، محبة) التي اختارها أبان بن أبي عيَّاش ويزيد الرقاشى وجعفر الصادق (فيما يزعمون) ورابعة — هي التي انتهت بالظفر والسيادة بفضل

معروف (الكرخي) والحاسبي»^(١). وهو يشير في موضع آخر^(٢) إلى أن كلمتي عشق وشوق تشيران إلى الرغبة، أما كلمة محبة فتعبر عن الاتصال الجنسي.

فإذا كان تقرير ماسينيون هذا للمذهب عبد الواحد بن زيد صحيحاً - ولسنا ندرى من أين استقاه لأنه لا يشير إلى مصدر - فإنه سيكون مذهباً غريباً حقاً: أولاً لأن كلمة «حب» (ومحبة، وتجب) قد وردت في القرآن بياناً لإمكان قيام صلة بين العبد والله في آيتين على الأقل هما «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحِبِّبْكُمْ اللهُ» (آل عمران: ٣١)، «يأيها الذين آمنوا من يردكم منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه - أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين» (المائدة: ٥٤)، فكيف يحفل عبد الواحد بن زيد إذن - وهو من رجال القرن الثاني، أي من المتقدمين - من مثل هذا الاستعمال أو يفضل عليه استعمالاً آخر وهو «العشق» لا نجد له أثراً في القرآن، فضلاً عن السنة: فالأحاديث التي ورد فيها لفظ «الحب» عديدة^(٣)، بينما لا نكاد نعثر على حديث واحد ورد فيه لفظ العشق؟ وفضلاً عن هذا فإن المعنى اللغوي أدعى إلى اتخاذ كلمة محبة (أوجب) بدلاً من عشق لأن العشق اسم لما جاوز الحد في المحبة، فإذا كان لا يجوز كلمة محبة (أوجب) فكيف يجوز ما فضل عنها وزاد؟! لهذا نرى صاحب «جامع الأصول» يقول: «ولا يوصف العبد بالعشق لله تعالى، لأن العشق مجاوزة الحد في المحبة، ولا يجاوز أحد في محبة الله تعالى قدر استحقاقه، بل لا يبلغ إلى ذلك القدر ولو اجتمعت محبة الخلق كلهم». لهذا كله نرى أن ما نسب إلى عبد الواحد ابن زيد لا يمكن أن يكون صحيحاً، ولذا نرفضه جملة.

(١) ماسينيون: «بحث في أصول المصطلح الفني للتصوف الإسلامي»، ص ١٧٤ بإريس سنة ١٩٢٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٢.

(٣) ذكر الشيخ ضياء الدين الكمشغاني خمسة منها في كتابه «جامع الأصول»، ص ٢٨٣.

وهذا يفيدنا في مسألة هامة تعيننا هنا وهي أننا نذهب إلى أن أحداً لم يتكلم في الحب (أو المحبة) الإلهي قبل رابعة، وأنها هي أول من أدخلت هذا المعنى في التصوف الإسلامي، بالمعنى الحقيقي الكامل للحب، لا مجرد التعبير بالألفاظ عنه تعبيراً ظاهرياً .

على أن تمت لفظاً ثالثاً يعبر عن تلك الصلة — إلى جانب « الحب » (أو المحبة) والعشق — وهو « الخلة » . ويظهر أن هذا اللفظ قد استخدم على عهد رابعة، وصار نظرية عند صديقها رباح بن عمرو القيسي . ويفسره صاحب « جامع الأصول »^(١) هكذا : « أما الخلة فهي مشتقة من تحلل الشيء في الشيء وسمى الخليل خليلاً لتخلل خليله في قلبه ، فوجوده مُستَهْلَكٌ في وجوده فإذا تكلم تكلم فيه ، وإذا سكت فهو نُضْبُ عينيه في كل حال وأنشدوا في ذلك :

قد تخلت مَسْلُكُ الروح مني ولذا سمي الخليل خليلاً
أنت همي وهمتي وحديثي ورقادى إذا أردت مقيلاً

والصوفي إذا بلغ منزلة « الخلة » هذه بينه وبين الله سقطت عنه التكليف . واستباح لنفسه مالا يبيحه الله لغيره من الناس ، لأن كل مافي الدنيا ملك لله ، وبالنسبة إلى الله ينتفى معنى الحرام والحلال ، فكل حلٌّ له ، وفي حال الخلة يكون العبد الخليل بمثابة الله نفسه أو على الأقل يستحل لنفسه من أموره مالا يمكن غيره أن يستحله . فإذا كان كل مافي الدنيا ملكاً لله ، فلخليله الصوفي هذا أن يستحل ما يشاء من هذا الملك .

ويلوح أن هذا قد صار مذهباً منذ أن وضع أسامه رباح بن عمرو القيسي . وكأيب . إذ نرى أبا الحسين اللطفي في كتابه « التنبيه والرد على أهل الأهواء .

والبدع»^(١) يجعله مذهباً يندرج تحت أحد مذاهب الزنادقة، وهو المذهب الذى يسميه باسم مذهب «الروحانية». والروحانية أصناف ذكر منها خمسة. ولا شك فى أنه يقصد «بالروحانية» هنا بالصوفية، لأن المذاهب التى يسردها ومن ذكر لها، من أشخاص هى مذاهب صوفية. ويمينا هنا الصنف الثانى من الروحانية؛ قال الملطى:

«ومنهم صنفٌ من الروحانية زعموا أن حبَّ الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى يكون حُبُّه أغلب الأشياء عليهم. فإذا كان ذلك عندهم، وكانوا عنده بهذه المنزلة، وقعت عليهم «أُخْلَةٌ» من الله، فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها على وجه «أُخْلَةٍ» التى بينهم وبين الله؛ لا على وجه الحلال، ولكن على وجه «أُخْلَةٍ» كما يحيلُ للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه [٩١]— منهم: رياح وكُثيب، كانا يقولان بهذه المقالة ويدعوان إليها. كذبوا! أعداء الله! وكيف يكون ذلك وإبراهيم الخليل — خليل الرحمن عليه السلام — يُسأل يوم القيامة أن يشفع للناس إلى ربهم ليحكم بينهم فيقول: لست هناك؛ ويذكر ثلاث كذبات — كذا روى عن النبي عليه السلام أنه قال».

وأهمية هذا النص لاتصاف لها قيمة لأن المؤلف من القرن الرابع؛ ولأن نسبة هذا المذهب إلى رياح بن عمرو القيسى (المتوفى سنة ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م) يجعل المذهب قديماً قد عمّر طويلاً إلى حين عهد المؤلف، إن لم يكن فى أتباع يؤمنون به فعلى الأقل كان لا يزال مذهباً يشغل الناس. ثم يهتّمنا خاصة لأنه مذهب رياح القيسى صديق رابعة. فإذا لاحظنا من ناحية أخرى أن الأبيات التى ذكرها صاحب «جامع الأصول» وجعلها تعبيراً عن فكرة «أُخْلَةٍ»، هى من الأبيات المنسوبة

(١) أبو الحسين محمد بن أحمد الملطى: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، ص ٩٠ —
ص ٩١ من مخطوط الظاهرية بدمشق رقم ٥٩ .

إلى رابعة، بدت لنا أهمية هذا المذهب في بحثنا عن نظرية الحب عند رابعة .
فقد ذكر صاحب «القول» أن هذه الأبيات لها فقال : «ومن قولها النادر في مقام
أُخْلَلة . . . » ، ثم يأتي بدينك البيتين ، كما أنه يقول قبل هذا مباشرة :
«وقد كانت (أى رابعة) تذكر الأُنس في وجدها وترتفع إلى وصف معنى
أُخْلَلة في قولها السائر :

إني جعلتك في الفؤاد محذئ وأبحتُ جسماً من أُرَادِ جُلوسى
فالجسم مَنى للجليلس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى»^(١)
وبغض النظر عما لنا على صحة نسبة هذه الأبيات إلى رابعة من اعتراض ،
فإننا نكتفى هنا بإبراز ما قصدنا إليه وهو أن أبا طالب المكي كان يرى أن رابعة
قد «ارتفعت إلى وصف معنى أُخْلَلة» ، وأن لها أقوالاً «نادرة» في مقام أُخْلَلة ؛
وقوله «نادر» معناه هنا «بديع» ، «جيد كل الجودة» إلخ .

وإذن شاركت رابعة صديقتها رياحاً القيسى في القول بمقام الخلة ،
فيجب أن ندخل ذلك في نظريتها في الحب . ولعل هذا أن يفسر لنا تطور نظرية
الحجج لديها إلى حد إسقاطه ، إذ يمكن أن يفسر ذلك على أنه كان على وجه
«أخلة» بينها وبين الله . أجل ، ليس عندنا من الوثائق ما يكفى لبيان المدى
الذى بلغته في القول بأخلة ؛ بيد أن اعتبار هذا المعنى قد يفيد في إيضاح بعض
الجوانب الغامضة من مذهبها . ومن هنا نرجح أنها لا بد أن تكون قد شاركت
صديقتها رياحاً في إيجاد هذا الرأى ، أعنى القول بأخلة مع ما تقتضيه من إباحة
أو سقوط للتكاليف ، أو في القليل آمنت به وسلكت وفقاً لما يقتضيه .

على أن مقام أُخْلَلة هذا يمكن أن يفسر على أساس أنه شعور بتجاوز الخير

(١) أبو طالب المكي : «قوت القلوب» ؛ وأورده الزبيدى في «إتحاف السادة»

والشر. ذلك أن القيم الأخلاقية لا اعتبار لها إلا بالنسبة إلى بنى الإنسان والدنيا .
أما وهما—رابعة ورياح— قد تجاوزا نطاق البشرية وصارا يلودان بحوار الألوهية ،
واطرحا الناسوت وشاع فيهما اللاهوت وتخلت روحيهما نفحات الربوبية ،
ثم هما من جانب آخر قد خرجا عن الدنيا وأصبحا يطوفان بالملأ الأعلى ،
فإنهما قد صارا بمعزل عن تلك القيم الأخلاقية ، أعنى فوق مستواها .

وهذا رأى خطير ، خصوصاً في مثل هذا العصر المبكر للفكر الإسلامى .
فهو يدل على نضوج سريع لهذا الفكر من ناحيتى الدين والروحية العليا ، وبخاصة
إذا لاحظنا أن من العسير أن نجد لمثل هذه الأفكار سوابق في الأفكار الشائعة
في تلك البيئة ، حتى يكون تأثرٌ عنها . ويلوح كذلك أن هذا المذهب لم يجد
صداه السريع ؛ بل لابد أن ننتظر الخلاج في نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع
كياً نجد صورة واضحة قوية له .

- ٨ -

نظرية رابعة إذن في الحب يدخل فيها معنى الخلة ؛ لكن هذا هو الجانب
العملى أو الأخلاقى . أما الجانب العاطفى الخالص فيتمثل في بعض الأبيات
المنسوبة إليها ، وفي الأقوال التى يروى أنها تفوهت بها .

وأشهر هذه الأبيات تلك الرباعية المشهورة :

أحبك حبين : حب الهوى ،	وَحَبِّبًا لَأَنَّكَ أَهْلٌ لَذَاكَ
فأما الذى هو حب الهوى	فشغلى بذكركَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وأما الذى أنت أهل له	فكشفتك للحجب حتى أراكَ
فلا الحمد فى ذاء ولا ذاك لى	ولكن لك الحمد فى ذا وذاك ^(١)

وأول ما تثيره هو صحة نسبتها إليها . فكما يقول المرتضى الزبيدي : « حملها عنها (أى نسبتها إلى نفسه) أهل البصرة وغيرهم : منهم سفيان الثوري وجعفر ابن سليمان الضُّبَعِيّ وعبد الواحد بن زيد وحامد بن زيد » . على أن هذا ليس بدافع للشك الجدّي في إمكان صحة نسبتها إليها؛ فإلى أن يقوم دليل عكسي ثابت بالوثائق الجازمة ، نستطيع أن نمدّها لرابعةً حقّاً .

في هذه الأبيات تميز رابعةً بين نوعين في الحب : حب الوداد أو الهوى ، والحب الخالص . والأول حب ناقص ، والثاني حب كامل . بيد أنها لا تختار هنا بين الواحد والآخر ، إنما تأخذ بهما معاً . ومن هنا فنحن نفترض لهذه الأبيات عهداً مبكراً شيئاً ، لم تكن قد بلغت فيه بعدُ المقام الأعلى للحب .

ولنبداً بحثنا هنا ببيان التفسيرات التي أدلى بها الصوفية لهذه الأبيات؛ فنجد أول ما نجد أبا طالب المكي في « قوت القلوب »^(١) يفسرها هكذا : « فأما قولها : حب الهوى ، وقولها : حب أنت أهل له ، وتفرقتها بين الحبين ، فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ، ويخبره من لم يشهده . وفي تسميته ونعت وصفه إنكاراً من ذوى العقول ممن لا ذوق له منه ، ولا قدر له به ؛ ولكنا نجعل ذلك وندل عليه من عرفه : معنى حب الهوى : أى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين ، لا من خبر وسمع تصديق من طريق النعم والإحسان ، فتختلف محبتي إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك على ؛ ولكن محبتي من طريق العيان ، فقررتُ منك ، وهربتُ إليك ، فاشتغلتُ بك لما تفرغتُ لك ، كما قال الحب :

فَرَّغْتُ قَلْبَهَا اشْتِغَالًا بِذِكْرِي وَكَذَا كُلُّ فَارِغٍ مَشْغُولٌ

وعلى هذا المعنى قوله تعالى : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً » ، أى ملآن

(١) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » ، ص ٢٠٦ وما يليها . وأورده المرتضى الزبيدي في : « إتحاف السادة » ، ص ٥٧٧ .

بذكره حتى فاض فكادت أن تظهره فتقول : هو ابني . فعبر عن الملء بالفراغ من ضده ، لولا أن أولينا عليه بربطنا فكظمت ، ولولم تفعل لأظهرت ، ولو أظهرت لقبلت .

وأما الحب الثاني الذي هو أهل له : تعنى حب التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذى الجلال . تقول : ثم إنى مع ذلك لا أستحق هذا الحب ولا أستأهل أن أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان ، لأن حُبى لك لا يوجب لك جزاءً عليه ، بل يوجب على كل شىء مما لا أطيقه ولا أقوم بحقق فيه أبداً ؛ إذ كنت قد أحبيتك فلزمنى خوف التصير ، ووجب على الحياه من قلة الوفاء ، والخوف لما تعرضت به من حُبك ، إذ ليس كمثلك شىء ، كما قال الحب :

أصبحتُ صَبَبًا ، ولا أقول بَمَنْ خَوْفًا لِمَنْ لا يخاف من أحد
إذا تفكرتُ فى هَوَاى له لمست رأسى : هل طار عن جسدى ؟!

لولا أن الحب ينطق ، والشوق يُغلق ، والوجد يُحرق فالحب لا يلام لغيبه النفس عنه ، وإلا نام . تقول (أى رابعة) : تفضلت على بفضل كرمك ، وما أنت له أهل من تفضلك ، فأزيتنى وجهك عندك آخرًا ، كما أريتني اليوم عندك أولاً ؛ فلك على ما تفضلت به فى ذاك عندى فى الآخرة ، ولا حمدلى فى ذا هاهنا ، ولا حمدلى فى ذاك هناك ، إذا كنت أنا وصلت إليهما بك ؛ فأنت الخمود فيهما لأنك وصلتني بهما . فهذا الذى فسرناه هو وجد المحبين المحققين .

وخلاصة تفسير أبى طالب المكي هذا هو أن حب الهوى هو الصادر عن طريق النعم والإحسان ، أعنى الحب الناشئ عن المنح والهبات والأفضال ، فهو حب التنعم بأنعم الله ، هو حب حسى ، لأن المقصود بالتنعم هنا النعم المادية ، لا الهبات القدسية . بيد أن هذا الحب ليس متغيراً بتغير أحوال النعم : فإذا كثرت

تراد وإذا قلت نقص؛ إنما هو حب ثابت، لأن صاحبه نظر إلى المعنى الكامن وراء النعمة أيًا كان مقدارها، وهو معنى لا يتغير، لأنه مجرد الفضل، ودليل بالرضا؛ فهو إذاً لا يتجزأ ولا يختلف باختلاف المنعم به، وبهذا يلحق بالمعنى الروحي اللامادى. وإذن فالاختلاف بينه وبين الحب الآخر، الخالص «لوجه العظيم»، ليس في ماهيته بقدر ما هو في دواعي إثارته ومصادر إيجادها. ولهذا كان عن طريق العيان المباشر.

أما الحب الذي هو أهل له فهو — في تفسير صاحب «القول» — «حب التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذي الجلال» — أعنى أنه الحب الذي لم يكن باعثه نعمة، ولا مدخل فيه للمتعة الحسية، بل باعثه المحبوب نفسه لذاته وبذاته. وهذا الحب لا يستوجب جزاء عليه، بل كل الواجبات تقع على الحب وحده، وهي واجبات إنما يفرضها مجرد الحب، ويستلزمها مجرد وجود المحبوب؛ فلما كان وجوده لا متناهياً، فإن الحب لا متناهٍ، والواجبات هي بالتالي لا متناهية، ولذا يوجب هذا الحب على المحبوب كل شيء مما لا يطيقه ولا يقوم بحقه فيه أبداً. ومن هنا ما زجه الخوف: الخوف من عدم الوفاء بالواجب، وهو خوف دائم لأن الواجب في هذه الحال هو كما قلنا لا يفنى أبداً، ولا يقوم المرء بحق المحبوب فيه أبداً. ومن هنا أتيت هذه المسألة التي ذكرها المحاسبي فقال: «قيل لمُضَرَّ القارىء: الخوفُ أولى بالحب أم الشوق؟ فقال: هذه مسألة لا أُجيب فيها: ما اطّعتُ النفسُ على شيء قطُّ إلا أفسدته»^(١). على أن هذا الخوف هو الذي يثير القلق في الحب، والقلق هو الذي يهب هذا الحب — بالرغم من طابعه السكوني الاستاتيكي — جانباً حركياً ديناميكياً ظاهراً؛ وهو جانب لا ينتهي إلا في مقام الوصول الكامل، وأنتي للصوفي الحقيقي أن يبلغه! هيهات! هيهات!

(١) أورده أبو نعيم في «حلية الأولياء»، ١٠٠، ص ٧٨. القاهرة سنة ١٩٣٨.

وهذا المعنى أفاض فيه المحاسبي في الموضوع نفسه فقال : « الحب لله في نفسه استغارة القلب بالفرح لقربه من حبيبه . فإذا استنار القلب بالفرح استلذ الخلوقة بذكر حبيبه . فالحب هائج غالب ، والخوف في قلبه لازم لا هائج ؛ إلا أنه قد ماتت منه شهوة كل معصية ، وهدى لأركان شدة الخوف ، وحل الأُنس بقلبه لله — فلاماة الأُنس استنقال كلِّ أحدٍ سوى الله . فإذا أَلِفَ الخلوقة بمناجاة حبيبه ، استغرقت حلاوة المناجاة العقل كغله حتى لا يقدر أن يعقل الدنيا وما فيها . ومن ذلك قول ضيفم العابد : عجباً للخليفة كيف استنارت قلوبهم بذكر غيرك !! » . وفي هذا وصف جيد دقيق لهذا « الحب لله في نفسه » ، وهو ما تعنيه رابعة بالحب الثانى الذى « هو » (أى الله) أهل له .

ثم يتابع صاحب « القوت » تفسيره فيقول إن الله تفضل على رابعة فأراها وجهه عنده آخرأ ، كما أراها وجهه عنده ذلك اليوم أولاً ؛ ومعنى ذلك أن الله قد تفضل عليها في هذه الحياة الدنيا بمعاينة سُبحات وجهه ، وكذلك سيتفضل عليها برويتها إياه في الآخرة . فكان قولها : « ذا » ، يشير إلى المعاينة في الدنيا ، وقولها : « ذاك » يشير إلى المعاينة في الآخرة . ثم إنها لا ترى لنفسها فضلاً في هذين الأمرين ؛ بل لله وحده الفضل في كليهما ، وله وحده الحمد على كليهما ، لأن الظفر بهما كان عن طريقه .

وهذا التفسير كله لا نكير عليه ، إلا شئ من عدم التدقيق ، خصوصاً في جانب حب الهوى . على أنه حاول أن يربط بينهما عن طريق فكرة المعنى الباطن في النعمة ، لا كمها أو كيفها ، مما أضنى على حب الهوى طابعاً روحياً ظاهراً . ووفق خصوصاً في إبراز فكرة العيان المباشر في الحب الأول لأنها معقد الصلة بين كلا الحيين ، إذ أن في هذه المعاينة المباشرة ما يضمن الجانب الروحى في حب

الهوى . إنما الذى يؤخذ عليه هنا هو أنه بالغ فى إيضاح فكرة العيان بالنسبة إلى حب الهوى ، حتى جعله يتجاوز عن مقصودها الحرفى . فهى تقول إن حب الهوى هو شغلها بذكر الله عن سواه . فهى إذأً فى مقام الذكر ؛ وحقيقة الذكر هى ، كما يقول الكلاباذى ، « أن تنسى ما سوى المذكور فى الذكر ^(١) » ؛ فهو نسيان كل شىء ، و ذكر شىء واحد هو الله . ولذا يتم على مرحلتين : نسيان ما سوى الله ، والتخلص من هذا النسيان . وفى هذا يقول صاحب « جامع الأصول ^(٢) » : « الذكر : وأصله هاهنا التخلص من النسيان بدوام حضور القلب مع الحق . وصورته فى البدايات : الذكر الظاهر ؛ وفى الأبواب : الذكر الخفى ؛ وفى المعاملات : ذكر المقال لما يريد — برؤية الأفعال كلها منه والأمور كلها بيده ؛ وفى الأخلاق ذكر الأخلاق الإلهية والتشوق إلى التخلق بها . ودرجته فى الأدوية : تلقى المعارف والحقائق منه ، وإلقاء السمع فى إسرارٍ إليه . وفى الأحوال : لزوم المسامرة والمناجاة . وفى الولايات : دوام المصافاة والمناجاة . وفى الحقائق : دوام المشاهدة والمعينة . وفى النهايات : شهود ذكر الحق إياك ، والتخلص من شهود ذكرك إياه ، ومعرفة افتراء الذاك فى بقاءه مع ذكره » . فمن هذا يتبين أن فى الذكر مشاهدة ومعينة ، ولكنها ليست معينة الوجه للوجه بعد كشف الحجاب ؛ وإلا اختلط حب الهوى وحب الله فى نفسه ، أو الحب الذى هو أهل له . ورابعة حريصة على تأكيد التفرقة فى هذه الرباعية . أجل ، قد تنتهى إلى المزج بينهما لما أن يبلغ الذكر مرتبة الحقائق ثم يصاعد منها إلى مرتبة النهايات ؛ بل هذا هو ما حدث لها فعلاً ؛ بيد أنها فى هذه المرحلة التى تعبر عنها هذه الأبيات لمّا تفعل بعدُ .

(١) أبو بكر الكلاباذى (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) : « التعرف لمذهب أهل

التصوف » ، ص ٧٤ — القاهرة ١٩٣٣ م

(٢) ص ٣٥١ .

إنها لاتزال تقول بثنائية في الحب : حب المذكور ، وحب الذكر ؛ ولم تفعل بعد ما سيفعله الحلاج من تفضيل حب المذكور (= حب الله في نفسه ، الحب الذي هو أهل له) على حب الذكر (= حب الله لنعمه ، وهو حب فيه متعة حسية شخصية)^(١) . فتى رَفَعَتْ رابعةُ هذه الثنائية ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال نعود فنتم ما يتصل بتلك الأبيات . فنقول إنه عن تفسير أبي طالب المكي هذا أخذ الغزالي في « الإحياء »^(٢) ، فقال : « ولعلها أرادت بـ « حب الهوى » حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة — ؛ وبـ « حبه لما هو أهل له » الحب لجلاله وجلاله الذي انكشف لها ، وهو أعلى الحيين » . والغزالي بهذا لم يفعل إلا أن نقل ملخصاً كلام صاحب « القوت » بحروفه ، شأنه في أغلب فصول كتابه « الإحياء » في الموضوعات المشتركة بينه وبين « قوت القلوب » ، مما يعطينا شاهداً آخر على مقدار مالىدى الغزالي من أصالة !! والزبيدي^(٢) فى شرحه « للإحياء » قد أشار إلى هذا فى هذا الموضوع نفسه فقال بعد إيراد تلك الأبيات التى وردت فى نص « الإحياء » : « وقد تكلم صاحب « القوت » على هذه الأبيات بكلام ساطع الأنوار ، يعرفه من رُزِقَه (= الحب) وينكره من حُرِمَه . والمصنف (= أبو حامد الغزالي) رحمه الله أشار إلى زُبْدَة كلامه (= أى كلام صاحب « القوت » ، « أبى طالب المكى) » .

فانمض عن الغزالي إذن إلى الشيخ الحريفيش الذى ذكر هذه الأبيات فى إطار آخر وإن كان بصدد الحديث عن رابعة ، فقال : « قال سعد بن عثمان :

(١) راجع : ماسينيون : « عذاب الحلاج » ، ص ٦٢٣ — ص ٦٢٤ ، وراجع خصوصاً : ماسينيون : « بحث فى أصول المصطلح الفنى للتصوف الإسلامى » ، ص ١٩٣ ، باريس سنة ١٩٢٢ .

(٢) المرضي الزبيدي : « تحواف السادة » ، ص ٩٠ ، ص ٥٧٧ .

كنتُ مع فتى النون المصرى رحمه الله فى تيه بنى إسرائيل ، وإذا بشخصٍ
تقد أقبل ، فقالتُ بيا أستاذ ! شخصٌ قد أتى . فقال لى : انظرُ من هو ، فإنه
لأيض أحدُ قدمه فى هذا المكان إلا صديق . فنظرتُ فإذا هى امرأة . فقلتُ :
إنها امرؤة .. فقال : صديقة ورب الكعبة . فابتدر إليها وسلم عليها فقالت : ما للرجل
ومخاطبة النساء ! فقال : أنا أخوك ذو النون ، ولستُ من أهل التهم . فقالت :
مرحباً ! حياك الله بالسلام ! فقال لها : ما حملك على الدخول فى هذا الموضع ؟
فقلتُ : آية من كتاب الله عز وجل - قوله تعالى « ألم تكن أرضُ الله واسعةً
فتهاجروا فيها !؟ » . - فقال لها : صبري المحبة ! فقالت : سبحان الله ! أنت عارفٌ
بها ، وتتكلم بلسان المعرفة وتسالني عنها ؟ ! فقال لها : للسائل حقُّ الجواب .
فأشددت تقول : أحبك حين ... » ^(١) ثم يأتي بالأبيات الأربعة .

وبواضح أن هذه القصة أسطورية إن قصد بهذه المرأة رابعة كما يريد المؤلف
أن يوحي إليه . وذلك أن ذا النون المصرى إنما ولد حوالى سنة ١٨٠ هـ
(= سنة ٧٩٦ م) أى فى الوقت الذى توفيت حواليه رابعة ؛ فهنا استحالة
تاريخية إذن . وإنما هى من تلك الأقاويص الشائعة عند مؤرخى الصوفية للربط
بين كبار الشخصيات فى التصوف ، حتى لو لم يتفق هذا مع الإمكان التاريخى ؛
ومن شعروا بهذه الاستحالة التاريخية سرعان ما راحوا يزيفون فى التواريخ نفسها
حتى ييسروا هذا التلاقى . والعلة فى هذا الحرص الشديد على الربط واللقاء هى تواتر
السند بحيث يتصل الإسناد الحى ، لأن فى اتصاله ضمناً لصدقه ورفعاً للذاتية فيه ؛
كما هو شأن الروح العربية فى كل تصوراتها : فى النبوة ^(٢) تحرص على التسلسل

(١) الشيخ الحريش : « الروض الفائق فى المواعظ والرفائق » المطبعة اليمنية ، القاهرة
سنة ١٣٠٤ هـ - سنة ١٨٨٦ م ، ص ١١٧ - والآية من سورة النساء رقم ٩٩ .

(٢) راجع كتابنا : « الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى » ، ص ١٤٣ -
ص ١٤٤ ، القاهرة سنة ١٩٤٧ .

الطولى بحيث يكون الأنبياء جميعاً سلسلة واحدة متصلة الحلقات ، تأخذ قوامها الحق لا عن أفراد الأنبياء تفاريق ، بل عن وحدة التسلسل فيها مجتمعين ؛ وفي الرواة ، المحدثين ؛ وفي الإجازات في مختلف مرافق الحياة الدينية . فهذا هو الذى يفسر لنا وجود هذه الظاهرة الفذة في عالم الروح العربية - ظاهرة الحرص الشديد على الإسناد التاريخي الحى المتصل - : أعنى أن العلة هي القضاء على الذاتية ، وتوكيد التسلسل حتى يتصل بالكلمة العليا ؛ ولذا ترى الإجازة الحقيقية ، أو الإسناد الحق ، لا بد أن ينتهى بالنبي أو الملاك الصادر مباشرة عن الله في خاتمة المطاف . ولعل من أوضح الشواهد وأغربها في هذا الباب فكرة المصاحفة وتسلسلها التاريخي حتى تنتهى بالنبي ، والرسائل عديدة في موضوع المصاحفة مما يدل على مدى الاهتمام الشديد بالفكرة عينها^(١) .

إنما تفيد في بيان الفكرة التي كانت لدى أولئك المؤرخين الذين ابتدعوا القصة عن نظرية الحب منسوبة إلى رابعة بوصفها أول من تحدث عنها ، ولذا كانت أجدر الناس بأن يتلقى عنها معانى المحبة . فإذا كان في تقدير الصوفية أن رابعة هي التي لقت الناس مذهب المحبة ؛ فمن يتكلم بعدها عن المحبة يجب أن يأخذ عنها حتى تكون معرفته بها كاملة . لهذا ترى أن الذين وضعوا هذه القصة إنما أرادوا خصوصاً أن يرفعوا من شأن ذى النون بأن يجعلوه يتلقى علم المحبة عن صاحبة هذا العلم الأولى ، رابعة .

على أنا نرى هذه القصة ترد بصورة أخرى في كتاب « مصارع العشاق » لأبي محمد السراج القارى^(٢) ، صورة قد ازداد زخرفها وارتفعت نبرتها ، ومن هنا

(١) راجع مثلاً « مصاحفة الرسول صلى الله عليه وسلم » للاقاسم التويمجرى النقشبندى القادري ، وفيها يبين تسلسل المصاحفة منه إلى شيخه ثم من شيخه إلى شيخ حتى يرتفع إلى النبي ، في مخطوطة الفاتيكان برقم ١٢٤٢ ورقة ٣٢ ب إلى ٣٣ ، وراجع فهرست مخطوطات برلين ١٦٠٦ - ١٦٠٨ وفهرست مخطوطات الفاتيكان لليشى لا فيدا ص ١٩٢ .

(٢) ص ١٨٠ - ١٨١ ، طبع الجوايب باستانبول سنة ١٣٠١ - ١٨٨٣ م وقد نقلها ، عن السراج ، الزبيدي في « آحاف السادة » ص ٦٨٨ .

انتهت على هيئة مأساة . ذكر السراج القارى فقال : « قال ذو النون : بينما أنا أسير على ساحل البحر ، إذ بصرتُ بجارية عليها أطمار شَعْرٍ ؛ وإذا هي ناحلة ذابله . فدنوتُ منها لأسمع ما تقول . فرأيتها متصلة الأحران بالأشجان . وعصفت الرياح واضطربت الأمواج وظَهَرَت الحيتان ، فصرختُ ثم سقطتُ إلى الأرض . فلما أفاقْتُ مُحَتُّ (!) ثم قالت : سيدي ! بك تقرب المتقرَّبون في الخلوات ؛ ولعظمتك سبحت الحيتان في البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطيات . أنت الذى سجد لك سوادُ الليل وضوءُ النهار ، والفلك الدَّوَّار ، والبحر الزَّخَّار ، والقمرُ النُّوَّار والنجم الزَّهَّار ؛ وكلُّ شَيْءٍ عندك بمقدار ، لأنك الله العليُّ القَهَّار :

يا مُؤَنِّسَ الأبرارِ في خَلَوَاتِهِمْ يا خَيْرَ مَنْ حَمَّتْ بِهِ التَّنْزَالَ
مَنْ ذاق حُبَّكَ لا يَزَالُ مَتِيماً فَرَحُ الفُؤَادِ — مَتِيماً — بِلِبالِ
مَنْ ذاق حُبَّكَ لا يُرى مَتَبَسِّماً مِنْ طُولِ حَزْنٍ ، فِي الحِشا إِشْعالِ

فقلتُ لها : زدينا من هذا ! فقالت : إليك عني . ثم رَفَعَتْ طرفها إلى السماء ، وقالت :

أحْبَبْتُ حَبِيبَ : حَبِّ الودادِ وَحُبِّا لِأَنَّكَ أَهْلُ لَدانِ
فأما الذى هو حَبُّ الودادِ فحَبُّ شُعِلْتُ بِهِ عَنِ سِوائِ
وأما الذى أنت أَهْلُ لَهُ فَكَشَفَكَ لِأَحْجَبِ حَتَّى أَرَكَ
فما الحمدُ فِي ذَا ، وَلا ذاكُ لِي وَلَكِنْ لَكَ الحمدُ فِي ذَا وَذاكِ

ثم شَهَقَتْ شهقةً فإذا هي قد فارقت الدنيا . فبقيتُ أتعجبُ مما رأيتُ منها ؛ فإذا بنسوةٍ قد أقبلن ، عليهن مدارعُ الشَّعْرِ ؛ فاحتملنها ، ففِينها عن عيني ، فَعَلَّنها ثم أقبلن بها في أكفانها ؛ فقلن لى : تقدَّمْ فَصَلِّ عَلَيْها . فتقدَّمتُ وصاليتُ عَلَيْها وَهِنَّ خَلْفِي . ثم احتملنها ومضين . « والقصة لاشك رائعة ، ولكنها تنتسب كلها إلى

أسطورة رابعة ، وما ذكرناها هنا إلا لأنه وردت فيها أبياتنا هاتيك . وكأهوالشان دائماً في القصص حينما يتقدم بها العهد ، ضاع اسم رابعة ، ونسبت الأسطورة إلى جارية مجهولة ؛ ثم رقت حواشيتها فأمعن فيها إزميل الخيال المثال ، وتداعت أطرافها فصال فيها الفن المسرحي وجمال : فكان افتتاح *prologue* في هذه النجوى التي وجهتها إلى الله ، وكان وصف لتجربة العشق الإلهي العنيفة القاسية ترددت فيها الأحداث الباطنة على مسرح القلب ، فلما بلغت العقدة ، بأن ارتفعت بالحب إلى حب الجلال والجمال ، حب الله في ذاته ولذاته ، كانت الخاتمة فأسدلت ستور مأساة غرامها الإلهي على مشهد أولئك الملائكة النسوة اللاتي رفعنها إلى حيث ترقد رقدتها الأخيرة في السماء ، وكأنها جرتشن في «فاوست الثاني» ؛ لكن الذي رفعها إلى عليين لم يكن الأنوثة الخالدة *Das Ewig=weibliche* ، بل العشق الإلهي الشهيد . لكن من يدري ! فلعل الأنوثة الخالدة والعشق الإلهي سيان .

وعدم ذكر اسم رابعة في كلتا الروايتين المتقدمتين لا يمكن أن ينهض دليلاً على أن الأبياب ليست لرابعة ، خصوصاً إذا لاحظنا تأخر زمن صاحبها ، وما اعتورها من ألوان التمزيق المشكك في صحة الروايتين إجمالاً . بل يجب أن نضع اسم رابعة مكان الجارية « في الرواية الثانية » ، « والمرأة الصديقة » في رواية صاحب « الروض الفائق » ؛ ثم نضيفهما معاً إلى أسطورة رابعة دون أن يقدر ذلك في صحة بعض قيمات هذه الأسطورة تاريخياً ؛ ومن بينها صحة نسبة الأبيات الأربعة إليها . على أن مجرد صياغة أمثال هذه الاساطير أنضع دليل على قيمة هذه الأبيات ؛ مما حمل الرواة على أن يتدعوا لها إطاراً رائعاً يتفق وجلالها وعمق معناها ؛ ولعل هذا أن يفسر لنا السر في ألوان التزويق والاستعراض المسرحي الذي عمل من أجلها .

وفي وسعنا الآن بعد هذا العرض التاريخي لتفسير هذه الرباعية أن نجمل المقصود منها فنقول إن رابعة كانت لا تزال في ذلك الحين تترجح بين حينين : حب الهوى ، أو حب الوداد ، وهو حب مبعثه نتم الله على العبد، وهو لهذا ليس خالصاً لوجه المحبوب ؛ والذكر فيه — وإن اقتصر على المحبوب — فإنه لا يزال يحول في ليل الحواس ، لأنه تجريد مستمر للمحسوس ، وبالتالي ذكر للمحسوس . وفي الذكر بقية من التعلق . ثم حب الله في نفسه كما يقول الحاسبي ، أو « الحب الذى هو (= الله) أهل له » كما تقول هي ، وهو حب لا باعث له إلا المحبوب نفسه ، وليس فيه حب للذكر ، أى النعمة والمحسوس ، بل هو حب للمذكور وحده ، ولوجه ذى الجلال والإكرام . وفيه تنكشف الحجب حتى تيسر المعاينة . وليس في قولها هنا ما يؤذن صراحة بأنها ظفرت بهذه المعاينة فعلا لوجه الله ؛ بل هي في معرض الوصف لما عسى أن يؤدي إليه هذا الحب . وهى لا تزال تشعر بأن ظفرها بالغاية في كلا النوعين من الحب لا يمكن أن يأتى إلا عن طريق الهبة من الله ، شأن ذلك شأن التوبة كما رأينا آنفاً ؛ مما يؤكد مرة أخرى أنها لا تزال في الدور السابى الذى تتلقى فيه كل شيء عن الله ، فلا تزال إذن في حال انفعال مطاق بالنسبة إليه .

لهذا كان عليها أن تناضل في طريق الحب حتى تحيل الجانب السلبي إلى جانب إيجابى ، شأن كل صوفى حق . لأن السلب هو دور تمهيدى فحسب ، فلو اقتصر عليه الصوفى لما وصل . ويمكن أن يشبه الأمر هنا بأمر العقل الفعّال وأمر العقل المنفعل : فهذا الأخير مرحلة تمهيدية ، فيها تقبل خالص للصور منطبقة على المحسوسات ، ولا يزال المرء فيه عالة على الخارج ؛ وإنما يبلغ العقل مرتبة

الكمال إذا استحال إلى عقل فعال ، يبدع المدركات ويفيض بالمعقولات. فمثل العقل الفعال والعقل المنفعل هو مثل الدور الإيجابي والدور السلبي في طريق التصوف ، ومنه طريق المحبة .

لكن الانتقال والتصاعد من دور السلب إلى دور الإيجاب مليء بالمتاعب والمجاهدات وألوان الألم وخيبة الأمل . وكلنا يذكر تلك الصفحات الرائعة التي كرسها صوفي مثل يوحنا الصليبي San Juan de la Cruz لما يعانیه المرء في « الليلة الظلماء » . فماذا كان حال رابعة في ليلتها هي الظلماء ؟

لدينا عنها روايات وأقوال ، يأتي على رأسها ما حكاه العطار في « التذكرة » فقال : « يحكى أن رابعة كانت تنوح باستمرار . فسئلت : لماذا تنوحين وما ثمت ألم عسك تشكين منه ؟ فأجبت : واحسرتها ! العلة التي أشكوها ليست مما يستطيع الطبيب علاجه . إنما دواؤها الوحيد رؤية الله . وما يعينني على احتمال هذه العلة إلا رجائي أن أحقق غايتي هاتيك في العالم الآخر » .

ما أشبه قولها هذا بقول أوغسطين : « أموت من كوني لا أموت كما أرى وجهك » ! كلاهما يسعى لرؤية الله ، لكنه لم يبلغ بعد مرتبة تسمح بتحقيق هذه الرؤية ؛ فـقنطَ من بلوغ هذه الدرجة في الدنيا ؛ ولذا يطلب الموت لأنه وحده الذي سيسر السبيل إليها . إنه إذن في حال اليأس من البلوغ ، والقنوط من الوصول .

وما أبدع العبارة في وصف ما تشكوه ! لقد ألحّت عليها الرغبة في الرؤية ، حتى استحالت مرضاً ، مرضاً تألم له ، لأن الحب قد صار من القوة والنفوذ بحيث صارت له آثار توغل في أعماق الروح فتصيبها بالعلّة . هنا « المرض حتى الموت » من شدة الألم العالی ؛ هنا « الصرخة من أعماق الهاوية » هاوية الليلة الظلماء للحواس ، وإن كانت تبذل كل ما في وسعها للخلاص منها ؛ بل هي في عروج من

« ليلة الحواس » إلى « ليلة الروح » ، لكنها لا تزال تتخبط في الظلام، وهيهات بعد أن يبرز فجر ! نعم ، إن طائفاً من النور يطوف بروح رابعة بين الحين والحين ، وهو طائف « الرجاء » المنحدر إليها من حفاق عآيين ؛ لكنه نور محبوب ، نور خاطف ، نور يصارع الليلة الظلماء في لهفة وإعياء كأنه الخيوط الأولى المتناثرة في صفحة الأفق الوسنان . ومع هذا فلتتعلق بأهداب هذا النور الخاطف ، ففيه من الرؤى ما يعينها على أن تتذوق مقدماً avant-goût أنارة مما ستتذوقه بعداً في الحضرة الكاملة . هي رؤى من نوع تلك التي وصفها يوحنا الصليبي فقال : « تتخطف البصرُ صورٌ... ورؤى للقديسين والملائكة... وأضواء وإشعاعات.. وتسمع الأذن كلمات غريبة...؛ ويستروح الشمُّ عطوراً فاغمة... ويستطيب الذوق طعوماً شمية محضة الحلاوة؛ ويحسُّ اللمس نومة عميقة . لكن هذه الظواهر جسمانية على الأخص ، لهذا لا بد من الظن أنها ليست من مصدر إلهي^(١) . فلا بد من استبعاد حتى هذه الصور نفسها ، خوفاً من أن يقتصر عليها المرء فنزل قدمه ، أو بالأحرى يحسب نفسه قد وصل وما كان من الواصلين.. ولذا فإن في بوارق هذا الرجاء من العَرَر بقدر ما فيه من الفائدة .

إن هذا الرجاء في الآخرة ، وهو الاشتياق إلى الجنة ، لا يزال متلبساً بالمحسوس ، لأنه يفترض أن الحب لا يزال يطلب جزاء ، وأنه ليس خالصاً لوجه الله ، بل فيه طمع في الجنة ، طمع في مادي محسوس . ومن هنا كان عايبها أن ترتفع فوق هذه المرتبة التي تعبر عنها القصة التي رواها العطار ، فتفعل ما سيفعل يوحنا الصليبي من أطراح هذه البوارق الخداعة . وذلك بأن تعدّ في الشوق إلى الجنة نفسها خطيئة ؛ وهو ما تَبَيَّرَتْ عنه أجل تعبير فيما حكاه الكلاباذي في كتاب «التعرف

(١) يوحنا الصليبي: « صعود الكرمل » ، ج ١ ص ٩١ ترجمة هـ . هورناير ، باريس ، سنة ١٩٢٣ : Saint Jean de La Croix Montée, du Carmel, tr. H. Hornaert.

لمذهب أهل التصوف « في باب « لطائف الحق بهم في غيرته عليهم » فقال :
« دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى فقالوا : ما حالك ؟ قالت : والله
ما أعرف لِمَلَّتِي سبباً ! عُرِضْتُ عَلَى الْجَنَّةِ فَمَلَّتْ بَقَلْبِي إِلَيْهَا ؛ فَأَحْسَبُ أَنَّ
مولاي غار عليّ فعاتبني ؛ فله المُتَبَيُّ «^(١) . وقد روى ذلك المناوي في « طبقات
الأولياء » فقال : « ومَرَّضَتْ (أى رابعة) فقال لها عُوَادَهَا . ما سبب عَاتِكَ ؟
قالت : نظرت بقلبي إلى الجنة فأذاني ؛ فَبَتُّ أَنَّ لَأَعُودُ «^(٢) . والمعنى قريب في
كلتا الروايتين ؛ وخلاصته أنها صارت تعدُّ النظر بقلبها إلى الجنة بمثابة إثم أقترفته ،
يعاقبها الله عليه ؛ ولذا تابت عنه وقررت أن لا تعود إليه . فبينما في رواية العطار
السالفة نرى رابعة لا تزال ترمق الجنة بنظرها وتضع رجاءها فيها ، نجد هنا ترى
في هذا منكرأ نستحق من أجله العقاب ، أو في القليل العتاب من الله . وهذا يؤذن
بتطور هائل في سلوك رابعة — إنها الآن في مقام قاب قوسين أو أدنى .

— ١٠ —

ألا فلتتقدمي إذن بكل شجاعة في هذا الطريق ، أى رابعة ! لقد بدأت
الخطوة الأولى في المرحلة الحاسمة النهائية، فماذا يحتجزك ؟ أبقية من تقاليد وأوضاع،
وسؤار من سُنَّةِ فقهاء ، وحرف صامت جامد ؟ إذن فلتكسري التقاليد ولتقلبي
الأوضاع ! إذن فلتستني سُنَّةَ أخرى ، فما سنة الفقهاء إلا إحدى السنين ، هي سنة
المجموع والجماعة ، فلا تصلح للفرد الممتاز ! والحرف الصامت ماذا يخيفك منه ؟
الحرف يَبْتُلُّ ، والروح تُحْيِي ؛ والحرف رمز ، والمقصود هو المعنى ؛ فهاًياً أعلني
الثورة على الحرف القاتل كما ترفعي راية الروح الحية ؛ ولتخطمي قيد الرمز، حتى
تنعمي مع الأرواح الزكية بالمعاني العالية المستورة ! تشجعي إذن وتقدمي غير هيابة!

(١) « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، ص ١٢١ ، نشرة آربري ، القاهرة

سنة ١٩٣٩ . وذكر ذلك العطار في « التذكرة » ، ج ١ ، ص ٧٠ .

(٢) مخطوط الظاهرية بدمشق رقم ٤١٦٤ عام ، ورقة ١٠٥ ب .

وتقدمت رابعة تمشي أول الأمر على استحياء لا يزال يشيع في مثل قولها الذي لا بد أن ينتسب إلى ذلك العهد ، وهو مارواه المناوي من أن سفياناً الثوري قال لرابعة : « ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته ، فأكون كالأجير السوء . عبدته حباً وشوقاً إليه » (١) . فهي هنا تقتصر على وصف حالها الجديدة ، وهي أنها بدأت تدخل في ملكوت « الحب الذي « هو » أهل له » ؛ فلم تعد تحب الله إلا الله ، لاطمئناً في الجنة ولا خوفاً من عذاب النار . فاهتمت بالانزال هادئة ، وكأنها إنما تريد أن تميز بين صنفين من العابدين : صنف يعبد الله على رغبة أو رهبة ، وصنف قد صار بمعزل عن الرغبة والرهبة وارتفع إلى معنى الحب الأعلى الذي لا يطلب من وراء ذلك غير وجه المحبوب ؛ وتكتفي بأن تدمع الحب الأول بأنه حب أجراء السوء ، أما الآخرفهو حب العابدين المتقين .

تلك إذن خطوة أولى ، فلتتبعها بثانية بأن تبدأ في عتاب الله نفسه على اتخاذ هذه المعاني : الرهبة والرغبة ؛ والتجائه إليهما في دعوى الناس إلى طاعته . وإذا كانت قد بدأت العتاب ؛ فما ذلك إلا لأنها قد تحققت في مقام أخلّة بينها وبين الله ؛ فلا تثريب عليها أن تلجأ إليه ؛ إذ ما أجل العتاب بين الخللان ! وهل تقوم أخلّة والصدقة حقاً إلا مع العتاب ؟ لذا نراها تقول هنا ما يرويه المناوي أيضاً حين قال : « قال مالك بن دينار : أتيتها (أي رابعة) فإذا هي تقول : كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعها ! يارب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ ! » (٢)

من هنا تبدأ الجرأة في اللهجة لدى رابعة في حديثها مع الله ، ولولا أنها بمقام أخلّة ، لنعنتنا ذلك بالاجترار بآلة التطاول .

(١) عبد الرؤوف المناوي : « طبقات الصوفية » مخطوط الظاهرية ، رقم ٤١٦٤ عام ، ورقة ١١٠٥ ؛ وابن خلدون « شفاء السائل » ص ٢٩ — استانبول سنة ١٩٥٨
(٢) الموضوع نفسه .

والآثار التي لديناني هذا الباب قليلة وباللأسف الشديد، لا تكاد تتجاوز أربعين:
الأول ما أورده ابن تيمية في رسالة سئل فيها أن يدلى برأيه في بعض
الأقوال الغريبة الواردة عن بعض الصوفية، ومن بينها أنه « قيل عن رابعة إنها
حجّت فقالت (أى وهى تشير إلى الكعبة) : هذا الصنمُ المعبودُ في الأرض ،
وإنه ما وُلجّه الله ولا خلاً منه » (١) .

وابن تيمية يرى أن هذا القول لا بد أن يكون كذباً على رابعة ، لأنها
كانت من الإيمان والتقوى بحيث لا يتصور صدور هذا عنها . ثم راح يفند هذا
القول — أيا كان صاحبه ؛ قال : « وأما ما ذكر عن رابعة من قولها عن البيت
إنه الصنم المعبود في الأرض — فهو كذبٌ على رابعة . ولو قال هذا من قِاله
لكان كافراً يستتاب ؛ فإن تاب ، وإلا قُتِل . وهو كذب ، فإن البيت
لا يعبدّه المسلمون ، ولكن يعبدون ربّ البيت بالطواف به والصلاة إليه . وكذلك
ما نُقل من قولها : والله ما وُلجّه الله ولا خلاً منه — كلام باطل عليها . وعلى مذهب
الحلوية لا فرق بين ذاك البيت وغيره في هذا المعنى ؛ فلائى مزية يُطاف به ويُصَلّى
إليه ويُحجُّ ، دون غيره من البيوت ! وقول القائل : ما وُلجّه الله فيه — كلام صحيح .
وأما قوله : ما خلاً منه — فإن أراد أن ذاته حَالَة فيه أو ما يشبه هذا المعنى فهو
باطل ، وهو مناقض لقوله : ما وُلجّه فيه . فهذا — مع أنه كفر وباطل — يوجب
ألا يكون للبيت مزيةٌ على غيره من البيوت ؛ إذ الموجودات كلّها عندهم كذلك » (٢) .

ويلاحظ على ابن تيمية هنا أولاً أنه يكذب هذا القول على أساس
عقلى يفترض فيه أن رابعة — وهى التقية المؤمنة كما هو مشهور عنها ،

(١) ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل « ج ١ ص ٦٢ ، القاهرة ١٣٤١ هـ =
سنة ١٩٢٢ م .

(٢) ابن تيمية : « مجموعة الرسائل والمسائل » ج ١ ، ص ٧٠ — ص ٨١ ، القاهرة
سنة ١٣٤١ هـ = سنة ١٩٢٢ م .

وابن تيمية يفهم التقوى هنا بمنه الخاص، أى الشئى الحرفى — لا يمكن أن تقع فى مثل هذا الكفر — بيد أن هذا التكذيب يقتضى أن يكون هذا كفرة فى نظر رابعة نفسها، حتى لا يجوز لها أن تقول هذا — وهو اقتضاء لأصل له، لأن رابعة ترى فى هذا سمواً بالإيمان، مادامت هى فى سبيل التجريد عما هو دينى كل ما يدل على المعنى الحسى. وهى أدل على المعنى الحسى من الكعبة وما يلبسها من طقوس ومراسم تتصل بالطواف وتقبيل الركن والمقام وما يشبه عبادة الحجر الأسود ورعى الجمار وما يقال فيه من دعوات! وتقدتها لهذا كله — ضمناً — ليس يصدر عن نفس الدوافع التى صدر عنها أمثال ابن الرواندى فى نقده « لرمى الحجرة، والطواف حول بيت لا يسمع ولا يُبصر، والعدو بين حجرين (الركن والمقام) لا ينفعان ولا يضران: وهذا كله مما لا يقتضيه عقل: فما الفرق بين الصفا والمروة إلا كالفرق بين أبى قُبَيْس وحِراء، وما الطواف على البيت إلا كالطواف على غيره من البيوت^(١) ». بل يصدر عن الإمعان فى السمو بالحياة الدينية بحيث تصفو من كل شوائب الحس. وابن تيمية قد أخذ هذا القول بما يؤخذ به أمثال أقوال ابن الرواندى هذه، ومن هنا أنكر أن يكون ذلك القول رابعة. فابن تيمية إذن قد أخطأ فهم المقصود من كلام رابعة، وعلى أساس هذا الفهم الخطأ بنى تكذيبه، وما بنى على خطأ فهو خطأ، وإذن فتكذيبه غير قائم على أساس صحيح. ولهذا فلا نستطيع أن نقيم له وزناً.

كما يلاحظ ثانياً أنه، وقد كان يعرض للرد على القائلين بوحدة الوجود والقائلين بالحلول، قد فهم هذا القول المنسوب إلى رابعة على أساس فكرة الحلول أو وحدة الوجود، فأخطأ الفهم مرة ثانية، لأن ما استهدفته رابعة ليس يقتضى الحلول أو وحدة الوجود إلا بتمشؤ لامدعاة له هنا؛ لأن قولها « والله ما وُلِّجَ الله

(١) راجع كتابنا: «الإلحاد فى الإسلام» ص ١٠١-١٠٢، ثم ص ١٢٩-١٣٢

ولا خلا منه) — لا يقتضى غير التسوية بين هذا البيت وبين غيره من البيوت ؛
فلاقتصار على هذا البيت وما استتبع ذلك من قيام نوع من الوثنية حوله هو
اقتصار لا مبرر له ، لأنه أشرف الخليفة في رتبة شيء معين يفضل على غيره ، مع
أن المخلوقات تستوى عند الله من وجهة نظره ، والأشياء خصوصاً أكثر من
الأحياء . وابن الراوندى حينما قال بهذه التسوية بين البيت المحرم وبين غيره من
البيوت لم يقيم ذلك على أساس من الحلول أو وحدة الوجود ، فما كان أبعد ما عن
ذهنه ! كذلك رابعة : رأت أن الوقوف عند بيت دون آخر ، أى عند أثر من
الخلق دون آخر ، فيه تضيق من أفق الخليفة ، وفيه حصر للألوهية ، فضلاً عما
فيه من حسيّة فاضحة ، بل وشرك في إضفاء جانب إلهي على هذا البيت المادي
القائي . وفي القرآن تبييه على ما كان عليه أهل مكة من عبادة لهذا البيت ؛
وذلك في قوله تعالى : « فليعبدوا ربّ هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم
من خوف » (سورة قريش : ٤) ، ففيه رد على أولئك الذين عبدوا — أو كادوا —
هذا البيت من دون الله . وإذن فرابعة إنما تعطى لهاتين الآيتين كل معناهما وتتابع
الفرض المقصود منهما حينما تقول قولها هذا عن البيت المحرم : إنه الصم المعبود
في الأرض ، وإنه ما ولجه الله ولا خلا منه .

وإنما الحلول هنا أن تعال في تقديس هذا البيت بحيث تشعر بأن الله كأنه
حالٌ به كما آل إليه أمر الحج ، على الأقل في أذهان الجمهور من الناس : فهذا
قولاً هو ما يسميه ابن تيمية نفسه^(١) باسم الحلول المعين ، لأنه القول بحلول الله
في شيء معين — إنسان أو جماد أو حيوان — وذلك في مقابل الحلول المطلق .

ولهذا فكلّام ابن تيمية هنا حافل بالمغالطات ، خصوصاً في تجزئته تلك

(١) راجع ابن تيمية : « مجموعة الرسائل والمسائل » ، ج ١ ص ١٧٢ . القاهرة

العبادة : « والله ما وجه الله ولا اختلاصه » إلى جزئين ، جعل أولهما صليحاً والآخر باطلاً إن قصد به الخلول ، متناقضاً لقوله ما وجع فيه ، متناقضاً في نفسه إن قصد القول بأن الاتحاد ملازم له . وإنما كان عليه أن يأخذ القول بجملة فيعلم منه إنكار الخلول المعين لأن الله لم يلعج هذا البيت بالذات ، إذ الله لا يجعل في شيء ، وهو حال في كل شيء ، بمعنى أن كل شيء قوامه بالله ، ولكن هذا لا يقتصر على شيء دون غيره . ففي تقديس البيت إلى ذلك الحد ما يقتضي أن هذا البيت وسعته قوامه من الله بينما غيره ليس قوامه منه ، وهذا هو الشرك بعينه .

والحق أن من المميزات الكبرى للإسلام في جوهره وأصوله ، أنه حاول دائماً منذ البداية ألا يقصر العبادة على مكان ، لأن كل مكان يصلح أن يكون بيت عبادة لله . وهو إنما آتى بهذا بمثابة رد فعل ضد اليهودية والمسيحية في حصرها عبادة الله في مكان معين بالذات بحيث لا تصلح في غيره . فالصلاة في الإسلام يمكن أن تقام في أي مكان ؛ أما في اليهودية والمسيحية فلا بد أن تقام في مكان بالذات : كنيسة أو بيعة على التوالي . والمعنى العميق في اتجاه الإسلام هذا الاتجاه هو الإشعار بأن الألوهية في كل موضع ، وأن كل مكان أخذته عامر بها يصلح بالتالي أن يكون بيت الرب . وفكرة المسجد أو الجامع لا تنطوي على أي معنى من معاني التفضيل لمكان دون مكان ، كما هي الحال في فكرة الكنيسة والبيعة ، إنما — كما يدل عليه اسمه — تنحصر في فكرة الاجتماع في مكان واحد تحقيقاً خصوصاً للمعنى المقصود من صلاة الجماعة وبخاصة صلاة الجمعة .

ألا إن فكرة عبادة الأماكن لفكرة حار بها الإسلام الأول بكل قوة وعنق كما يظهر في الآية التي أوردناها من قبل : « فليعبدوا رب هذا البيت » ؛ وكانت حملته هذه موجهة ضد تيارين : تيار اليهودية والمسيحية اللتين اقتصرتا على المكان المعين فحصرتا فيه إمكان العبادة والصلاة ؛ وتيار الوثنية العربية التي

قد سُميت البيت القهقري والحجر الأسود الذي فيه حتى كادت أن تجعله محلاً للألوهية .
ولهذا كان على الإسلام السائر المتطور — لا ذلك الجامد المتحجر الذي يمثله أمثال
ابن تيمية والسلفية عامة — أن يتابع تلك الحملة حتى تُؤتَى ثمرها السكاملة العامرة
بالتسامي الروحي فوق كل ما هو حسي أو مُشعر به ، فتزول البقية الباقية من الوثنية
العربية : وهذا هو ما فعلته رابعة العدوية ، وما فعله الخلاج من بعدها . لقد بَدَأَتْ
النهيَّةُ الطلائع الأولى ، فعلى المسلمين على مرِّ الزمان الأبدى أن يتابعوا الحملات
حتى تتحقق الغايات البعيدة التي آتَتْ من بعيد إليها دون أن يخطو في السبيل إليها
إلا الخطوات الضئيلة الأولى .

وإذن فالفكرة التي عنها صدرت رابعة في هذا القول فكرة ممتازة تنبع
من صميم الإسلام الحى .

كذلك قولها الثانى . قال المناوى : « وَسَمِيتُ (أى رابعة) قارئاً يقرأ :
« إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون »^(١) — فقالت : مساكين أهل الجنة
في شغل هم وأزواجهم ! »^(٢) وكلمة « فاكهون » هنا معناها — في كثير من
التفاسير — يفتضون الأبكار . ومن هنا امتعض ضمير رابعة من هذا المعنى
الشهوانى ، وهى التى ارتفع عندها معنى الجنة إلى أعلى درجة من درجات الروحية .
وقولها هذا — إن كان صحيحاً فى نسبته إليها ، وليس ثمة ما يدعوننا إلى الشك فى
هذه النسبة — قد بلغ درجة خطيرة من الجرأة والاجترار : فهو يتضمن أولاً نقداً
للقرآن وما فيه من أوصاف حسية شهوانية ؛ وهو يتضمن ثانياً طعنًا فى الجوانب
الحسية الشهوانية من الإسلام .

وهاتان مسألتان على أكبر جانب من الخطورة . ذلك أننا لا تعلم فيما ورد

(١) القرآن : سورة يس : ٥٥ .

(٢) عبد الرؤوف المناوى : « طبقات الأولياء » ، ورقة ١٠٥ ب ، مخطوط الظاهرية

إلينا من الأخبار سواء عن عهد النبي وعن عهد الخلفاء والأمويين أن نقداً قد وجه إلى القرآن والإسلام من هذه الناحية : ناحية الحسية الشهوانية . فليس في القرآن ما يدلنا على وجود ذلك الجدل في أيام النبي حول ما ورد في القرآن من أوصاف شهوانية ، والقرآن هو أصدق وثيقة تصور لنا نقد الناقد في ذلك العصر ؛ كذلك لم يكن ينتظر ، والبيئة كانت على ما نعرف من سداجة وفطرية ، أن يصدر مثل هذا النقد ، لأنه يفترض درجة عالية من التطور الروحي كان أهل تلك البيئة في ذلك الحين بعيدين عنها .

أكانت رابعة إذن أول من بدأ هذا النقد ؟

لن نستطيع الجواب عن هذا بالإيجاب أيضاً ، وذلك لأن حركة الزندقة كانت قد قويت في تلك الأثناء — وبخاصة في الربع الثالث من القرن الثاني الهجري — وانتشرت آراؤها إلى حد بعيد ، خصوصاً منذ أن صارت موضع اضطهاد عنيف من جانب الخليفين المهدي والهادي فيما بين سنة ١٥٣ هـ (= سنة ٧٦٩ م) وسنة ١٧٠ هـ (= سنة ٧٨٦ م) ، فكان طبيعياً أن تكون رابعة على علم بها ، مادامت الدولة قد شغلت بها إلى هذه الدرجة البالغة الخطورة^(١) . أتري رابعة قد تأثرت بهذه الحركة أو كانت على صلة وثيقة بها ، مع الفارق الشاسع بين نواياها ونوايا أولئك الزنادقة ؟

فرض نسوقه ولا نستطيع تحقيقه بيقين . لكننا لا نرى مانعاً جدياً في أن تكون قد تأثرت بتلك الأفكار التي أثارها حركة الزندقة ، وبخاصة عند ابن المقفع الذي وجه عناية خاصة إلى القرآن وحاول معارضته ، ولا بد أن يكون قد واکب هذا قيامه بنقد القرآن ، ويجوز أن يكون قد تعرض لشيء مما تعرضت له

(٢) راجع العرض التفصيل لهذه الحركة في كتابنا : « من تاريخ الإلحاد في الإسلام » ، ص ٢٨ - ٧١ - القاهرة ، سنة ١٩٤٥ .

رابعة ، أى نقد الجانب الجسدى فيه . بيد أننا لا نجد فى رد أبى القاسم الزيدى ولا فى المصادر الأخرى التى ذكرت زندقه ابن المقفع ، ما يشير إلى هذا بوضوح^(١) .
وخلاصة رأينا فى هذه المسألة إذن ، هى أن رابعة يمكن أن تعد أول من تعرض لنقد القرآن والإسلام من ناحية ما فى القرآن من أوصاف حسية شهوانية تتصل بالجنه خصوصاً ، وأنها يمكن كذلك أن تكون قد تأثرت فى هذا بحركة الزندقه التى انتشرت فى ذلك العهد انتشاراً خطراً حمل الدولة على مكافحتها بكل شدة ؛ وأنها رمت من وراء هذا النقد ، لا إلى الهدم والظعن ، بل إلى الارتفاع بمستوى الحياه الدينية ومعانى القرآن والإسلام إلى أعلى درجة من الروحيه مستطاعه ، وكانت فى هذا تكافح خصوصاً ضد تيار المشبهه والجسمه والحشويه ممن أرادوا أن يأخذوا القرآن بحروفه . ولهذا يمكن أن نعد قولتها هذه من آرائها الكلاميه ؛ بيد أن إيجازها لا يسمح لنا بتفصيل أوسع فى مذهبها الكلامي ، وكل ما نستطيع قوله فى هذا الباب هو أنها كانت من خصوم المشبهه والجسمه .

وكان طبيعياً ، وهذه العبارة من الخطورة على النحو الذى بيناه ، أن تجد لها كثيراً من الطاعنين عليها . وقد ذكر المناوى أن ابن عربى كان من هؤلاء . قال : « وعاب عليها ابن عربى هذه المقالة ، وقال إنها ما عرفت ، وإنها المسكينه ، فإنما شغلهم إنا هو بالله . قال : وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين فى تجميع الغير ببادى الرأى والتعريض فى حق نفوسهم ؛ إنهم منزّهون عن ذلك^(٢) » . ومن هذا النقد ترى أن ابن عربى ينكر عليها هذا القول لأنها فهمت الآية هذا الفهم — لكن الذنب ليس ذنبها ، فالفسرون — غالباً — يفهمونها بهذا المعنى ، أعنى : أن أصحاب الجنه مشغولون باقتضاض الأبدان . ولا شك فى أن هذا كان المعنى المشاع

(١) راجع المرجع السابق ، ص ٤٣ — ٥٣ .

(٢) عيد الرؤوف المناوى : طبقات الأولياء ، ورقة ١٠٥ (ب) — ١١٦ (١) .
مخطوط الظاهرية بدمشق رقم ٤١٦٤ .

السائد في أيام رابعة، قبل أن يتطور تفسير القرآن نحو التفسير بالباطن مما كان وليد حركة الصوفية في القرون التالية . فلا تثريب على رابعة إن كانت إذن قد فهمت الآية على هذا النحو ، بل هذا هو وحده الذي كان ينتظر منها في مثل ذلك العصر . على أن إيجاز العبارة لا يدلنا — مرة أخرى — على ما قصدت إليه من هذا النقد: أهو نقدٌ لتفسير المفسرين ، وإذن فالعبارة قيلت في معرض التهم عليهم ، أم هو نقد القرآن نفسه ؟ على أن هذا الفرض الثاني هو الأقرب احتمالاً ؛ كما يقتضيه سياق العبارة : إذ قالت هذه المقالة حينما سمعت قارئاً يقرأ الآية ؛ فهي لم تكن إذن بإزاء مفسر ، بل قارئ عادي .

— ١١ —

تطورت الحياة الروحية عند رابعة إذن إلى الذروة من التجريد والتسامي عن كل ما هو حسي . وواكب هذا استغراقها الكامل في الله ، بحيث أقفلت أبواب الحواس . وإلى هذا ينتسب ما ورد لنا من أقوال تنبيء عما آلت إليه حالها من إماتة الحواس ، بحيث يمكن أن يقال إنها ماتت من الدنيا . فقد « ذكر أن رابعة العدوية كانت في الصلاة ؛ فسجدت على البواري ؛ فدخلت قطعة قصب في عينها فلم تشعر بها حتى إذا انصرفت من الصلاة ^(١) » ؛ أي إلى أن انصرفت من الصلاة .

فالحال التي تعبر عنها هذه القصة هي حال الفناء عن الوجود الخارجي، وذلك بالفناء في الوجود الباطن ، وجود الحق ، بحيث تستهلك فيه ، فيغيب عنها الوعي وتؤول إلى حال من اللاشعور الكامل ، فيسقط عنها التمييز . وهي الحال التي

(١) في المخطوط رقم ٢٩٦ فاتيكان عربي ، ورقة ٧٧ ب ضمن رساله تسمى كتاب الصلاة
بجمهولة المؤلف . وقد ذكر هذه الحكاية أيضاً الطاهر ، في « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ٦٤ .

يشير إليها الصوفية بالرمز بحكاية صواحب يوسف عليه السلام اللواتي قطعن أيديهن « لفناء أوصافهن ، ولما ورد على أسرارهن من لذة النظر إلى يوسف مما غيبهن عن ألم ما دخل عليهن من قطع أيديهن^(١) » ، فيرمز بهذه الحكاية عند الصوفية إلى ما يجب أن يكون عليه الصوفي في حال فئائه عن دنيا الحواس. وهذا الرمز نفسه ينسب إلى رابعة القول به ، ولعلها أن تكون أول من قال به . فقد روى العطار قال : يحكى أن مالكا بن دينار والحسن البصرى وشقيقاً البلخي غدوا لزيارة رابعة . فسألتهم عن معنى الصدق ، فقال الحسن : « ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه » — فقالت رابعة : هذا غرور . وقال شقيق البلخي : « ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه » — فقالت : هناك ما هو خير من هذا . فقال مالك بن دينار : « ليس بصادق في دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه » — فصاحت رابعة : بل تمت أفضل من هذا كله . فقالوا لها : تكلمي أنت إذن ! فقالت : « ليس بصادق في دعواه من لم يئنس بالضرب في مشاهدة مولاه » ، مثل نسوة مصر اللاتي نسين الآلام أيديهن لما رأين وجه يوسف » . وقد تكون هذه الرواية صحيحة إذا استبعدنا اسم الحسن البصرى وأبدلنا به اسماً آخر ، وقد تكون موضوعة كلها على نسق ما يقتضيه النموذج الذي أصبح لدى مؤرخي الصوفية المجددين للتصوف — عن الصوفي . إذ أن هذه الحال — حال الفناء عن الآلام — قد صارت منذ القرن الثالث من المناقب الرئيسية للصوفي الحق . فالسرى السقطي (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ — سنة ٨٧٠ م) يقول عن الصوفي إنه لو ضرب وجهه بالسيف وهو في حال الفناء لما أحسن بألمه^(٢) . كذلك يحدثنا الهجو يري أنه يحكى عن أبي الخير الأقطع أنه

(١) الكلاباذي : « التعرف لمذهب أهل التصوف » ص ٩٥ ، نشرة آربري ، القاهرة

سنة ١٩٣٣ .

(٢) السراج : « اللع » ص ١٩٢ في المخطوط ؛ راجع نشرة نيكلسون ، سنة ١٩١٤ ببلنق .

أصاب قدمه جرح مالمبث أن فسد حتى أشار الطيب ببتقدمه ، غير أن أبا الخير لم يشأ ذلك . هنالك قال تلاميذه للطيب : لو بترتها إبان صلاته لما أحس شيئاً ، لأنه في الصلاة يغيب عن حواسه . ففعل وفق ما قالوا . فلما فرغ أبو الخير من صلاته شاهد قدمه وقد بترت^(١) . وهكذا تكون صورة الصوفي الفارق في الفناء وفقاً لهذه الأمور . فمن الممكن أن تكون هذه الرواية التي ذكرها العطار ، وكذلك مسألة دخول القصة في عينها إبان الصلاة وهي مما رواه العطار أيضاً ، نقول من الممكن أن يكون هذا كله من الأخبار التي اخترعت إتماماً للصورة وفقاً للنموذج الذي كان قد تكون عن الصوفي . وإذا كانت هذه الرواية الأخيرة — دخول القصة في عينها — مما ورد في الكتب العربية ، فإن الرسالة التي وردت فيها مجهولة المؤلف ، بحيث لا نستطيع أن نقرر ما إذا كان قد أخذها هو الآخر عن العطار ، ذلك الرجل الجامح الخيال في غير ما احتفال للوقائع التاريخية .

لهذا يجب أن نخلى هامشاً عريضاً لما في هذه الروايات من المبالغة ، وأن نفهم منها مجرد الارتفاع فوق الآلام ، وإن كانت رابعة قد ظلت حتى موتها شعلةً زيتية الألم . فالواقع أنها بقيت تتلقى حتى آخر نفس من أنفاسها درسها في علم التثالة في مدرسة الآلام . كيف لا ، والألم هو دائماً قوت الأرواح الهائمة في الطريق إلى الله . ولن يفرغ المرء من هذا الطريق أبداً ؛ لهذا فلا بد له أن يستمر في معاناة الآلام أبداً . ولا شك في أنه كان لرابعة فضل كبير في تمجيد الألم ، والدعوة إلى ما يمكن أن يسمى باسم عبادة الألم مما ولد في الحياة الروحية في الإسلام وتزاجيداً سيعرف عليه الصوفية من بعد — وعلى رأسهم الحلاج خاصة — أعمق ألحان الألم . فيثري مضمونهم الباطن إلى درجة عالية . ورابعة ترى في الألم نعمة يمنحها الله لعباده المخلصين ، وليس لها أن تسأل الله تخفيف آلامها ، لأن إرادة الله هي

(١) الهجوري : « كشف المحجوب » ، ص ٣٠٤ ترجمة نيكلسون .

هذا الامتحان بالآلام ، فكيف تتوجه بالدعاء إليه متجاهلة تلك الإرادة ؟ !
فهي كذلك كان جوابها لسفيان الثوري لما أن سألها أن تدعو الله حتى يخفف آلامها^(١)
وهذا من بين الدواعي العديدة التي دعته إلى رفض كل ما كان يعرض عليها من
مال ، وهي كانت على ما هي فيه من شظف عيش وإملاق : ذلك أنها تريد من
هذا أن تقتات بألم الحرمان ، وناهيك به من قوت ، حَسْبُ الأولياء أن
يظفروا به ! وفي هذه الدعوة إلى الألم نجد عنصراً ممتازاً أدخلته رابعة العدوية
في الروحية الإسلامية .

- ١٢ -

وتابعت رابعة حملتها على الأخرويات بالصورة الحسية المفهومة عند سائر
الناس ، وغدّى هذا كله نموّ معنى المحبة والرحمة بحيث تشمل الناس أجمعين . فلم
يعد يعنينا خلاصها وحدها بقدر ما يعنينا خلاص الآخرين معها . ولنا في هذا
الباب قصة رواها الأفلاكي في « مناقب العارفين » (بالفارسية) هالك ترجمتها :
« ذات يوم رأى جماعة من الأصحاب رابعة وفي إحدى يديها نار ، وفي الأخرى
ماء وهي تعدو مُشرعة — فسألوها : أيتها السيدة ! إلى أين أنت ذاهبة ؟ وماذا
تبتغين ؟ فقالت : أنا ذاهبة إلى السماء كي ألقى بالنار في الجنة وأصب الماء على الجحيم
فلا تبقى هذه ولا تلك ، ويظهر المقصود ، فينظر العباد إلى الله دون رجاء ومن
غير خوف ، ويمبدونه على هذا النحو : (بلا مطمع في جزاء أو خوف من عقاب)
— ذلك أنه لو لم يكن ثمت رجاء في الجنة وخوف من الجحيم ، أفكانوا يعبدون
الحق ويطيعونه ؟ »^(٢)

(١) المطالع : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، ص ٦٩ و ٧٠ ، نشرة نيكلسون .

(٢) الأفلاكي : « مناقب العارفين » ، مخطوط باريس ، قسم فارسي قديم ، رقم ١١٤

ففي هذه الحكاية — التي لا نعلم مبلغها من الصحة ، والتي فيها ما فيها من التزييق بحيث تذكرنا بقصة مصباح ذيوجانس ، أتراها صيغت على غرارها؟ — نقول إن في هذه الحكاية ما يدل على أن رابعة قد أرادت أن تخلص الناس نهائياً من فكرة الجنة والنار ، لأنها رأت فيها مصدراً لإفساد المعنى الحقيقي للعبادة . إذ العبادة الحققة هي تلك التي تقام لوجه الله غير طالبة جزاءً ولا شكوراً ؛ هي تلك التي لا تكون على حرف ، ولا بسبب خوف ، ولا يدخل فيها أى معنى من معانى الترغيب أو الترهيب .

وهي في سبيل هذه الدعوة قد بدأت بنفسها ؛ فهي غير راغبة في الجنة ولا وجلة من النار . ذكر العطار أن رابعة كانت تقول : « إلهى ! إن كنت عبدتك خوف النار فأحرقنى بالنار ، أو طمعاً في الجنة فخرمها على . وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك ، فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك » . وقالت أيضاً وهي لهيفة القلب : « إلهى ! إن ألقيتنى يوم الحساب في النار لأذعت سراً يبعد النار عنى بألف سنة » . وكانت تقول : « إلهى ! كل ما قدرته لى من خير في هذه الدنيا أعطيه لأعدائك ، وكل ما قدرته لى في الجنة امنحه لأصدقائك ، لأنى لا أسعى إلا إليك أنت وحدك » ^(١) . وكل هذه الأقوال تدلنا بوضوح على أن معنى الجنة والنار قد راق عند رابعة بحيث كاد أن يزول ، لأنه لا يتفق مع العبادة الصحيحة ؛ وقولها الثالث الأخير يدل على إيمانها في تجريد المعنى الحسى للأخرويات بالنسبة إلى نفسها .

ثم لما ظهرت نفسها من هذا المعنى راحت تدعو الناس إلى هذا التطهر ، بحيث تصبح العبادة لله وحده من غير طمع في شيء أو خوف من شيء . وهذه الحركة الرمزية التي تعبر عنها القصة التي ذكرها الأفلاكي إنما قصد بها إلى إيضاح معنى دعوتها بطريقة عينية بارزة . إذ رأت أن الناس إنما يعبدون الله رجاء دخول الجنة

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ص ٧٢ و ٧٣ .

أو مخافة النار، فهل معنى هذا أنه إذا لم يكن ثمت جنة ولا نار لن يعبدوا الله؟ هذا سؤال ألفت به رابعة على جماعة من الصالحين ذكروا لها أنهم يعبدون الله خوف النار وطمعاً في الجنة. وهناك سألوها: « وأنتِ، لماذا تعبدن الله؟ — فأجابت: إنما أعبده لذاته. أفلا يكفيني نعمة منه أنه يأمرني بعبادته؟ »^(١) إنها ترى إذن في مجرد أمر الله بعبادته نعمة سائفة كافية بحيث لا يرجو المرء بعدها أمراً.

على أن المقصود الأبعد في ذهن رابعة هو أن تسمو بالحياة الدينية في الإسلام ببأن تزيل ما في القرآن من معان حسية وتحيلها إلى معان روحية خالصة، فلها الفضل الأكبر في بدء هذه الحركة التي ستبلغ أوجها عند أبي يزيد البسطامي^(٢). ومن هنا يظهر دورها البارز في الحياة الروحية في الإسلام عامة.

— ١٣ —

وقد نسب المؤرخون إلى رابعة جملة من الكرامات. وقد رأينا كيف حاول العطار منذ البداية أن يحيط رابعة بالكرامات منذ ميلادها؛ وهو كذلك قد حرص على أن يملأ ترجمته الخيالية لرابعة بألوان من الكرامات لاحصرها: فخارها ينفق في الصحراء وهي بسبيل الحج، فتدعو الله، فينهض الحمار مليئاً بالحياة! وهي تعلم الغيب كما يظهر من القصة التي رواها عن أرغفة الخبز التي أرسلت بها إليها سيدة مع خادمها! واللصوص لا يستطيعون السرقة منها، وكان الله يحرس كل مالها؛ وإن لها معهم تقصصاً عديدة، ذكر بعضها العطار، وذكر غيرها آخرون مثل تلك التي وردت في المخطوط رقم ١٢٤٢ (عربي الفاتيكان) ورقه ٨٣ من أن لصاً دخل بيتها فلم يجد غير إبريق فلما تم بالخروج قالت له

(١) العطار: « تذكرة الأولياء »، ص ٩٦.

(٢) راجع بحثنا بعنوان: « شطحات الصوفية » ففيه تفصيل القول في مذهب أبي يزيد

البسطامي في هذه الناحية: ١٦ ص ٢٤ — ص ٢٥. القاهرة سنة ١٩٤٩.

رابعة : يا هذا ! إن كنت من الشطار فلا تخرج بغير شيء . فقال : إني لم أجد شيئاً . فقالت : يا مسكين ! توضع بهذا الإبريق وادخل في هذا المخدع ، وصل ركعتين ، فإنك ما تخرج إلا بشيء . ففعل ما أمرته . فلما قام يصلى رفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت : سيدي ومولاي ! هذا قد آتى بابي ولم يجد شيئاً عندي ، وقد أوقفته ببابك ، فلا تحرمه من فضلك وثوابك !

« فلما فرغ من صلاة الركعتين ، لذت له العبادة ، فما برح يصلى إلى آخر الليل . فلما كان وقت السحر ، دخلت إليه رابعة فوجدته ساجداً وهو يقول في سجوده معاتباً نفسه - شعراً - :

إذا ما قال لي ربي : أما استحييت تعصيني ؟
وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيني ؟
فما قولي له لما يعاتبني ويقصيني ؟ !

« فقالت له : حبيبي ! كيف كانت ليلتك ؟ فقال : بخير ! وقفت بين يدي مولاي بذلي وافتقاري ، فقبل عذري وجبر كسري ، وغفر لي الذنوب ، وبأنى المطلوب .

« ثم خرج هاتماً على وجهه . فرفعت رابعة كفها إلى السماء ، وقالت : سيدي ومولاي ! هذا وقف ببابك ساعة فقبلته ؛ وأنا مذ عرفتك بين يديك . أتراك قبلتني ؟ فنوديت في سرها : يا رابعة ! من أجلك قبلناه ، وبسببك قرّبناه (١) .

وفي هذه الحكاية نرى الأسطورة الشعبية تصور رابعة صاحبة كرامات مع اللصوص بحيث تهديهم إلى الإيمان ، كما تصور درجاتها عند الله في الشفاعة والقرب . وهي من نوع ما نراه كثيراً في ترجمات الأولياء والقديسين الخيالية ، كما هي الحال عند القديس فرنسيسكو الأسيزي مثلاً .

(١) مجموعة رسائل وتعليقات وتقييدات برقم ١٢٤٢ فاتيكان عربي ورقة ١٨٣ .

وإن الشبه القريب كل القرب في هذا الباب بين القديس فرنسيسكو الأسيزي
وموسى صاحبنا رابعة . فالحيوان والطيور يألفها ، بحيث كانت الغزلان — وهى النّفور
من الإنسان — تقبل عليها وتتعلق حولها وتمسح فيها . والقطار يروى لنا هذه
القصة ، وهى أن « رابعة صعدت جبلا ، فأقبل من حولها كل ما كان هناك من
غزلان ، وبقيت حوالها آمنة كل الأمان . ونجاة أقبل الحسن البصرى ففرت
الغزلان ، فقلن لها : يا رابعة لماذا فرت كل الغزلان منى ولم تفر منى أنت ؟
فسألت : ماذا أكلت اليوم يا حسن ؟ فأجاب : أكلت طعاما طهى بالزيت .
فقال لمرابعة : يا من تأكل من دهنها ، كيف لا تريد منها أن تفر منك ؟ » (١)
ومنها ترى السبب فى تألف الحيوان لمرابعة وهو أنها كانت لا تأكل من لحمه
أو ما يخرج منه . ولولا أن هذه القصة أسطورة كلها ، لاستخلصنا منها ما يتصل
بحياة رابعة من الزهد بحيث حرمت على نفسها أكل الحيوان وما يخرج منه .
وعلى كل حال ، فلمهم فى هذا أن القطار لم يذكر صلاحها بالحيوان دون أن
يبرر عقليا السر فى هذه الألفة فيما بينها وبينه ، والتفسير لا يخلو من البراعة ولا نجد
مثله فى ترجمات القديس فرنسيسكو الأسيزي .

وأكثر الكرامات التى يروىها القطار لمرابعة قد جرت مع الحسن البصرى ،
مما يؤكّد جانب الخيال والاختراع إلى أبعد حد فيها : فهو يذكر كذلك أن الحسن
وبعض أصحابه ذهبوا إلى رابعة وكان الوقت ليلا فاحتاجوا إلى مصباح فلم يجدوا ؛
فوضعت رابعة طرف أصابعها فى فها ثم أخرجتها فظل يشع منها حتى مطلع الفجر
نورا كأنه نور مصباح . والقطار يفسر هذا أيضاً فيقول : « إن سأل أحد
كيف حدثت هذه الكرامة ، فأخبره أن النور كان يشع من يد موسى . فإن
قيل لك إن موسى عليه السلام كان نبيا وأن رابعة لم تكن نبية ؛ فأجبه قائلا :

(١) « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ص ٦٥ ، نشرة نيكسون .

إن من بغذا الأوامر التي آتى بها الأنبياء بشارك في قدرتهم على الإتيان بالمعجزات؛
وكما أن للأنبياء معجزات ، فإن للأولياء كرامات»^(١) . وهو يذكر قصة أخرى
مع الحسن وهي أنو ذهب إليها وكانت قد وضعت قدراً فيه لحم ، فلما بدأ الحديث
عن معرفة الله ، رأت أن هذا الحديث أفضل من الطهي ، فتركت القدر دون أن
تنفخ تحته النار . فلما فرغ من صلاة العشاء « أفرغت ما في القدر فوجد أن اللحم
الذي كان فيه قد طهى بقدره الله . فأكلنا (الحسن وهي) من هذا الطعام ، وكان
له طعم لم تتذوق مثله قط من قبل »^(٢) . ثم ها يقومان بالمعجزات أو الكرامات
معاً : فهو يلتقي على الماء سجاده ويصلي عليها ، وهي تلقى سجادتها في الهواء وتصعد
عليها . على أن القصة تنتهى بعبارة عالية ؛ فالحسن لا يستطيع أن ينافسها في هذه
الكرامة لأنه لا يستطيع الطيران في الهواء ، فابتأس ، فمرته رابعة قائلة :
« ما فعلته يستطيع السمك أن يفعله ، وما فعلت أنا يستطيع الذباب أن يفعله .
وإنما المهم أن نبلغ درجة أعلى من هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما »^(٣) . وفي هذا
القول إشارة إلى أن المهم عند الصوفى ليس هو الإتيان بالكرامات ، بل الترقى
في معراج الحياة الروحية ؛ وقيمة الصوفى ليست في عدد كراماته ونوعها ، بل في
السلوك إلى الله بحيث يرضى عنه ويحظى بالقبول منه .

وكل هذه الكرامات هي من الأنواع المشهورة المألوفة في الترجمات الخيالية
للسوفية والقديسين ، والعملية التي أنتجتها عملية واحدة .

ولم نسقها هاهنا إيماناً منا بأن هذه الكرامات قد وقعت ، فهيات هيات
أن يخطر هذا ببالننا ! إذ نحن ننكر الكرامات والخوارق أياً كان مصدرها .
إنما هي تقدم لنا الأسطورة الشعبية التي حيك حول الشخصية التي تنسب إليها

(١) فريدالدين الطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، ص ٦٥ ، ثمرة نيكاسون .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١ ص ٧٢ ،

(٣) المرجع نفسه ، ج ١ ص ٦٥ .

هذه الكرامات أو تلك الخوارق . وقيمتها إذن ليست في صدقتها من حيث الواقع والتاريخ ، فإنها جميعاً خلو من هذا الصدق ، وإنما في بيان تطور الصورة التي يتصورها الضمير الشعبي أو الأسطوري لأولئك النفر من الناس .

ونحن نرى فيما يتصل برابعة أن هذه الأسطورة لم تنشأ إبان حياتها ، وإنما نشأت متأخرة بعد هذا بقرنين على أقل تقدير . ونشأت أول ما نشأت مرتبطة بأسطورة الحسن البصرى التي كانت قد بدأت تتكون قبل ذلك بعهد غير طويل . واشتبكت الأسطورتان معاً في أمثال هذه الحكايات التي أورد أغلبها فریدالدين العطار وهو أكثر المؤرخين الصوفية حرصاً على تصيد النوادر والخوارق والغرائب . ولا نحسبنا مبالغين إذا قلنا إنه كان للعطار نفسه نصيب ما في تكوين هذه الأسطورة باختراع البعض من هذه الحكايات المتصلة بالكرامات ، أو في القليل مما زيف البعض مما كان متناقلاً بين الناس ، ووشى من الأحاديث ما شاء له خياله البعيد النور . والذي يحملنا على عدم تحميله نصيباً أكبر في الاختراع أن المخطوطات العربية تكشف لنا شيئاً فشيئاً عن الأصول العربية للكثير مما أتى به من حكايات كنا لا نجد لها في غيره من المصادر العربية فيخيل إلينا أنه الذي ابتدعها . لهذا يجب ألا نحكم عليه في هذا الباب إلا بكثير من الحيطة والأناة .

وهذه الأسطورة لا تزال ترن أصدائها في الخيال الشعبي بكل قوتها ، وذلك في العبادة التي تقام حول قبرها .

وهذا يقودنا إلى الحديث عن قبرها ، هذا المختف في مظنة وجوده أشد الاختلاف .

فقوم قالوا إن قبرها بظاهر القدس الشريف على رأس طور فويتا ، وهو قرية

الطور إلى شرق القدس . فأبو محمود بن إبراهيم بن سرور المقدسى (المتوفى سنة ٥٧٦٥ هـ) يقول فى كتابه « مثير الغرام » : « قد مات (أى رابعة) بيت المقدس وماتت به ؛ وقبرها بظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا . وهو ظاهر يزار . وكانت وفاة رابعة سنة خمس وثلاثين ومائة^(١) . وعنه أخذ شمس الدين السيوطى (المتوفى سنة ٨٧٥ هـ) فى كتابه : « إتحاف الأخصاف فى فضائل المسجد الأقصى »^(٢) .
ويزيدنا بحجر الدين الحنبلى تفصيلا فيقول فى كتابه : « الأنس الجليل »^(٣) — وهو يذكر الأعيان والزهاد الذين دخلوا بيت المقدس ، وهو قد ألف كتابه سنة ٩٠١ هـ واعتمد فيه على « مثير الغرام » — « إن قبر رابعة بنت اسماعيل أم الخير العدوية البصرية على رأس جبل طور زيتا شرقى بيت المقدس بجوار مصعد عيسى عليه السلام ، من جهة القبلة ؛ وهو فى زاوية ينزل إليها من درج . وهو مكان مانوس يقصد للزيارة » .

كذلك نرى ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » يقول : « وقبرها يزار ، وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور »^(٤) . وفى إثار ابن شاكر الكتبى يقول : « وكانت وفاتها على قول ابن الجوزى فى هذه السنة (أى سنة ١٣٠ هـ) . وقال غيره سنة خمسة وثمانين (أى ومائة) . وهى مدفونة بظاهر القدس على رأس جبل ؛ وقبرها يزار ؛ رضى الله عنها »^(٥) .

وفريق ثان ترجح بين التأييد والإنكار فيما يتصل بكون هذا قبر رابعة

(١) إبراهيم بن سرور المقدسى : « مثير الغرام » ، ص ٤٩ طبع اقدس سنة ١٩٤٦ .

(٢) مخطوط و المكتبة الخالدية بالقدس . وقد تفضل الأستاذ أحمد سامح الخالدى بهذه البيانات فله منا أجزل الشكر .

(٣) ج ١ ، ص ٢٨٥٠ .

(٤) ج ١ ، ص ٣٥٦ ، القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ = سنة ١٨٥٨ م .

(٥) صلاح الدين محمد بن شاكر الكتبى : « عيون التواريخ » ، ورقة ٧ ب — ١٨ ،

مخطوط رقم ٤٤ تاريخ بالظاهرة بدمشق — أخبار سنة ١٣٥ هـ .

العدوية صاحبنا . ومنه ابن العباد في « شذرات الذهب » ، إذ قال : « وقبرها (أى رابعة) على رأس جبل يسمى الطور بظاهر بيت المقدس . وقيل ذلك قبر رابعة أخرى غير العدوية »^(١) . وكذلك عبد الرؤوف المناوى قال في ترجمته لرابعة بنت إسماعيل العدوية زوج أحمد بن أبي الحواري : « ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة . ودفنت برأس زيتا بيت المقدس . وقيل المدفونة هناك إنما هي الأولى (أى رابعة العدوية البصرية) »^(٢) . ومن الواضح أن المناوى نقل هذا الخبر عن مؤرخ تحدث عن رابعة العدوية البصرية ، وتسببه إلى رابعة الشامية ، والدليل هو أنه جعل وفاة رابعة الشامية سنة خمس وثلاثين ومائة مع أنه يقول إنها زوج أحمد بن أبي الحواري ، وهذا توفي سنة ٥٢٣٠ هـ فكيف تكون زوجته إذن إذا كانت ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة!! فالخلط إذن في رواية المناوى هنا ظاهر فاضح . وفريق ثالث أنكر أن يكون ذلك قبر رابعة العدوية . فابن بطوطة في رحلته يقول عن القدس ومزاراته : « ومنها قبر رابعة البدوية منسوبة إلى البادية ، وهي خلاف رابعة العدوية الشهيبة »^(٣) . وكذلك الهروي في كتاب « الزيارات »^(٤) قال عن هذا القبر الموجود بظاهر بيت المقدس إن القبر لرابعة البدوية ، وهي امرأة أحمد بن أبي الحواري .

وإذا اتخذنا الصمت حجة وجدنا الواسطي الذي ألف كتابه « فضائل البيت المقدس » سنة ٤٩٠ هـ لا يذكر أن قبر رابعة بطور زيتا .

على أن الذي فصل في المسألة بصورة قاطعة هو ياقوت في « معجم البلدان » تحت لفظ « المقدس » فقال ، وهو يتحدث عن ابن طاهر بن علي بن أحمد الحافظ المعروف بابن القيسراني : ومات ابن طاهر ودفن عند القبر الذي على جبلها

(١) ج ١ ص ١٩٣ ، القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ = سنة ١٩٣١ م .

(٢) « طبقات الأولياء » ، مخطوط الظاهرية بدمشق ، ورقة ١٠٦ به - ١١٠٧ .

(٣) ج ١ ، ص ١٢٤ ، س ٣ . (٤) ص ٤٠٠ .

(جبل القدس)، يقال له قبر رابعة العدوية، وليس هو بقبرها، وإنما قبرها بالبصرة. وأما القبر الذى هناك فهو قبر رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري الكاتب، وقد اشتبه على الناس «^(١)». وهذا أوضح بيان لهذه المشكلة، وفيه القول الفصل.

ذلك أننا لا نعلم أن رابعة العدوية قد رحلت إلى الشام حتى تموت هناك.

فكيف يوجد قبرها إذن في ظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا؟!

وإذن فالقبر الموجود بظاهر القدس على رأس طور زيتا إنما هو قبر رابعة الشامية سميتها المشهورة، أى رابعة زوج أحمد بن أبي الحواري كما بينا من قبل. واختلط الأمر على الناس هذه المرة كما اختلط عليهم في أكثر المواضع بين هاتين الصوفيتين. وشهرة رابعة العدوية البصرية قد أنست الناس رابعة الشامية فنسبوا القبر الخاص بهذه إلى الأولى.

على أن ثمة مسألة أخرى هي مسألة قبر ينسب إلى رابعة العدوية في دمشق.

وقد زرته في ١٧/١٢/١٩٤٧ فوجدته بداخل بيت تحتله الآن شعبة الإخوان المسلمين في منطقته. وقد كشفنا عن القبر فلم نجد عليه شاهداً. ويسكن إلى جواره شيخ جاوز الثمانين هو الشيخ عبد القادر القضاى وقد سألته عما يعرف من أحوال هذا القبر فأجاب بأنه يقيم إلى جواره منذ أكثر من خمسين سنة، وأنه قاوم كل إغراء له بمغادرة هذا المكان لسكنى الحى الجديد، حى المهاجرين، لأنه عرف من كرامات صاحبة القبر ما جعله يتبرك به. وهو يؤكد «(رأينا هذا بأعيننا، ولسنا بأيدينا » - هكذا بدأ حديثه بلهجة ملؤها الإيمان والسذاجة) أن لهذا القبر فوائد مجربة: من بينها أنه لم تحدث قط سرقة في هذا الشارع، طوال الخمسين سنة التي أقام فيها إلى جوار هذا القبر؛ وأنه لم يصب منه بيت بالقتال التي انتهت على هذا الحى من دمشق إبان ثورة سنة ١٩٢٥

(١) ياقوت « معجم البلدان »، تحت لفظ « المقدس »، ج ٤، ص ٦٠١، نشرة فشتغلد.

على الرغم من أن بيوت الشوارع المجاورة قد أصيبت كلها من قنابل الفرنسيين هذه ؛ وأن الذى يزور القبر ليلة السبت مرتين متواليتين تقضى الحاجة التى من أجلها قام بهذه الزيارة . ولا يزال كثير من النسوة والشيوخ يرون بالقبر فيتلبثون قليلا وينظرون من نافذته ذات القضبان المربعة ، يقرأون الفاتحة على روح صاحبتة ويطلبون البركة . وبالجملة فهو لا يزال عامراً بالحاجين إليه للتبرك ؛ ولا تزال ذكرى رابعة العدوية حية فى نفوس أهل دمشق والشام عامة .

والقبر عبارة عن مستطيل من البناء المصنوع من الحجر يبلغ طوله قرابة مترين فى عرض نيف ومتر ويقع على أرض تعلو بعض العلو عن أرض الغرفة الواسعة التى تحتلها الشعبة ؛ وهو فى غرفة خاصة على يمين الداخل . ومن فوق القبر قبو خشبي نصفه السفلى مستطيل ونصفه العلوى هرمى ، وقد كسى بالحمل . والدار الموجود بها الشعبة والقبر يلوح أنها ليست قديمة ، إذ هى مكونة من بعض الأحجار القديمة فى أصلها السفلى ، وفوق الباب كتابة تشير إلى منشئ الدار ، ولكن دون ذكر التاريخ .

ترى لمن يكون هذا القبر ؟ ولماذا نسب إلى رابعة العدوية ؟

مسألة لا يمكن القطع فيها ؛ وكل ما يمكن افتراضه هو أن يكون قد عُمل لرابعة الشامية — وأصلها من دمشق — قبر فى هذا المكان ؛ وعلى توالى الزمان نسى اسمها الحقيقي ، واستبدل به اسم رابعة المشهورة ، رابعة العدوية كما حدث بالنسبة إلى القبر الموجود بطورزيتنا بظاهر القدس . أما كيف نفسر وجودهذين القبرين لشخص واحد ، فيمكن أن يقال إن رابعة الشامية قد توفيت بالقدس فدفنت هناك ؛ ولكن لما كان بلدها الأصلي الذى حيت فيه طوال عمرها هو دمشق ، فقد أقيم لها قبر رمزى فى دمشق كذلك ، لعله هو الموجود اليوم . على أن هذا فرض نجسب ، وإن كان ثمت شواهد على وجود قبرين وأكثر لشخص

واحد . ففي دمياط قبر لشيخ يدعى إبراهيم الشرباصى ، وفي بلدنا ، شر باص ، (على نهر النيل على مسافة ٢٢ كيلومتراً جنوبي دمياط) قبر للشيخ نفسه ؛ وأهل بلدنا يعتقدون أن القبر الحقيقي هو الموجود في شر باص ، أما القبر الموجود في دمياط فلا يحوى غير يده التي قطعت وهو يحارب الصليبيين في حملة لويس التاسع . وإذن فظاهرة وجود قبرين في مكانين مختلفين لشخص واحد من الظواهر المشاهدة كثيراً بالنسبة إلى الأولياء المسلمين .

وهناك خبر أورده العطار لو كان قد ذقق فيه لكفانا مؤونة الكثير من هذا البحث . ذلك أنه يقول إن محمد بن أسلم الطوسى ونعمى الطرطوسى زارا قبر رابعة فقالا : « يارابعة ! لقد افتخرت بأنك لم تحنى رأسك للدينا ولا للآخرة ، فأين أنت الآن ؟ » فصاح صوت من قبرها يقول : « طوبى لى ! ما فعلته هو ما كان على أن أفعله ، والطريق الذى اكتشفته هو السبيل السوى » ^(١) . ومحمد ابن أسلم الطوسى ، الصوفى المشهور ، والمحدث الذى روى أحاديثه أبو نعيم فى « الحلية » ^(٢) ، قد توفى سنة ست وعشرين ومائتين . وليس لدينا ويا للأسف من التفاصيل عن حياته ما يسمح بمعرفة رحلاته ، على أن زيارته للبصرة أرجح من زيارته للقدس لقرب الأولى وبعد الثانية . وعلى كل حال فالخبر ليس بذى قيمة كبيرة ، لأنه يقوم على أخبار بعيدة عن المعقول وذلك فى ذكره أن صوتاً صاح من القبر يرد عليهما ! !

وإخلاصة أن رابعة توفيت فى البصرة ، وأنه لا بد أن يكون لها قبر هناك هو الذى زاره أو أمكن أن يزوره محمد بن أسلم الطوسى ونعمى الطرطوسى — إن صح الخبر الذى أورده العطار فى جملته ، لا فى تفصيله طبعاً ! — ولعل القبر تهتم فى

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، ص ٧٣ ، ثمرة نيكسون .

(٢) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ، ج ٩ ص ٢٣٨ — ٢٥٣ ، طبع مصر سنة ١٩٣٨ ؛

وراجع عنه أيضاً « طبقات الشعرانى » ، ج ١ ، ص ٨٣ .

أحد التخريبات التي أصابت البصرة فدمرتها عن آخرها أو كادت .

بقي علينا أن نعرض لمسألة تاريخ وفاة رابعة . وهنا الأمر يختلط
سمة أخرى .

فهناك رواية يلوح أن ابن الجوزى صاحبها تقول إن وفاتها كانت في سنة
خمس وثلاثين ومائة (= ٧٥٢م). فقد ذكر ابن خلكان^(١) أن ابن الجوزى ذكر
هذا التاريخ في كتابه «شذور العقود» . على أن ابن الجوزى في «صفة الصفوة»
لم يذكر لها تاريخ وفاة . ومن ذكر هذا التاريخ ابن تغرى بردى في «النجوم
الزاهرة»^(٢) ، والمرضى الزبيدي في «إتحاف السادة»^(٣) ، وابن شاكر الكتبي
في «عيون التواريخ»^(٤) ، وابن العماد في «الشذرات»^(٥) .

ورواية ثانية تقول إن تاريخ وفاتها سنة ثمانين ومائة ؛ وصاحبها الذهبي .
قال ابن تغرى بردى في كلامه عن سنة ثمانين ومائة: «الذين ذكر الذهبي وفاتهم
في هذه السنة : قال : وفيها توفى ... ورابعة العدوية. قلت : وقد تقدمت وفاتها
في قول غير الذهبي»^(٦) . ومن الذين تابعوا الذهبي على هذا التاريخ عبد الرؤوف
المنأوى في «طبقات الصوفية»^(٧) فقال : «ماتت سنة ثمانين ومائة ؛ وقيل
غير ذلك» .

(١) ابن خلكان : «وفيات الأعيان» ج ١ ، ص ٢٥٦ الفاهرة سنة ١٢٧٥ .

(٢) ج ١ ، ص ٣٣٠ ، س ٩ في كلامه عن سنة ١٣٥ هـ .

(٣) المرضي الزبيدي : «إتحاف السادة» ، ج ٩ ، ص ٥٧٦ و ٦٨١ .

(٤) ج ٣ ورقة ٧ ب عن سنة ١٣٥ ، ويذكر أن هذا قول ابن الجوزى ، مخطوط

الظاهرية برقم ٤٤ تاريخ .

(٥) ابن العماد : «شذرات الذهب» ، ج ١ ص ١٩٣ عن سنة ١٣٥ .

(٦) ابن تغرى بردى : «النجوم الزاهرة» ، نشرة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩

ج ٢ ، ص ١٠٠ س ٢٣ — ٢٤ .

(٧) مخطوط الظاهرية برقم ٤١٦٤ ورقة ١١٠٦ .

ورواية ثالثة تقول إنها توفيت سنة خمس وثمانين ومائة ؛ ذكر ذلك ابن خلكان^(١) وابن شاكر الكتبي^(٢) .

فأى هذه الروايات الثلاث نختار ؟

يرى الأستاذ ماسينيون أن الرواية الثالثة هي أصح الروايات (وكذلك يمكن الأخذ بالثانية) ؛ وأن جعل تاريخ وفاتها سنة ١٣٥ إنما قصد به إلى جعلها تلميذة الحسن البصرى (ولد سنة ٢١ هـ = ٦٤٢ م ، وتوفى في غرة رجب سنة ١١٠ هـ = ١٠ أكتوبر سنة ٧٢٨ م) . ونضيف إلى هذا أنه قد قصد بذكر هذا التاريخ المتقدم تبرير الحكايات التي رويت بينهما : فكيف كان يمكن التقاؤهما لو كانت رابعة توفيت سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ بينما هو توفى سنة ١١٠ هـ ؟ خصوصاً إذا لاحظنا أن هذه الروايات تتحدث عن مكانة رابعة ورسوخ قدمها في الطريق إلى درجة أعلى من الحسن ، كما شاهدنا في روايات العطار .

والأستاذ ماسينيون يبرهن على اختياره لتاريخ سنة ١٨٥ بدلا من ١٣٥ بالبراهين التالية : أولا صداقتها المشهورة لأبي المهاجر رياح بن عمرو القيسى ، وهو قد توفى حوالى سنة ١٨٠ ، بل حوالى ١٩٥ هـ^(٣) (= سنة ٨١٠ م) ؟ فلو كانت رابعة توفيت سنة ١٣٥ هـ لما صح اجتماعها برياح بن عمرو القيسى . وثانياً إلتقاؤها بسفيان الثوري الذى أتى البصرة بعد سنة ١٥٥ هـ . وثالثاً حكاية خطبة الوالى العباسى للبصرة ، محمد بن سليمان الهاشمى ، لها ، وهو قد كان والياً على البصرة سنة ١٤٥ هـ

(١) ابن خلكان : « وفيات الأعيان » ج ١ ، ص ٢٥٦ القاهرة سنة ١٢٧٥ .

(٢) ج ١ ، ص ٣٣٠ ، س ٩ في كلامه عن سنة ١٣٥ هـ .

(٣) ذكر ماسينيون التاريخ التالي : حوالى ١٨٠ هـ في « بحث في أصول المصطلح » [ص ١٩٣

تعليق ٣ ، ص ١٩٥] ولكنه عدل عنه في كتابه « مجموعة نصوص غير منشورة » [باريس

سنة ١٩٢٩ ، ص ٦] فذكر التاريخ الآخر وهو : حوالى سنة ١٩٥ .

وتوفى سنة ١٧٠ هـ^(١) ونضيف نحن إلى هذا أيضاً صلّتها الوثيقة بعبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ هـ (= ٧٦٣ م) .

وهذه الحجج حجج حاسمة ، ولا شك في أن التاريخ : ١٣٥ هـ إنما قصد به إلى تمكين لقائها بالحسن البصرى حتى يتم الإسناد وتصح الروايات التى تتحدث عن اجتماعهما . لكن موضع الصعوبة بعد هى فى الاختيار بين سنة ١٨٠ وسنة ١٨٥ لأن هذه الحجج إنما تتعلق باستبعاد سنة ١٣٥ هـ . بيد أننا لا نستطيع ، بحسب ما لدينا من وثائق حتى الآن ، أن نفصل بين هذين التاريخين .
وإذن فإمّا توفيت إما سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ (= سنة ٨٠١ م) .

(١) راجع ماسينيون : « بحث فى أصول المصطلح الفنى للتصوف الإسلامى » ، ص ٦٩٣ تحقيق ٥ ؟ باريس سنة ١٩٢٢ .

أخبار رابعة

نصوص منشورة وغير منشورة

تصدير

ها نحن أولاء نورد فيما يلي طائفة من الأخبار والأقوال التي خالفها لنا المؤرخون والكتاب عن رابعة العدوية ، سعينا من ورائها إلى أن نضع بين أيدي الناس الآثار الباقية من هذه الصوفية ، لتكون بمثابة شواهد للتحليل الذي قمنا به ، ومواد لغيرنا ممن يريدون استئناف البحث في حياتها ونظرتها الروحية ، فنوفر عليهم مؤونة مجهودات شاقة بذلناها في التنقيب عن مخلفاتها النادرة ، وعسى أن تكون في هذا أسوة للعاملين في ميدان الفكر العربي والإسلامي ، فيضم كل باحث ما عثر عليه من آثار نادرة عن الشخصية أو المذهب الذي هو بصدد البحث فيه ، ولعل لهذا في بعض الأحيان من العائدة ما يفوق عمل التحليل نفسه .

ولسنا نزعم في شيء أننا أتينا على كل ما بقي لدينا حتى اليوم من آثار رابعة . فهيات ! هيات ! فالنصوص غير المنشورة لا تزال تعدنا بالكثير الذي قد يفوق كل ما حصلناه حتى اليوم بعدد المرات . والنصوص المنشورة لم نورد منها إلا كل ما وقع بين أيدينا ، برغم كل ما بذلناه من جهد في هذا السبيل . وقد أغفلنا منها تلك التي لا تورد أشياء جديدة ، بل أخباراً تكاد تتكرر بعينها في أكثر من نص مما أوردناه ، مثل ابن خلكان (ح ١ ، طبع القاهرة سنة ١٢٧٥ ، ص ٢٥٦ — ص ٢٥٧) و « طبقات » الشعرائي (ح ٨ ، ص ٨٦ ، القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ) ومحمد بن علي الأسنوي (المتوفى سنة ٧١٥ هـ = ١٣٦٣ م) مؤلف « حياة القلوب » (بهامش « قوت القلوب » ، لأبي طالب المكي ، القاهرة سنة ١٣١٠) ومثل كتب التاريخ العامة . كذلك لم نورد ما ورد أكثر تفصيلاً ودقة في المصادر الأخرى التي نقلت عنها هذه الأخبار المتأخرة .

الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ = سنة ٨٦٩ م) ، « البيان والتبيين » :

(١) > ٣ ، ص ٨٥ ، القاهرة سنة ١٣٣٢ :

« الثورى عن حبيب بن أبى ثابت . . قال : وقيل لرابعة القيسية : هل عملت عملاقاً ترين أنه يقبل منك ؟ قالت : إن كان شياً ، نخوفى من أن يُردَّ على »
(ب) > ٣ ، ص ١٢٢ ، نشرة السندوبى : فى باب « نساك البصرة وزهادها » :
« عامر بن عبد قيس ، وُجَّالة بن عبدة العنبريان ؛ وعثمان بن آدم ؛ والأسود ابن كلثوم ؛ وصلة بن أشيم ؛ ومذعور بن الطفيل ؛ ومن بنى منقر : جعفر وحرب ابنا جرفاس . كان الحسن يقول : إني لا أرى كالجعفرين جعفرا ، يعنى جعفر بن جرفاس وجعفر بن زيد العبدى .

ومن النساء : معاذة العدوية ، امرأة صلة بن أشيم ؛ ورابعة القيسية

(ح) الجاحظ : « الحيوان » ، > ١٠ ص ٧٨ (طبع مصر سنة ١٩٠٧) :

« فإن تهيأ مع ذلك من هذا المتعشق أن تدمع عينه ، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورع أم الدرداء ، ومعاذة العدوية ، ورابعة القيسية ، والشجا الخارجية » .

السراج (المتوفى سنة ٣٧٨ هـ = سنة ٩٨٨ م) ، « اللمع » ، نشرة

نيكلسون ، ص ٣٢٢ :

ذكرها فى « باب فى الأدلة على إثبات الكرامات للأولياء » ، حيث أوردتها

من بين جملة أشخاص منهم محمد بن واسع وعبد الواحد بن زيد وأيوب السختياني .

الكلاباذى (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م) : « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، نشرة آر برى ، القاهرة سنة ١٩٣٣ :

(١) « قولهم فى الرضا » ، ص ٧٣ :

« ... قال سفيان (الثورى) عند رابعة : اللهم ارض عَنِّي ! فقالت له : أما تستحي أن تطلب رضا من لست عنه براض ؟ ! »

(ب) « لطائف الحق بهم فى غيرته عليهم » ، ص ١٢١ :

« دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى ، فقالوا : ما حالك ؟ قالت : والله ما أعرف لعاتى سببا : عرَضْتُ على الجَنَّةِ فقلتُ بقلبي إليها ؛ فأحسبُ أن مولاي غار على ، فعاتبنى ، فله العُتْبَى (١) » .

الهجویری : « كشف المحجوب » ، (ترجمة نيكلسون الإنجليزية ، ليدن سنة ١٩١١ ، ص ٣٥٨) : « ولقد قرأت أن رجلا من أهل الدنيا قال لرابعة : سليني حاجتك . فقالت : إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ ! » (٢) .

أبو سعيد بن أبى الخير فى « أسرار التوحيد » للمنور (المتوفى سنة ٦٠٠ هـ = سنة ١٢٠٣ م) ، بطرد غراد سنة ١٨٩٩ ، ص ٣٤٥ : قال أبو سعيد بن أبى الخير

(١) العتبى = الرضا .

(٢) راجع هذا القول فى « إتخاف السادة » للزبيدى ، ح ٥ ، ص ٥٧٦ ، كما سيرد بعد

إنه سمع من أبي علي الفقيه أن رابعة سئلت : كيف بلغت هذه المرتبة العالية في الحياة الروحية ، فأجابت : بقولي دائماً : اللهم إني أعوذ بك من كل ما يشغلني عنك ومن كل حائل يحول بيني وبينك .

ماسينيون : مجموع نصوص لم تنشر خاصة بالتصوف الإسلامي :

(1-6) رابعة (vers 195/810) رباح القيسي († 185/801) رابعة

Chez ces deux ascètes, tous deux de l'école de Basra, l'essor de la vie ascétique mène à des états mystiques déjà différenciés, pose des problèmes de casuistique et de dogme délicats . رابعة رابعة .
est la sainte par excellence de l'hagiographie sunnite.

I (متقارب) : (trad.E, 194) — (11,57 . « قوت القلوب » لأبي طالب المكي) .

[عن رابعة]

أحبك حبين : حبّ الهوى	وحباً لأنك أهلٌ لذا كما
فأما الذي هو حب الهوى	فشغلي بذكرك عمّن سوا كما
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك للحب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ، ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذا كما

2. (رابعة . ms. Damas Zah. tas .115, s.v. « الحلية » : أبو نعيم) =
(trad. E, 196) :

[قيل لرباح] : هل طالت بك الليالي والأيام — بم ؟ — بالشوق إلى لقاء

الله . فسكت ... [قالت رابعة] لكني : نعم !

... قال أبو معمر عبد الله بن عمرو — قال : نظرت رابعة إلى رباح وهو

يقبل صبياً من أهله ويضمّه إليه ؛ فقالت : آتجه ؟ قال : نعم ! قالت : ما كنت

أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه . قال : فصرخ رباح وسقط
مغشياً عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق من عند وجهه وهو يقول : رحمة منه تعالى
ذكره ألقاها في قلوب العباد للاطفال . —

3. (id)=(trad. E, 195. n. 3):

قال [رباح] : سمعت مالك بن دينار يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين
حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوى إلى مزابل الكلاب .
(p. 7) 4. خشيش النسائي ap. وملطى « التنبيه » f. 164)=(trad. p. 750)
ومنهم صنف من الروحانية زعموا أن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم
وإرادتهم حتى يكون حبه أغلب الأشياء عليهم . فإذا كان كذلك عندهم وكانوا
عنده بهذه المنزلة وقعت عليهم الخلة من الله ، فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر
والفواحش كلها على وجه الخلة التي بينهم وبين الله ، لا على وجه الحلال ولكن
على وجه الخلة ، كما يحمل للخليل الأخذ من ما خليله بغير إذنه ، منهم رباح
وكليب كانا يقولان بهذه (f. 156) المقالة ويدعوان (في نص ما سينيون :
يدعون) إليها . . .

5. (trad. E 196)=(f. 166) « التنبيه » : ملطى ap. « الاستقامة » ، خشيش):

ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا اشغال للقلوب وتعظيم الدنيا ، ومحبة لها ،
لما عظمت عندهم تركوا طيب طعامها ولذيد شرابها ولين لباسها وطيب رائحتها ،
فأشغلوا قلوبهم بالتعليق بتركها ، وكان من إهانتها موادة الشهوات عند اعتراضها
حتى لا يشتغل القلب بذكرها ويعظم عنده ما ترك منها >
< كانا يقولان بهذه المقالة

(ms. Berlin, f. 37 b ، شكوى ، عين القضاة الهمداني) 6،

(رابعة) . . . وخطبها عبد الواحد بن زيد ، مع علوشانه ؛ فهجرته أياماً

حتى شفع له إليها إخوانه . فلما دخل عليها قالت له : « يا شهوانى ! اطلب شهوانيةً مثلك ! »

7. (05 ، جلاء ، الوسى ap الشذرات ، ابن العماد) (p. 8)

(عن رابعة) « وعزتك ما عبدتُك رغبةً في جَمَّتِكَ ، بل لمحبتك ، وليس هذا (أى الجنة) ما قطعت عمرى في السلوك إليه . »

8. (trad, p. 279) = f. 95, 91 والرذعلى الحريرية , ان تيمية) .

قال (على الحريرى): قيل عن رابعة إنها حَجَّتْ فقالت : هذا [أى البيت] الضمُّ المعبود فى الأرض ، وإنه ما ولجَه اللهُ ولا خلا منه « (١)

9. (مناقب العارفين: وأفلاكى) ms. Paris af. persan 114, f. 411 a)

—(Huart, Saints 310).

روزى جماعتى صاحب دلان دیدند که رابعة بدستى آتش گرفته بود ، و بدستى آب ، و باستعجال مى دوید، سوال کردند که أى بانوى آخرت کجایى روى ، و در چیستى ، گفت مى روم آتش در بهشت زخم و آب دردوزخ ریزم ، تا این هر دو حجاب ره روان از میانه بر خیزند ، و مقصد مُعین شود ، و بندگان خدا خدارابى غرض رجا و علت خوف خدمت کنند ، چه ا کد رجاى جنت و خوف جحیم نبودى ، یکى حق را نپرستیدى ، و مطاوعت نمودى ؟ (٢)

(١) راجع مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - ص ٨٠ - ص ٨١ ، القاهرة

سنة ١٣٤١ = ١٩٢٢ .

(٢) هاك ترجمتها :

فى ذات يوم رأى جماعة من الفتيان رابعة وفى إحدى يديها نار ، وفى الأخرى ماء وكانت تمعدو بسرعة — فسألوها : أيتها السيدة ! إلى أين أنت ذاهبة ؟ وماذا تبغين ؟ فقالت : أنا ذاهبة إلى السماء حتى ألقى بالنار فى الجنة وأصب الماء فى الجحيم — فلا تبقى الواحدة ولا الأخرى ويظهر المقصود ، فينظر العباد إلى الله دون رجا . ولا خوف ، ويعبدونه على هذا النحو — ذلك أنه لو لم يكن ثمت رجا فى الجنة وخوف من الجحيم أفكانوا يعبدون الحق ويطيعونه ؟

10. (وأبو نعيم ، loc. cit. ms Damas Zah tas. 115 s. v.

(E 195, n.2) = (رباح)

— عن رباح — قال (الله تعالى للموحدين يوم الدين) : فهل تعرفون ربكم إذا رأيتموه ؟ قالوا : إن ما عرفنا نفسه . قال : فيتجلى لهم تعالى فيخروون له سُجَّدًا .

11. « قوت » ، أبو طالب المكي (المتوفى سنة ٢٨٦ هـ = ٩١٦ م) ،
(éd. Caire, I, 183) = (p. 45) :

اختلف أهل العلم أيضاً في عبد ترك ذنباً وعمل في الاستقامة ، ونفسه تنازعه إليه وهو يجاهدها ، وفي آخر ترك الذنب وانكش في الإصلاح فلم تكن نفسه تطالبه فلا تنازعه إلى الذنب ولم يكن على قلبه منه ثقل ولا مجاهدة — أي هذين أفضل ؟ فقال بعض علماء الشام (= أحمد بن أبي الخوارى وأصحاب أبي سليمان الداراني) : الذي تنازعه نفسه وهو يجاهدها أفضل . . . وقال علماء البصرة (= رباح بن عمرو القيسي) : الذي سكنت نفسه عن المنازعة بشاهد من شواهد اليقين والطمأنينة . . . أفضل .

عقلاء المجانين لأبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب

النيسابوري (المتوفى سنة ٤٠٦ هـ) ، طبع دمشق سنة ١٩٢٤ .

[١٢٥] : ريحانة

قال إبراهيم بن الأدهم رحمه الله ذِكرتُ لى ريحانة، فخرجت إلى الأُبلة ،
[١٢٦] فإذا أنا بجارية سوداء قد أتر البكاء في خديها خطأ ، فذاكرتها

سَيِّئًا مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ، فَأَنْشَأْتُ تَقُول :

مَنْ كَانَ رَاكِبَ يَوْمٍ لَيْسَ بِأَمْنُهُ
وَلِيْلَهُ تَأْمَهُا فِي عَقَبِ دُنْيَاهِ
فَكَيْفَ يَلْتَذِ عَيْشًا لَا يَطِيبُ لَهُ!
وَكَيْفَ تَعْرِفُ عَيْنٌ^(١) الْغَمُضَ عَيْنَاهِ!

وَأَنْشَدْتُ أَيْضًا :

صَبْرْتُ عَنْ اللِّذَاتِ حَتَّى تَوَلَّتِ
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يُجْعَلُهَا الْفَتَى
فَإِنْ أَطْمَمْتُ تَأَقَّتْ ، وَإِلَّا تَسَلَّتْ

وَلَهَا أَيْضًا :

وَمَا عَاشِقُ الدُّنْيَا بِنَاجٍ مِنَ الرَّدَى
فَكَمْ مَلِكٍ قَدْ صَمَّرَ الْمَوْتَ بَيْتَهُ
وَلَا خَارِجٌ مِنْهَا بِغَيْرِ غَلِيلِ
وَأَخْرَجَ مِنْ ظِلِّ عَلَيْهِ ظَلِيلِ

وَلَهَا أَيْضًا :

حَسْبُ الْحُبِّ مِنَ الْحَبِيبِ بَعْلَمَهُ
وَالْقَلْبُ فِيهِ إِنْ تَنَفَّسَ فِي الدُّجَى
أَنْ الْحُبُّ بِيَابِهِ مَطْرُوحٌ
بِسَهَامِ لُوعَاتِ الْهَسْوَى مَجْرُوحٌ

وَأَنْشَدْتُ أَيْضًا :

بُوجْهِكَ لَا تَعْدُ بَنِي فَايِ
مَنْجِدَةٍ مَزْخَرَفَةِ الْعَلَالِي
أَوْمَلُّ أَنْ أَفُوزَ بِخَيْرِ دَارِ^(٢)
بِهَا الْمَأْوَى ، وَنِعْمَ هِيَ الْقَرَارُ!
وَأَنْتَ تَجَاوَرُ الْأَبْرَارِ فِيهَا

وَأَنْشَدْتُ أَيْضًا :

اجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِي اللَّيَالِي نَبْهَةً
وَأَنْسِ إِلَى طَوْلِ الْقِيَامِ مَخْلَدًا
تَنْبُهِكَ مِنْ خَلَلِ الْمَنَامِ قِيَامًا
وَأَتْرِكْ لِدَيْدِ النَّوْمِ وَالْأَحْلَامِ^(٣)

(١) كَذَا ! وَلَعَلَّ صَوَابُهُ : طَعْم .

(٢) كَذَا بِالْكَسْرِ ، مَعَ أَنْ بَقِيَّةَ أَوْ آخِرَ الْآيَاتِ بِالضَّمِّ .

(٣) فِي الْمَطْبُوعِ : قِيَامٌ ... الْأَحْلَامِ .

وأيضاً :

تَهَوِّذُ سَهْرَ اللَّيْلِ فَإِنَّ النَّوْمَ مُخْسِرَانِ
وَلَا تَبْرُكَنَّ إِلَى الذَّنْبِ فَإِنَّ الذَّنْبَ نِيرَانِ
فَكُنْ لِلْوَحْيِ دَرَّاسًا : وَلِلْقُرْآنِ أَخْدَانِ
[١١٧] إِذَا مَا اللَّيْلُ فَاجَاهُمْ فَهُمْ فِي اللَّيْلِ رُهْبَانِ
يَمِيلُونَ كَمَا مَالَ مِنَ الْأَرْيَاحِ أَغْصَانُ
وأيضاً :

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذاباً كلما كبرت لديه
تهين المكرومات بها بصغير وتكروم كلما هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما كنت محتاجاً إليه

...

حَيَوْنَةٌ

قال راشد بن علقمة الأهوازي : كانت حيونة إذا جتمها الليلُ تقول في دعائها :
يا واحدى ! تمنعني بالليل التلاوة ، ثم تقطعني عنك بك في ضياء النهار ؟ ! إلهى !
وددت أن النهار ليل حتى أمتع بقربك !

قال سلام الأسود : طلعت عليها الشمس يوماً فآذتها ، فقالت :
إن كنت تعلم أنني بك والله فاصرف سموم الشمس عني ، سيدي !
قال : فغمّت السماء في الوقت .

قال سلام : صامت حيونة حتى اسودت ، فموتبت في ذلك ، فرفعت طرفها
[١٢٨] إلى السماء وقالت : قد لامني خاتمك في خدمتك ؛ فوعزتك وجلالك !
لأخذ منك حتى لا يبقى لي عصب ولا قصب . ثم أنشأت تقول .

ياذا الذى وعد الرضا لحبيبه أنت الذى ما إن سواك أريد

قال سلام الأسود : نظرتُ إليها في يوم شديد الحر ، فقالت : اسكت ! عند المبلغ يفرح الواردون ، وعند العَرَض تنقطع الأسباب ، وعند قوله خذوه تنشر أعلام العارفين .

زارت رابعة حيونة ، فلما كان جوفُ الليل حمل النوم على رابعة ؛ فقامت إليها حيونة فركلتها برجلها وهي تقول : قومي ! قد جاء عُرْسُ المهتدين . يا من زين عرائس الليل بنور التهجذ !

قال ^(١) سلام : وقفت حيونة يوماً على عبد الواحد ثم نادى : يا متكلم ! تكلم عن نفسك ! والله لو مُتَّ ما تبعتُ جنازتك قال : ولم ؟ قالت : تتكلم على الخليقة وتقرين لهم ! ما شبهتكَ إلا بعلم صبيِّ علمه أن يحفظ بالقسيِّ فإذا بكر من بيت أمه نسي ، فيحتاج المعلم إلى ضربه . اذهب يا عبد الواحد ! اضرب نفسك بدرّة الأدب وتزود زاد القناعة ، واجعل حظك مما أنت فيه الكلام على نفسك ؛ ثم تكلم على الخليقة . قال سلام . فلقد عرف عبد الواحد وأقام ما يتكلم على الناس سنة . وأنشدت :

وليس للعبتِ في قبره فطرٌ ولا أضحى ولا عشرٌ
بات من الأهل على قبره كذلك من مسكنه القبرُ

قال سلام : سمعت حيونة تقول : من أحبَّ الله أُتس ومن أنس طرب ، ومن طرب اشتاق ، ومن اشتاق ولّه ، ومن وله حرم ^(٢) ، ومن حرم وصل ، ومن وصل اتصل ، ومن اتصل عرف ، ومن عرف قرب ، ومن قرب لم يرقد وتسورت عليه بوارق الأحزان .

وكانت تقول : اللهم هب لي سكنون قاي [١٢٩] بعقد الثقة بك ، واجعل لجميع خواطري واثقة برضاك ، ولا تجعل حظي الحرمان منك ، يا أمل الآملين ! قال إبراهيم : زارت ريمانة حيونة ، فلما جن الليل جاء المطر والريح الشديده ،

(١) في هذه القصة مهاجة للوظائف من الصوفية — فتأملها .

(٢) حرم (من باب كرم) خرامة : كان ذا مجون وخلاعة .

تفزع ربحانة ، فضحكت حيونة وقالت لها : يا مدبرة العمل ! لو علمت أن في قلبي محبة غيره أو خوف سواه لوجأته^(١) بالسكين .

سلمونة

قال سهل بن سعد : كانت عندنا بمبادان امرأة مجنونة اسمها سلمونة ، وكانت تُغيب شخصها بالنهار فلا ترى ، فإذا كان الليل صعدت السطح وجعلت تنادى إلى الصباح : سيدى ومولاي ! حَمَدْتَنِي عن عقلى ، وأوحشتنى عن خلقك ، وأنستى بذكرك ، وقد نفيت عن خلقك ، فوا أسفا ! إن نفيتُ عنك .

ميمونة

قال إبراهيم بن الأدهم : رأيت في المنام كأن قائلًا يقول : إن ميمونة السوداء زوجتك في الجنة . قال : فكنت أطلبها حتى وجدت أثرها بجمص ، فطلبتها فقيل : إنها مجنونة لا تألف أحداً . قلت : فأين هي ؟ قيل : دفعنا إليها أغناماً ترعها في الجبانة . فخرجتُ إلى الجبانة فإذا هي قائمة تصلى ، والشاة والذئب في مكان واحد ؛ فوقفْتُ متعجباً . فلما قضت الصلاة قالت : يا إبراهيم ! الموعد في الجنة لا هنا . فعجبت من فطنها . فقلت : يا سبحان الله ! ألسنت مؤتمنة على هذه الأغنام ؟ قالت : بلى . قلت : فلم عطلتها حتى توسطتها الذئاب ؟ قالت : سلمتها إلى منشئها . ثم قالت : ارتفعت الحشمة بينى وبين من أنا قائمة بين يديه ، فهو الذى رفع الوحشة بين الشاة والذئاب . ثم ولت وأنشأت تقول :

قلوبُ العارفين لها عيونُ ترى ما لا يراه الناظرون
وَألسنةٍ بسريٍّ قد تنأجى تغيب عن الكرام الكاتبين
[١٣٠] وأجنحةٍ تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمين
فتسقيها شراب الصديق صِرْفاً وتشرب من كووس العارفين

الزبيدي : « إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين للغزالي » :

(١) > ٩ ، ص ٥٧٦ :

... (وقال) سفيان (الثوري) رحمة الله تعالى (لرابعة) ابنة اسماعيل
العدوية البصرية العابدة رحمها الله تعالى ، وكانت إحدى المحبين ؛ ماتت
سنة ١٣٥ . وكان الثوري يقعد بين يديها ويقول: علمينا مما أفادك الله من طرائف
الحكمة . وكانت تقول له : نَعَمْ الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا ! وقد كان
الثوري زاهداً عالماً ، إلا أنها كانت تجعل إيثار كتب الحديث والإقبال على الناس
من أبواب الدنيا . وقال لها الثوري يوماً : لكل عَقْدٍ شريطة ، ولكل إيمان
حقيقة و (ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبديته خوفاً من نلره ولا حباً لجنته ،
فأكون كالأجير السوء إن خاف عمل) أو إذا أعطى عمل ، (بل عبديته حباً له
وشوقاً إليه) . وروى عنها حماد بن زيد أنها قالت : إني لأستحي أن أسأل
الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ ! فكان هذا جواباً لأنه
قال : سليني حاجتك . وخطبها عبد الواحد بن زيد فحجبتة أياماً حتى سئلت أن
يدخل عليها ، فقالت له : يا شهواني ! اطلب شهوانية مثلك ! أي شيء رأيت
في من آلة الشهوة ؟ ! وخطبها محمد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة على مائة
ألف وقال : لي غلّة عشرة آلاف في كل شهر أجعلها لك . فكتبت إليه :
ما يسرنى أنك لي عبد ، وأن كل مالك لي ، وأنت شغلتنى عن الله طرفة عين .
(و) قد قالت في معنى المحبة ، أَيْلَاتًا (نظماً) تحتاج إلى شرح ، حملها عنها أهل
البصرة وغيرهم ، منهم سفيان الثوري وجعفر بن سليمان الصُّمَيْمي وعبد الواحد بن
زيد وحماد بن زيد وهي هذه :

(أحبك حيين : حب الهوى وجباً لأنك أهل لذلك
 فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عن سواك
 وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك
 [٥٧٧] فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاك)

وقد تكلم صاحب «القوت» على هذه الآيات بكلام ساطع الأنوار يعرفه من رزقه وينكره من حرمة . والمصنف رحمه الله أشار إلى زبدة كلامه . فلنورد كلامه أولاً تم كلام صاحب « القوت » . قال المصنف : (ولعلها أرادت « بحب الهوى » حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحفظ العاجلة ، « وحبها لما هو أهل له » الحب لجلاله وجماله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحيين) فقد أشار بذلك إلى أن كلامها يدل على أن المحبة بهذا السبب أقوى الأسباب وأثبتها دوماً . وأما صاحب « القوت » فقال : فأما قولها : « حب الهوى » وقولها « حب أنت أهل له » وتفرقتها بين الحيين فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ويخبره من لم يشهده . وفى تسميته ونعت وصفه إنكار من ذوى العقول ممن لا ذوق له منه ولا قدر له به ، ولكننا نجد ذلك وندل عليه من عرفه : معنى حب الهوى — أى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين ، لا من خبر وسمع تصديق من طريق النعم والإحسان ، فتختلف محبتي إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك على ؛ ولكن محبتي من طريق العيان ، فحربت منك ، وهربت إليك ، فاشتغلت بك لما تفرغت لك كما قال المحب :

فرَّغت قلبها اشتغالا بذكركى وكذا كلُّ فارغ مشغول

وعلى هذا المعنى قوله تعالى . « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً »^(١) أى ملآن بذكركه حتى فاض فكادت أن تظهره فتقول : هو ابني . فعبر عن الملء بالفراع من ضده ، لولا أن أولينا عليه بربطنا فكظمت ، ولو لم تفعل لأظهرت ، ولو أظهرت لقتل .

وأما الحب الثانى الذى هو أهل له: تعنى حبّ التعظيم والإجلال لوجه العظيم
ذى الجلال . تقول : ثم إنى مع ذلك لا أستحق على هذا الحب ولا أستأهل —
أن^(١) أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان، لأن حبي لك
لا يوجب لك جزاء عليه بل يوجب علىّ كلّ شىء مما لا أطيقه ولا أقوم بحمك
فيه أبداً ، إذ كنت قد أحببتك فلزمنى خوفُ التقصير ، ووجب علىّ الحياء من
قلة الوفاء والخوف لما تعرضتُ به من حبك ، إذ ليس كمثلك شىء ، كما قال الحب .

أصبحتُ صبياً ولا أقول بمن خوفاً لمن لا يخافُ من أحد
إذا تفكرتُ فى هوى له لمستُ رأسى: هل طار عن جسدى؟

لولا أن الحب ينطق والشوق يقلق ، والوجد يحرق . فالحب لا يلام لغيبة النفس
عنه، وإلا نام . تقول : تفضلت علىّ بفضل كرمك ، وما أنت له أهل من تفضلك ،
فأريتنى وجهك عندك آخرأ ، كما أريتنيه اليوم عندك أولاً ؛ فلك علىّ ما تفضلت
به فى ذاك عندى فى الآخرة ، ولا حمد لى فى ذاهانا ، ولا حمد لى فى ذاك هناك ،
إذ كنت أنا وصلت إليها بك ؛ فأنت الحمود فيهما لأنك وصلتني بهما .

فهذا الذى فسرناه هو وجد المحبين المحققين . وقد كانت تذكر الأنس فى
وجدها وترتفع إلى وصف معنى من الخلة فى قولها السائر :

إنى جعلتك فى الفؤاد مُحَدَّثِي وأبجتُ جسدى من أراد جلوسى
فالجسمُ منى للجلوسِ مؤانسٌ وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى
ومن قولها النادر فى مقام الخلة :

وتخلتَ مَسَلَكَ الروحِ منى وبه سُمِّيَ الخليلُ خليلاً
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثى وإذا ما سكتُ كنتَ الغليلاً

وقد أهل ذلك لها كل ما نقله عنها من العلماء ووصفوها به ؛ فوصفنا من

(١) أن المصدرية وما بعدها واقع فى محل نصب لأنه مفعول : أستحق ... أستأهل .

نعت المحبين بعض ما يصلح من معنى كلامها ، لأننا ظننا بقولها ذلك أن كان لها في المحبة قدم . ولا يسعنا أن نشرح في كتاب حقيقة كشف ما أجهلناه ، ولا أن نفصل وصف ما ذكرناه . ومن لم يكن من المحبين كذلك حتى لا يدل بمحبته ولا يقتضى الجزاء عليها من محبوبه ، ولا يوجب على حبيبه شيئاً لأجل محبته ، فهو مخدوع بالمحبة ، ومحجوب بالنظر إليها . وإنا ذلك مقام الرجاء — الذى ضده الخوف — ليس من المحبة فى شيء ، ولا تصح المحبة إلا بخوف المقت فى المحبة . وقال بعض العارفين : ما عرفه من ظن أنه عرفه ، ولا أحبه من توهم أنه أحبه — هذا كلام صاحب « القوت » .

(ب) ح ٩ بالهامش ص ٦٨١ فى باب : « بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم » :

« وقالت رابعة العدوية يوماً : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعنا عنه » .

فى شرح الزبيدى : « (وقالت) أم الخير (رابعة) بنت اسماعيل (العدوية) البصرية قدس سرها المتوفية سنة ١٣٥ (يوماً : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعنا عنه) — أعلم أن رابعة قدس سرها كانت رأساً فى المعرفة والمحبة كما هو مشهور من حالها ، ولا يخفى عليها مقام المعية . وإنما قالت ما قالت وهى فى مقام الاستفراق الذى هو من نتائج المحبة وغلب عليها الشوق إلى المشاهدة ؛ والمحبة فى مقام القرب قد يتطلب من يأخذ بيده ويتعلق بالأذيال فنبهتها الخادمة على أن الوصول إلى مقام المشاهدة لا يكون إلا بعد المفارقة من هذا العالم ، فتمتنع عنه القواطع . فما أدق نظرها رحمها الله ! »

[فى صلب ص ٦٨١ ح ٩]

(ح) ح ٩ بالهامش ص ٦٨٢ : الباب عينه :

« وقيل لرابعة : كيف حُبِّبَكَ للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله إني لأحبه حباً شديداً ؛ ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين » .

في شرح الزبيدي : « (وقيل لرابعة) العدوية قدس سرها (كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم — فقالت : إني والله أحبه حباً شديداً ؛ ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين) . وحكى عن أبي سعد الخراز ، قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله ! اعذرني ، فإن محبة الله شغلتنى عن محبتك . فقال : يا مبارك ! من أحب الله فقد أحبني — نقله القشيري » [في صلب ص ٦٨٢ > ٩] .

(د) في شرح الزبيدي (نقلاً عن كتاب « مصارع العشاق » . لأبي محمد السراج)^(١) .

« أخبرنا القاضي أبو الحسن التَّوْزِي ؛ أخبرنا ابن يحيى ؛ حدثنا الحسين ابن صفوان ؛ حدثنا ابن أبي الدنيا ؛ حدثنا محمد بن الحسين ؛ حدثني أبو معمر صاحب عبد الوارث ؛ قال : نظرت رابعة إلى رباح القيسي وهو يقبل صبيّاً من أهله ويضّئه إليه فقالت : أتجبه يارباح ؟ قال : نعم . قالت : ما كنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره . قال . فصاح رباح وسقط مغشياً عليه » . (٩ ص ٦٨٨) .

(هـ) شرح الزبيدي > ٩ ص ٦٨٨ :

وردت الأبيات المشهورة المنسوبة إلى رابعة على أنها ليست لها بل لجارية لقبها ذوالنون ؛ قال : (وهو ينقل عن مصارع العشاق لأبي محمد السراج)^(٢) :

« . . . قال ذوالنون : بينما أن أسير على ساحل البحر إذ بصرتُ بجارية

(١) راجعه بعد ، وهو في « مصارع العشاق » ص ١٨١ مطبع الجواثب سنة ١٣٠١ .

(٢) وردت في مصارع العشاق لأبي محمد السراج القارى ، ص ١٨٠ — ص ١٨١ ، مطبع

الجواثب بالقـ.طنـظنية سنة ١٣٠١ هـ .

عليها أطار شعّر ؛ وإذا هي ناحلة ذابلة . فدنوتُ منها لأسمع ما تقول ، فرأيتها
متصلة الأحزان بالأشجان ، وعصفت الرياح واضطربت الأمواجُ وظهرت الحيتان ،
فصرخت ثم سقطت إلى الأرض . فلما أفاقت — نجت . ثم قالت : سيدي !
بك تقرب المتقربون في الخلوات ؛ ولعظمتك سبحت الحيتان في البحار الزاخرات ،
ولجلال قدسك تصافقت الأمواجُ المتلاططات . أنت الذي سجد لك سواد الليل
وضوء النهار ، والفلك الدوّار ، والبحر الزخار ، والقمر النوّار ، والنجم الزّهّار ،
وكل شيء عندك بمقدار ، لأنك الله العليُّ القهار .

يا مؤنِسَ الأبرار في خَلَوَاتِهِمْ يا خَبْرَ من حَلَّتْ به النُّزَانُ
من ذاق حُبِّكَ لا يزال مُتَمِّباً فَرَحَ الفؤادِ - متبباً - بتببال
من ذاق حُبِّكَ لا يرى متبسماً من طول حزن في الحشا إشعاعاً

فقلت لها : زدينا من هذا ! فقالت اليك عنى ؛ ثم رفعت طرفها
إلى السماء وقالت :

أحُبُّكَ حُبِّين : حبّ الوداد ، وحبباً لأنك أهل لذاك
فأما الذى هو حبّ الوداد فحبُّ شغلتُ به عن سواك
وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحُجْبِ حتى أراك
فما الحمد في ذا ولا ذاك لى ولاكن لك الحمد في ذا وذاك

ثم شَهقتُ شهقةً فإذا هي قد فارقت الدنيا . فبقيت أتعجبُ مما رأيتُ منها ؛
فإذا بنسوة قد أقبلن ؛ عليهن مدارع الشعّر ؛ فاحتملنها فغيبنها عن عيني فغسلنها ،
ثم أقبلن بها فى أكفانها . فقلن لى : تقدم فصلّ عليها . فتقدمت وصايت عليها
وهن خلفي . ثم احتملنها ومضين ... »

« الرسالة القشيرية » ، القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ :

(أ) في باب الرضا :

« وسئلت رابعة متى يكون العيد راضياً، فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته
النعمة » (ص ٨٩) .

(ب) في باب التوبة :

« وقال رجل لرابعة : إني قد أكرت من الذنوب والمعاصي ، فلو تبتُ ،
هل يتوب عليّ؟ فقالت لا ! بل لو تاب عليك لُتبتَ . » (ص ٤٨)
(ج) في باب المحبة :

« قالت رابعة في مناجاتها : إلهي ! أتحرق (١٤٨) بالنار قلباً يحبك؟ فهتف
بها هاتف : ما كنا نفعل هكذا ؛ فلا تظني بنا ظن السوء . » (١٤٧ — ١٤٨)

« صفة الصفوة » لابن الجوزي ، ج ٤ ص ٥٧ ، مخطوط الظاهرية تاريخ ٦٧ :
« أخبرنا أبو القاسم الحريري قال : أنبأنا أبو طالب الأساوي ، قال : أنبأنا
أبو بكر البرقاني ، قال أنبأنا إبراهيم بن محمد الزكي ، قال حدثنا محمد بن اسحق السراج
قال : حدثنا حاتم بن الليث الجوهري ؛ قال حدثنا عبد الله بن عيسى ، قال :

دخلت على رابعة العدوية بيتها فرأيت على وجهها النور، وكانت كثيرة البكاء؛
فقرأ رجل عندها آية من القرآن فيها ذكر النار ، فصاحت ثم سقطت .

ودخلت عليها وهي جالسة على قطعة بوريٍ خلقي ، فتكلم رجل عندها

بشيء ، فجلت أسمع دموعها على البورى مثل الوكف . ثم اضطربت وصاحت .
فقمنا وخرجنا .

أخبرنا محمد بن أبي منصور ، قال : أنبأنا الحسن بن أحمد الفقيه ، قال : أنبأنا
محمد بن أحمد ، قال : أنبأنا أحمد بن جعفر بن سلم ، قال : حدثنا أحمد بن عبد الخالق
قال : أنبأنا يعقوب بن يوسف ، عن اسحق بن ابراهيم ، قال حدثنا مسمع بن عاصم
ورباح القيسى قالا : شهدنا رابعة وقد أتتها رجل بأربعين ديناراً فقال لها : تستمينين
بها على بعض حوائجك ؛ فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء فقالت : هو يعلم أنى
أستحي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أنا أريد أن آخذها ممن
لا يملكها !

أنبأنا عبد الوهاب الحافظ قال أنبأنا أبو الحسين عبد الجبار ، قال :
أنبأنا العتيق ، قال أنبأنا عثمان (ص : عثم) بن عمر بن النشاب ، قال : أنبأنا ابن
محمد بن عبد الله بن سليمان النامي ، قال ، حدثنا ابن حبيب البزاز ، قال : حدثنا
الفضل بن موسى البصرى ، قال : حدثنا ابراهيم بن بشار الرمادى ، قال حدثنا
محمد بن أبي حاتم [٥٧ ب] قال : حدثنا محمد بن عمرو قال :

دخلت على رابعة وكانت عجوزاً^(١) كبيرة بنت ثمانين سنة كأنها الشن تكاد
تسقط ، ورأيت في بيتها كراخة بوارى^(٢) ومشجب قصب فارسى طوله من الأرض
قدر ذراعين ، وستر البيت جلّة ووربما كان بورياً^(٣) وحُبّ وكوز ، ولبد هو فراشها وهو
مصلاها ، وكان لها مشجب من قصب عليه أ كفافها . وكانت إذا ذكرت الموت
انتفضت وأصابها رِ غدة . وإذا مرت بقوم ، عرفوا فيها العبادة . وقال لها رجل :
ادعى لى ! فالتصقت بالحائط وقالت : من أنا ، يرحمك الله ! أطع ربك وادعُ
فإنه يجيب المضطر .

(١) ص : عجوز . (٢) الكراخة : الشقة من البوارى . (٣) ص : بورى .

أخبرنا الحمدان ابن منصور وابن عبد الباقي قالا : أنبأنا جعفر بن أحمد السراج قال : أنبأنا أحمد بن علي التودى ، قال : أنبأنا محمد بن عبد الله الدقاق ، قال : أنبأنا الحسين بن صفوان ، قال : حدثنا عبد الله بن محمد القرشي ، قال ، قال محمد بن الحسين : حدثني سبغ بن منظور قال :

دخلت على رابعة وهي ساجدة . فلما أحست بمسكاني رفعت رأسها ، فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها . فسلمت ، فأقبكتُ على . فقالت : يا بني ! لك حاجة ؟ فقلت : جئتُك لأسلم عليك . قال : فبكت وقالت : « سترك اللهم سترك ! » ودعت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة وانصرفت .

قال القرشي : وحدثني محمد بن إدريس قال ، حدثنا أحمد أبي الحواري ، قال حدثنا العباس بن الوليد ، قال : قالت رابعة ^(١) : أستغفر الله من قلة صدقي في قولي : « استغفر الله ! » .

قال القرشي : وحدثني أزهر بن مروان ، قال دخل على رابعة رباح القيسي وصالح بن عبد الجليل [١٥٨] وكلاب ، فتذاكروا الدنيا فأقبلوا يذمونها فقالت رابعة : إني لأرى الدنيا بترابيعها في قلوبكم ، قالوا : ومن أين توهمت علينا ؟ قالت : إنكم نظرتُم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلمتم فيه .

قال القرشي : وحدثني أبو جعفر المديني عن شيخ ^(٢) من قريش قال : قيل لرابعة : هل عملت عملا ترين أنه يقبل منك ؟ قالت : إن كان فخافتي أن يرَدَّ عليّ .

أخبرنا محمد بن عبد الباقي قال : قال أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب بن وهب قال : حدثنا عبد الله بن أيوب المتزى (كذا) قال : حدثنا شيبان بن فروخ قال : حدثنا جعفر بن سليمان ، قال : أخذ بيدي سفيان الثوري وقال : مر إلى المؤدبة التي

(١) المقصود هنا رابعة بنت اسماعيل ، مادامت لرواية سند أحمد بن أبي الحواري زوجها .

(٢) يصح أن تكون : سائح .

لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها . فلما دخلنا عليها رفع سفيان يده وقال اللهم إني أسألك السلامة . فبكت رابعة . فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : أنت عرّضتني للبكاء . فقال لها : وكيف ؟ قالت ! أما علمت أن السلامة ترك ما فيها ، فكيف وأنت متلطخ بها !

وقال الثوري بين يدي رابعة : واحزنانه ! فقالت : لا تكذب ! قل : واقلة حزنانه ! لو كنت محزوناً ما هَنَّاكَ عيش .

أخبرنا محمد بن أبي منصور قال : أنبأنا محمد بن علي الكوفي ، قال : أنبأنا علي ابن الحسن التنوخي ، قال : حدثنا علي عمر الخليلي ^(١) ، قال : حدثنا محمد بن عبده ابن حرب القاضي ، قال : حدثنا شيبان بن فروخ ، قال : سمعت جعفر بن سليم يقول : سمعت رابعة تقول لسفيان : إنما أنت أيام معدودة ؛ فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضُك ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم ، فاعمل .

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال : أنبأنا محمد بن هبة الله الطبري ، قال : أنبأنا علي بن محمد بن الشران ، قال : حدثنا الحسين بن صفوان ، قال : حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد القرشي ، قال : حدثني (٥٨ ب) محمد بن الحسين ، قال : حدثني عن نيس ابن مرحوم العطار ، قال حدثني عبدة بنت أبي شوال — وكانت من خيار إماء الله تعالى ، وكانت تخدم رابعة — قالت : كانت رابعة تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجمة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فزعة : يا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور .

قالت : فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت . فلما حضرتها الوفاة دعيت فقالت : يا عبدة ! لا تؤذني بموتى أحداً ولفيني ^(٢) في جبتي هذه (جبة من شعر

(١) مشددة الياء في الأصل هكذا : الخليل . (٢) ص : لعسى .

كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون) ، قالت : فكفناها في تلك الجبة وخمار صوف كانت تلبسه . قالت عبدة : رأيته بعد ذلك بسنة أو نحوها في منامى ، عليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً أحسن منه . فقلت : يا رابعة ! ما فعلت بالجبة ^(١) التي كفناك فيها والخمار الصوف ؟ قالت : إنه والله نُزِعَ عني وأبدلت به هذا الذي تريه عليّ ، وطويت أكفاني وختم عليها ورُفِعَت في عليين لتكمل لي بها ثوابها يوم القيامة . قالت ، فقلت لها : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا . فقالت : وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله لأوليائه ! قالت : فقلت : فما فعلت عبدة بنت أبي كلاب ؟ فقالت : هيهات ! هيهات ! سبقتنا والله إلى الدرجات العلى . قالت : قلت وبم ؟ وقد كنت عند الناس ! — أى أكثر منها — قالت : إنها لم تكن تبالي على أى حال أصبحت من الدنيا وأمست . قال : فقلت : فما فعل أبو مالك ؟ — يعنى ضيفمًا ؟ قالت : يزور الله عز وجل متى شاء . قالت : قلت فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت : يخرج بخ ! أعطى والله فوق ما كان يأمل ^(٢) . [١٥٩] قالت : قلت : فمريني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل ! قالت : عليك بكثرة ذكره ، أو شك أن تغتبطى بذلك في قبرك . قلت : اقتصرت ها هنا على هذا القدر من أخبار رابعة لأنى قد أفردت لها كتاباً فيه كلامها وأخبارها .

« صفة الصفوة » لابن الجوزى ج ٤ ص ٢٠٢ برقم ٦٧ تاريخ بالظاهرية :

رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري :

كذا نسبها أبو بكر بن أبي الدنيا ؛ وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي أن رابعة

العدوية تشارك هذه في اسمها واسم أبيها وعموم ما يأتي في الحديث عن زوجة أحمد أمهاريعة بالياء ؛ والعدوية بصرية ، وهذه شامية .

وقد أخبرنا أبو ناصر ، قال : أنبأنا أبو الفنائم بن النمرسى قال : رابعة بالياء بنقطة في تحتها بصرية . ورابعة بائنتين من تحتها شامية .

قال : ثنا عبد الواحد بن بكر ، قال : ثنا اسحق بن أحمد بن علي ، قال : ثنا ابراهيم بن يوسف ، قال ثنا أحمد بن أبي الخوارى قال : قلت لرابعة وهي امرأتى وقامت بليل : قد رأينا أبا سليمان وتعبدنا معه ، ما رأينا من يقوم من أول الليل ! فقالت : سبحان الله ! مثلك من يتكلم بهذا ! إنما أقوم إذا نوديت . قال : وجلست آكل وتذكرني فقلت لها : دعينا يهيننا طعامنا . قالت : ليس أنا وأنت ممن يتنقص عليه الطعام عند ذكر الآخرة . أخبرنا محمد بن عبد الباقي : قال أنبأنا (٢٠٢ ب) الحسن بن عبد الملك بن يوسف ، قال : أنبأنا أبو محمد الحلال ، قال : حدثني علي بن عمر بن علي النجار ، قال : ثنا ابراهيم بن أحمد بن الحسن القرمسينى ، قال : سمعت محمد ابن اسحق السراج ، يقول : سمعت علي بن موفق يقول ، سمعت أحمد بن أبي الخوارى يقول : قالت لى رابعة : أى أخى ! أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلعه الجبار على مساوىء عمله ، فنشغل به دون خلقه !

أنبأنا محمد بن أبي منصور ، قال أنبأنا محمد بن أبي نصير الحميدى ، قال : أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد الأردستانى ، قال : ثنا أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى ، قال سمعت أبا عمرو ومحمد بن محمد النجار الرازى يقول : سمعت محمد بن طيفور يقول : سمعت عمر بن محمد يقول عن أحمد بن أبي الخوارى ، قال : كانت لرابعة أحوال شتى فمرة يغلب عليها الحب ، ومرة يغلب عليها الأفس ، ومرة يغلب عليها الخوف . فسمعتها في حال الحب تقول :

حبيب ليس يعدله حبيب ولا لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصرى وشخصى ولكن في فؤادى ما يغيب

وسمعتها في حال الأنس :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثى وأبحت جسمى^(١) من أراد جلوسى
فالجسم منى للجلوس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسى
وسمعتها في حال الخوف تقول :

وزادى قليل ما أراه مُبغى ألزاد أبكى أم لطول^(٢) مسافتي؟!
أتحرقنى بالنار يا غاية المنى فأين رجائى فيك! أين مخافتي!

أنبأنا الحمدان : ابن أبى منصور وابن عبد الباقي قالا : أنبأنا جعفر بن أحمد
قال : أنبأنا أحمد بن على التوزى قال : أنبأنا محمد بن عبد الله الدقاق، قال أنبأنا
الحسين بن صفوان، قال : حدثنا أبو بكر القرشى . قال : حدثنى محمد بن إدريس،
قال : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، قال سمعت ربيعة تقول : إني لأضن بالقمعة
الطبية أن أطمعها نفسى ، وإني لأرى ذراعى قد سمن فأحزن . قال : وربما قلت لها:
أصائمة أنت اليوم ؟ فتقول : وما مثلى يفطر فى الدنيا . قال : وربما نظرت إلى وجهها
ورقبها (١٢٠٣) فيتحرك قلبى على رؤيتها ما لا يتحرك مع مذاكرتى أصحابنا من
أثر العبادة . وقالت لى : لست أحبك حب الأزواج ؛ إنما أحبك حب الإخوان ،
وإنما رغبت فيك رغبة فى خدمتك ، وإنما كنت أتمنى أن يأكل مالى مثلك ومثل
إخوانك . قال أحمد : وكانت لها سبعة آلاف درهم فأنفقتها على . وكانت إذا
طبخت قدرأ قالت : كلها يا سيدى فما نضجت إلا بالتسييح ! وقالت لى : لست
أستحل (أن) أمنعك نفسى وغيرى ؛ اذهب فتزوج . قال : فتزوجت ثلاثا . وكانت
تطمعنى اللحم وتقول : اذهب بقوتك إلى أهلك . وكنت إذا أردت جماعها نهارأ

(٢) تحتها : لبعده — وقد ضرب عليها .

قالت : بالله لا تفتظرنى اليوم . وإذا أردتها بالليل قالت : أسألك بالله لما وهبتنى
لله الليلة .

قال أبو بكر القرشى، وحدثنى عون بن إبراهيم ، قال : ثنا أحمد بن أبي الحواري،
قال : سمعت ربيعة تقول ، ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادى القيامة ، ولا رأيت
الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف ، ولا رأيت جراداً إلا ذكرت الحشر .
أخبرنا محمد بن عبد الباقي ، قال أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب ، قال : أنبأنا
أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : ثنا أبو جعفر الرازى ، قال : ثنا العباس بن حمزة ،
قال ، ثنا أحمد بن أبي الحواري ، قال : قالت ربيعة : نَحَوْنَا عَنِ ذَلِكَ الطَّسْتِ ،
فَإِذَا عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ : مات أمير المؤمنين هارون الرشيد . قال أحمد : فنظروا فإذا
هو مات ذلك اليوم .

أنبأنا محمد بن عبد الباقي ، قال ، أنبأنا رزق الله ، قال : أنبأنا السلمى ، قال :
ثنا محمد بن أحمد بن سعيد ، قال : العباس بن حمزة . قال : ثنا أحمد بن أبي الحواري ،
قال : سمعت ربيعة تقول : ربما رأيت الجن يذهبون ويحيثون ؛ وربما
رأيت الحور العين يستترن منى بأكامهن ، وقالت بيدها على رأسها . قال أحمد ،
ودعوت ربيعة فلم تجبني ؛ فلما كان بعد ساعة أجابتنى وقالت : إنما معنى أن
أجيبك أن قلبى قد كان امتلاً فرحاً فلم أقدر أن أجيبك .

ابن تيمية : « مجموعة الرسائل والمسائل » ١ ص ٧٠ - ٨١ ،

القاهرة سنة ١٣٤١ = سنة ١٩٢٢

... وأما ما ذكر عن ربيعة من قولها عن البيت إنه الصنم المعبود فى الأرض
فهو كذب على ربيعة . ولو قال هذا من قاله لكان كافراً يستتاب ، فإن تاب
وإلا قتل . وهو كذب ، فإن البيت لا يعبده المسلمون ، ولكن يعبدون رب

البيت بالطواف به والصلاة إليه . وكذلك ما نقل من قولها : والله ما ولج الله
ولا خلا منه — كلام باطل عليها . وعلى مذهب الحلوية لا فرق بين ذاك البيت
وغيره في هذا المعنى ، فلا تسمى مزية يطاف به ويُصلى (٨١) إليه ويحج دون غيره
من البيوت ! وقول القائل : ما ولج الله فيه — كلام صحيح . وأما قوله ، ما خلا
منه — فإن أراد أن ذاته حالة فيه أو ما يشبه هذا المعنى فهو باطل وهو مناقض
لقوله ما ولج فيه ؛ وإن أراد به أن الاتحاد ملازم له ، لم يتجدد له ولوج ولم يزل غير
حال فيه . فهذا ، مع أنه كفر وباطل ، يوجب ألا يكون للبيت مزية على غيره
من البيوت ، إذ الموجودات كلها عندهم كذلك .

الجزء الثالث من « عيون التواريخ » لصالح الدين محمد بن شاكر
الكتبي ، برقم ٤٤ تاريخ بالظاهرية بدمشق ورقة ٧ ب ، عن سنة ١٣٥ :
بعد أن أورد ما أورده ابن خلكان إلى ما جاء في « عوارف المعارف » من الشعر :
« قال عبد الله بن عيسى : دخلت على رابعة العدوية وهي جالسة على قطعة
بارية ، فتكلم رجل عندها بشيء ، فجعلت أسمع وقع دموعها على البارية مثل
الوكف . ثم اضطربت وصاحت ، فقمننا وخرجنا .
وقال محمد بن عمرو : دخلت على رابعة وكانت عجوزاً^(١) كبيرة بنت ثمانين
سنة كأنها الشن تكاد تسقط . فرأيت في بيتها كراخة بوارى ومشجب^(٢) قصب
فارسي ، طوله من الأرض قدر ذراعين ، عليها أكتافها ، وستر البيت جلة^(٣) ،
وُحِب وكوز ولبد وهو فراشها وهو مصلاها . قال لها رجل : ادعى لي ! فالتصقت
بالخائط وقلت : من أنا يرحمك الله ! أطع ربك واعبدده وادعوه ، فإنه يجيب
المضطر إذا دعاه .

قال ابن الجوزى رحمه الله تعالى : كانت رابعة محققة فطنة . ومن كلامها
«الدال على قوة همتها قولها : أستغفر الله من قلة صدقي في قولى أستغفر الله .
وكان سفيان يقول : صهروا بنا إلى المؤدبة الذى لا أجد من أستريح إليه
إذا فارقتها .

وقد جمع ابن الجوزى أخبارها في كتاب .

وكانت وقاتها على قول ابن الجوزى (١٨) في هذه السنة . وقال غيره سنة
خمسة وثمانين ؛ وهى مدفونة بظاهر القدس على رأس جبل ؛ وقبرها يزار - رضى
الله عنها .

«مصارع العشاق» لأبى محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القارى

طبع الجواثب سنة ١٣٠١ باستانبول

(١) ص ١٣٦ :

« أخبرنا القاضى أبو الحسين أحمد بن على ابن الحسين التوزى بقراءتى عليه ،
قال أخبرنا محمد بن عبد الله القطيبي ، قال حدثنا الحسين بن صفوان ، قال حدثنا
عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد القرشى ، قال حدثنا محمد بن الحسين ، قال
حدثنى عصام بن عثمان الحلبي ، قال حدثنى مسمع بن عاصم قال :

قالت لى رابعة العدوية : اعتللت علة قطمتنى من التهجذوقيام الليل ، فسكنت
أليماً أقرأ جزئى إذا ارتفع النهار ، لما يذكر فيه أنه يعدل بقيام الليل . قالت : ثم
رزقنى الله عز وجل العافية . فاعتادتنى فترة فى عقب العلة ، وكنت قد سكنت
إلى قراءة جزئى بالنهار ، فانقطع عنى قيام الليل . قالت : فبينما أنا ذات ليلة راقدة
أريت فى منامى كأن رفعت إلى روضة خضراء ذلت قصور ونبت حسن . فبينما أنا

أجول فيها أتعجب من حسنها إذا أنا بطائر أخضر وجارية تطارده كأنها تريد
أخذه قالت : فشغلني حسنهما عن حسنه . فقلت : ما تريدن منه ؟ دعيه ! فوالله
ما رأيت طائراً قط أحسن منه . قالت : بلى ! ثم أخذت بيدي فأدارت بي في
تلك الروضة حتى انتهت بي إلى باب قصر فيها ، فاستفتحت ففتح لها ، ثم قالت :
افتحوا لي بيت^(١) المقة ؛ قالت ففتح لها باب شاع منه شعاع استنار من ضوء
نوره ما بين يدي وما خلفي . وقالت لي : ادخل ! فدخلت إلى بيت يحارفيه البصر
تلاً لؤاً وحسناً ، ما أعرف له في الدنيا شبيهاً أشبهه به . فبينما نحن نجول فيه
إذ رفع لنا باب ينفذ منه إلى بستان ؛ فأهوت نحوه وأنا معها . فتلقانا فيه وُصفاء
كأن وجوههم اللؤلؤ ، بأيديهم الجاسر . فقالت لهم : أين تريدون ؟ قالوا : نريد
فلاناً ، قتل في البحر شهيداً . قالت : أفلا تُجَمِّروا^(٢) هذه المرأة ؟ قالوا : قد كان
لها في ذلك حظ فتركته . قالت : فأرسلت يدها من يدي ثم أقبلت عليّ فقالت :

صلاتك نورٌ والعبادُ رقودٌ ونومك ضدٌّ للصلاة عنيدٌ
وعمرُك غنمٌ ان عقلت وممهله يسيرٌ ويفنى دائماً ويبيد

ثم غابت من بين عيني ؛ واستيقظت من تبيد الفجر . فوالله ما ذكرتها
فتوهمتها إلا طاش عقلي وأنكرت نفسي . قال : ثم سقطت رابعة مغشياً عليها .

(ب) وفي ص ١٨٤ :

« أخبرنا القاضي أبو الحسين أحمد بن علي بن الحسين التوزي رحمه الله
بقراءتي عليه ، أخبرنا محمد بن عبد الله ابن أخي ميمى ، حدثنا الحسين بن صفوان ،
حدثنا عبد الله بن محمد القرشي ، حدثني محمد بن الحسين ، حدثني أبو معمل
صاحب عيد الوارث قال :

(١) في المطبوع : بيت لمة أفالك .

(٢) أجمر الثوب : بخره بالطيب .

نظرت رابعة إلى رباح القيسي وهو يقبل صبياً من أهله ويضمه إليه فقالت :
ما كنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره ! قال : فصاح رباح
وسقط مغشياً عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه وهو يقول : رحمة منه
— تعالى ذكره — ألقاها في قلوب العباد للأطفال .

للشيخ عبد الرؤوف المناوي : « طبقات الأولياء »

رقم ٤١٦٤ خط بالظاهرية بدمشق .

(١١٠٤) رابعة العدوية :

القيسية ثم البصرية ، رأس العابدات ورئيسة الناسكات القانتات الخائفات
الوجلات . كانت في عصر الحسن البصرى . وهى إحدى النساء اللاتي تقدمن
ومهرن في الفضل والصلاح كأم أيوب الأنصارية وأم الدرداء ومعادة العدوية .
وهى من بينهن المشهورة بعظيم النسك ومزيد العبادة وكمال النزاهة والزهادة .
كانت تصلى ألف ركعة في اليوم والليلة ، فقيل لها : ما تطلبين بهذا ؟ قالت :
لا أريد به ثواباً وإنما أفعله لكي يسر رسول الله يوم القيامة ، فيقول للأنبيا :
انظروا إلى امرأة من أمتي هذا عملها .

وكانت تصلى الليل كله ؛ فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها قليلاً حتى يسفر
الفجر ثم تهب^(١) وهى فزعة وتقول : يا نفس ! كم تنامين^(٢) ! وإلى كم تقومين !
يوشك أن تنامى نومة لا قومة لها إلا الصرخة يوم النشور .

وكتب محمد بن سليمان الهاشمي — وكانت غلة ملكه كل يوم ثمانين ألف
درهم — إلى كبراء أهل البصرة في امرأة يتزوجها فأجمعوا على رابعة ، فكتبت^(٣) إليه :

(١) من : ثبت . (٢) من . تنامى . (٣) من فكتب إليها — والسياق وصيح

الأفعال تقتضى ما أثبتناه .

« أما بعد ! فإن الزهد في الدنيا راحة البدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ؛
فهيء مزيادك ، وقدم لمعادك ، وكن وصي نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا
تركتك ، وسم الدهر واجعل فطرك للموت . وأما أنا ، فلو خولني الله (١٠٤ ب)
أمثال ما خولك وأضعافه ، لم يسرنى أن اشتغل عن الله طرفة عين والسلام .
ومن كراماتها

أن لصاً دخل حجرتها وهي نائمة ، فحمل الثياب وطلب الباب فلم يجده
فوضعها فوجده ؛ فحملها ، ونخفي عليه . فأعاد ذلك مراراً . فهتف به هاتف : دع
الثياب فإننا نحفظها ولا ندعها لك وإن كانت نائمة .
قال البوني : وهذا تحقيق التمكن بقوله تعالى : « له معقبات من بين يديه
ومن خلفه يحفظونه ^(١) » — الآية .

وخاطت بعض قيصها في ضوء مشعلة سلطانية ، ففقدت قلبها زماناً حتى
تذكرت ، فمزقت القميص ، فعاد قلبها .
وسئلت : متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت : إذ أسرته المصيبة كآسرتة النعمة .
وكانت شديدة الخوف جداً ، فإذا سمعت ذكر النار أغمى عليها . وكانت تقول :
لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنياً . قيل : كيف ؟ قالت : لأنها تفتى .
قالوا : مكثت أربعين سنة لا ترفع رأسها حياء من الله .
وكانت تقول : ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادي يوم القيامة ؛ وما رأيت
الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف ؛ وما رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر .

وقالت : استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه .
وذم بعضهم الدنيا فقالت : قال رسول الله : من أحب شيئاً أكثر من ذكره ؛
ذكركم لها دليل على بطالة قلوبكم ، إذ لو كنتم غرقى في غيرها ما ذكرتموها .

وأتاها رجل بأربعين ديناراً فقال : استعيني بها على بعض حوائجك ! فبكت
ثم رفعت رأسها إلى السماء ، ثم قالت : هو يعلم أنى أستحي (١٠٥) منه أن
أسأله الدنيا وهو يملكها ، فيكيف آخذها ممن لا يملكها !؟
وكانت إذا قال لها إنسان : ادعى ^(١) لى ! ترتعد وتقول : من أنا ؟! أطلع
ربك وادعه فإنه يجيب المضطر .

وقيل لها : عملت عملاً ترين أن يقبل منك ؟ قالت : إن كان ، نخوفى أن
يُردَّ على . وأخذ سفيان بعض إخوانه وقال : نذهب إلى المؤدبة التى لأحد أستريح
إليه إذا فارقتها . فلما دخل عليها رفع سفيان يده وقال : اللهم إنى أسألك السلامة!
فبكت ، فقال : ما يبكيك ؟ فقالت : عرضتنى للبكا . أما علمت أن السلامة من
الدنيا ترك ما فيها ، فكيف وأنت ملطخ بها ؟! وقالت : إنما أنت أيام معدودة ؛
فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ؛
وأنت تعلم فاعمل . وقال لها : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره .
ولا حباً لجنته ، فأكون كالأجير السوء . عبدته حباً وشوقاً إليه .

وقال مالك بن دينار : أتيتها فإذا هى تقول : كم من شهوة ذهبت لذتها
وبقيت تبعثها ! يارب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟!

ومن مناجاتها

إلهى : تحرق بالنار قلباً يحبك ؟ فقيل لها : لا تظنى بناظر السوء . وكانت تنشد :
إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحتُ جسدى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجلوس موانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى
وكانت كل ليلة تتطيب وتأتى زوجها وتقول : ألك حاجة ؟ فإن كان له
قضى وطره ، فتطهرت ونصبت أقدامها إلى الصباح .

وكان كنفها لم يزل عندها؛ ويحدون محل سجودها كالماء المتنقع من كثرة
(١٠٥ ب) البكاء

وقال لها رجل: إني أكرت من المعاصي، فلوتبت هل يتوب علي! قالت:
لا بل لو تاب عليك لتبت: «ثم تاب عليهم ليتوبوا»^(١).
وسمعت سفيان الثوري يقول: واحزنه! فقالت: لا تكذب! قل: واقلة
حزنه! لو كنت حزيناً ما هتأك عيش.

وقالت له مرة: نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا! قال: فيماذا رغبت؟
قالت: في الحديث.

ومرضت فقال لها عوادها: ما سبب علتك؟ قالت: نظرت بقلبي إلى الجنة
فأذاني. فتبت أن لا أعود.

ومن كرامتها: أنها زرعت زرعاً فوق عليه الجراد فقالت: إلهي! رزقي
تكفلت به، فإن شئت فأطعمه أعداءك وأولياءك. فطار الجراد كأنه لم يكن.
وحجت على بعير فمات قبل بلوغها لمنزلها. فسألت الله أن يحييه فركبت حتى
وصل إلى باب دراهم فخرميتاً.

وقالت لسفيان الثوري: ما تعدون السخاء فيكم؟ قال أما عند أبناء الدنيا
فمن يوجد بماله، وعند أبناء الآخرة من يوجد بنفسه قالت: أخطئتم قال لها:
فما السخاء عندكن؟ قالت: أن تعيده حياً له لا طلب جزاء ولا مكافأة
وضرب رأسها ركن جدار، فؤدماه، فلم تلتفت لذلك فقيل لها: ما تحسبن
بالأم؟ قالت شغلي بمواقفة مراده فيما جرى شغلي عن الإحساس بما ترون.

وسمعت قارئاً يقرأ: «إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فا كهون»^(٢) فقالت:
مساكين أهل الجنة في شغل هم وأزواجهم! وعاب عيها ابن عربي هذه المقالة

[١٠٦] وقال: إنها ما عرفت، وإنها المسكينة: فإنما شغلهم إنما هو بالله. قال: وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين في تجريح الغير ببادى الرأى والتعريض في حق نفوسهم؛ إنهم منزهون عن ذلك. لكنه مع ذلك بالغ في موضع آخر في مدحها وقال: إنها في رتبة الشيخ عبد القادر الجيلانى، فقال: السائرون إلى الله بعزائم الأمور المشروعة على قسمين: طائفة ربطت همتها على أن الرسول إنما جاء منهاً ومعلمًا بالطريق الموصلة إلى جناب الحق، فإذا أعطى العلم بذلك زال من الطريق وخطى بينهم وبين الله؛ فهؤلاء إذا سارعوا سابقوا إلى الخيرات، لم يروا أمامهم قدم أحد من المخلوقين لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق. والطائفة الأخرى جعلوا في نفوسهم أنهم لا سبيل لهم إليه تعالى إلا والرسول هو الحاجب، فلا يشهدون أمراً إلا وأقدام الرسول بين أيديهم. هكذا قال، ثم قال: والحالة الأولى هي حالة عبد القادر وأبى السعود بن شبل ورابعة العدوية ومن جرى مجراهم — انتهى.

قال بعضهم: كنت أدعو لرابعة العدوية فرأيتها في النوم تقول: هداياك تأتينا على أطباق من نور، مخمّرة بمناديل من نور.

ماتت سنة ثمانين ومائة، وقيل غير ذلك.

ورأتها خادماتها فقالت: مرينى بأمر أتقرب به إلى الله! قالت: عليك بكثرة ذكره، أو شك أن تغتبطى به في قبرك.

وقد أفرد ابن الجوزى لمناقبها وكلامها مؤلفاً حافلاً.

رابعة بنت إسماعيل العدوية

ورابعة هذه بمثناة تحتية، وهى شامية؛ والتي قبلها بموحدة [١٠٦ ب] تحتية وهى بصرية^(١) — فافترقا. كانت تقوم الليل كله وتقول: إذ عمل عبد

بطاعة الله أظلمه على مبادئ عمله فاشتغل بها دون الخلق . وقالت : ما سمعت
أدائاً قط إلا ذكرت منادى يوم القيامة ؛ ولا ذقت حرّاً إلا ذكرت حر الحشر .
وكانت ترى الجنّ عياناً . وقالت : رأيت الحور العين فسترن منى بأكلمهن .
وراية هذه كانت زوجاً لابن أبي الحواري . قال : قلت لها وقد قامت بليل : قد
رأينا أبا سليمان^(١) وتعبدنا معه ، فما رأينا من يقوم أول الليل . فقالت :
سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا ؟ إنما أقوم إذا نوديت .

قال : وجلست آكل ، وجلست تذكركني . فقالت : دعينا يهيننا طعامنا .
قالت : ليس أنا وأنت ممن يتنقص عليه الطعام . وقالت لى : أى أخى ! أعلمت
أن العبد إذا عمل بطاعة الله أظلمه على مساوىء عمله ، فتشاغل به دون خلقه !
وكانت لها أحوال شتى ! فمرة يغلب عليها الحب ، ومرة الأنا ، ومرة الخوف ،
وكانت تقول : إني لأضنّ باللقمة الطيبة أن أطمعها نفسى ، وإني لأرى
ذراعى تقدر سمن ، فأحزن !

وكان إذا أراد زوجها جامعها نهراً قالت : أسألك بالله لا تفطرنى اليوم .
وإذا أراد ليلا قالت : أسألك بالله إلا ما وهبتى لله الليلية .

ومن كراماتها

أنها قالت : نَحَوْنَا^(٢) عنى الطست ، فأبما عليه مكتوب : مات هارون الرشيد .
فنظروا فإذا هو قد مات ذلك اليوم .

ودعاها زوجها يوماً فلم تجبه ؛ ثم بعد مدة أجابته وقالت : إنما منعى أن
أجيبك أن قلبى كان امتلاً فرحاً بالله ، فلم أقدر أن أجيبك .

ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة . ودفنت برأس زيتنا بيت المقدس . وقيل
[١٠٧] المدفونة هناك إنما هى الأولى .

(١) يقصد أبا سليمان الداراني (٢) ص : نحو عنى .

رياح بن عمرو القيسي

(١٠١ ب) صاحب المجد والفخر؛ القانت لله في السر والجهر. كان للدينيا قالياً؛ ومنها هارياً؛ وفي الآخرة راغباً، ولها خاطباً؛ مطرحاً للكلف، راقياً بهيمته إلى أعلى الغرف.

وكان إذا دخل المسجد بكى؛ وإذا دخل بيته بكى؛ وإذا دخل الجبانة بكى. فيقال له: أنت دهرك في ماتم؟ فيقول: يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا. واتخذ غلاماً من حديد، فإذا جنّه الليل وضعه في عنقه وتضرع وبكى حتى يصبح.

وقال الحارث بن سعيد: أخذ رياح بيدي وقال: هل نبكى على مرّ الساعات ونحن على هذه الحال؟ — فخرجننا إلى المقابر. فلما نظر صرخ، فأغشى عليه، فقعدت عند رأسه أبكى. فأفاق فقال: ما يبكيك؟ قلت: ما أرى بك. قال: لنفسك فابك. ثم قال: وانفساه! فغشى عليه وسقط.

ومن كلامه: شأن العاقل أن لا يجعل لبطنه على عقله سبيلاً: فإن الدنيا أيام قلائل. وقال: إياكم والإكثار من اللحم، فإنه يقسى القلب. وقال: تحويل جبل من مكانه أسهل من إزالة حب الرئاسة إذا استحكمت. وقال: نحت الجبال بالأظفار أسهل من مخالفة الهوى إذا تمسكت. وقال: رحم الله إخواناً زاروا قبور إخوانهم بقلوبهم وهم في محاريبهم. [١٠٢] وقال: إذا قال رفيقك «قصعتي» فليس برفيق حتى يقول: قصعتنا. وقال: كما لا ينظر بصر الخفاش نور الشمس، لا ينظر قلب محب الدنيا نور الحكمة.

وقال: عليك بمجالس الذكر وحسن الظن بمولاك، وكفى بهما خيراً.

وقال: مما أوصى به الخضر عليه السلام موسى: إياك أن تتعلم العلم لتغيرك

فلا تعمل به ، فيكون لغيرك نوره وعليك وزره . وقال : لا يبلغ رجل منزلة الصديقين حتى يدع زوجته كأنها أرملة وأولاده كأنهم أيتام^(١) ويأوى مزابل الكلاب . وكان أدمه الملح والخبز ؛ ويقول لنفسه : أمامك طعام العز والجهاد والعرس في الآخرة :

العطار : « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ٥٩ - ص ٧٣ نشرة نيكلسون

رابعة العدوية

إنها ذات الخدر الخالص ، المستور بستر الإخلاص ، المقعدة بنار العشق والاشتياق ، المتحرقة إلى القرب والاحترام ، الفانية في الوصال ، المقبولة عند الرجال ، كأنها مريم ثانية ، صافية صافية ، إنها رابعة العدوية — رحمة الله عليها .

فإن سألتني أحد : لم ذكرتها في صف الرجال ؟ قلت له : قد قال السادة الأنبياء عليهم السلام : إن الله لا ينظر إلى صوركم . . . الحديث . فالعبرة ليست بالصورة . بل بالنية كما قال عليه السلام : « يحشر الناس على نياتهم » . فإذا كنا نأخذ عن عائشة الصديقة — رضى الله عنها — ثلث الدين ، فمن الجائز أن تتلقى فائدة دينية من إحدى خادمتها (أى رابعة) . إن المرأة التي تسلك الطريق إلى الله كما يفعل الرجال لا يمكن أن تسمى امرأة . ولقد قال عباسه الطوسي : إذا دعينا يوم القيامة : « يا رجال ! » فأول متقدم في صف الرجال (أى الداخلين إلى الفردوس) سيكون مريم عليها السلام . وكان الحسن إذا لم يرها في المجلس حاضرة ترك المجلس — ومعنى هذه الحقيقة (وهو مساواة النساء بالرجال في القداسة)

أنه حيث يوجد الصوفية فلا تفرق بينهم في وحدة الوجود (الإلهي) ، ففي التوحيد ماذا يبقى من وجود « أنا وأنت » ؟ وإذن كيف يكون ثمت امرأة ورجل ؟ كذلك قال أبو علي الفارمذي رضى الله عنه . إن النبوة عين العزة والرفعة ؛ فليس فيها سمو وانحطاط . ولا ريب في أن الولاية من هذا النوع .

لقد كانت رابعة فريدة في معاملتها (مع الله) وفي معرفتها ، وكانت معتبرة في جملة كبار عصرها ، وكانت حجة قاطعة عند معاصريها . وفي الليلة التي أتت فيها رابعة إلى الدنيا لم يكن في بيت أهلها شيء ، لأن أباهما كان فقيراً فلم يكن عنده قطرة من سمن حتى يدهنوا موضع خلاصها ، ولم يكن ثمة نور ولا خرق للف الوليد . وكان له ثلاث بنات فسميت «رابعة» لأنها رابعتهن . فقالت امرأته : اذهب للجيران وأت بقطرة من الزيت حتى يضيء القنديل . ولكنه كان قد عاهد نفسه على ألا يطالب من الناس شيئاً ، لأنه لو طلب شيئاً ما أعطوه . مع هذا ذهب إلى الجارة وطرق الباب ، ثم عاد إلى زوجته وقال إنه لم يفتح له . فبكت . وفي ذلك الوقت أطرق على ركبتيه ونام ، فرأى النبي عليه السلام في منامه وقال له الرسول : لا عليك ، لأن هذه البنت التي ولدت هي سيدة ؛ إن سبعين ألفاً من أمتي ليرجون شفاعتها . وقال له : اذهب غداً لعيسى زاذان أمير البصرة واكتب له ورقة وقل له : إنك تصلى مائة صلاة وفي ليلة الجمعة أربعاً ، ولكن في يوم الجمعة الأخير نسيتهنى ، فادفع كفارة أربعاً ديناراً حلال لهذا الشخص . فلما أفاق والد رابعة من نومه كتب الرسالة وأرسلها عن طريق الحاجب إلى الأمير . فلما قرأها الأمير قال : أعطوا ألفى ديناراً للدرراويز وأربعاً للشيوخ وقولوا له أن يأتى إلى لأراه ؛ كلاً بل لا أرى من الموافق أن يأتى إلى ، بل سأذهب إليه أنا ، وأخنى لحتى على أعتابه وأمسحها بها ، وأطلب من الله كل ما تريده ، وأشتري من فاخر الثياب وكل شيء تريده (الفتاة) .

فلما كبرت وتوفيت أمها وأبوها حدث في البصرة فحط ، وتفرقت أخواتها .
فلما خرجت رابعة تهيم على وجهها رآها ظالم وباعها بستة دراهم ، ومن اشتراها
أثقل عليها العمل . وذات يوم جاء رجل غريب فهربت وسارت في طريقها ، ثم
ارتمت على التراب وقالت : ياربى ! أنا غريبة ويتيمة وأسيرة وقد صرت عبدة ،
لكن غمى الكبير هو أن أعرف : أراض عنى أنت أم غير اراض ؟ فسمعت صوتاً
يقول لها : « لا تحزنى ، لأنه في يوم الحساب [٦١] المقربون في السماء ينظرون
إليك ويمسحونك على ما أنت فيه » .

وبعد أن سمعت هذا الصوت ذهبت إلى بيت سيدها، وصارت تصوم وتخدم
كل يوم سيدها وتصلى لربها ، ساهرة على قدميها . وذات ليلة استيقظ سيدها
من النوم ونظر من خوخة في الباب، فرأى رابعة ساجدة وهي تقول: «إلهى! أنت
تعرف أن قلبي يتمنى طاعتك ، ونور عيني في خدمة عتبتك. ولو كان الأمر بيدي
لما توقفت ساعة عن خدمتك، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق ». وبينما كانت
لا تزال تصلى ، شاهد قنديلا فوق رأسها، معلقاً ، بدون سلسلة ، وكان النور يملأ
البيت كله. فلما رأى سيدها هذا النور العجيب فرغ ونهض ثم عاد إلى مكانه وظل
يفكر حتى طلع النهار . هنالك دعا رابعة وحدثها بلطف وأطلق سراحها قائلاً :

يا رابعة ! لقد أعتقتك حرة فإذا شئت بقيت هنا وسنكون جميعاً في خدمتك؛
وإذا لم تشأى اذهبي أنى شئت. فودعته رابعة وارتحلت وانقطعت للتقوى والعبادة.
ويقال إن رابعة كانت تصلى كل يوم وليلة ألف ركعة! وكانت تتردد على
الحسن البصرى . وفي رواية أخرى أنها كانت تضرب على الناي (وگروهى
گویند در مطربى أفتاد) مدة ما ، ثم تابت وابتنت لنفسها خلوة انقطعت
فيها للعبادة .

وذات يوم ارتحلت إلى الكعبة ، وكان لها حمار حملته متاعها . فنفق الحمار ،

فقال من بالقافلة: «سنحمل متاعك على دوابنا». — فقالت رابعة: «ما كان اعتمادى عليكم حينما أتيت، بل ثقى بالله تعالى. فارحلوا إذن». فلما ارتحلت القافلة دعت رابعة الله قائلة: «إلهى! أكذا يفعل الملوك بمبيدكم الضعفاء العاجزين؟ لقد دعوتنى إلى زيارة بيتك، وها أنت ذاتدع حمارى ينفق فى الصحراء وتتركنى فى الخلاء وحيدة!» فما كادت تنطق بهذه الكلمات حتى نهض الحمار مليئاً بالحياة. فوضعت عليه متاعها واستمرت فى طريقها ولحقت بالقافلة.

ويقال إنها كانت فى طريقها إلى الكعبة ذات يوم، فبقيت وحدها فى الصحراء. وقالت: «إلهى! إن قلبى مضطرب وسط هذه الدهشة. أنا لبنة والكعبة حجر. وما أريده هو أن أشاهد وجهك!» فناداها حينئذ صوت من عند الله تعالى يقول: «يارابعة، أتعلمين وحدك ما يقتضى دم الدنيا كلها؟ لما أراد موسى أن يشاهد وجهنا، لم نلق إلا ذرة من نورنا على جبل نجر صَعِقًا.»

ويروى مرة أخرى أنه لما كانت رابعة بسبيل الحج رأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء. فقالت رابعة: [٦٣] «لا أريد الكعبة، بل رب الكعبة، أما الكعبة فماذا أفعل بها؟» ولم تشأ أن تنظر إليها.

وكان إبراهيم بن أدهم قد أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة، لأنه كان فى كل خطوة يصلى ركعتين. وكان يقول: «غيرى يسلك هذه الطريق على قدميه، أما أنا فأسلكها على رأسى». وبعد أربعين سنة بلغها فلم يجدها فى مكانها. فقال نائمًا: «وأسفاه! أصرت أعمى حتى لا أرى الكعبة؟» فسمع صوتا يقول: «يا إبراهيم! لست أعمى، لكن الكعبة قد ذهبت للقاء رابعة». فتأثر إبراهيم ثم رأى الكعبة قد غادت إلى مكانها. وأبصر رابعة تتقدم مستندة إلى عصا: «أى رابعة! هكذا قال لها، ما أجل عمالك! وما الضجة التى تحدثينها فى الدنيا! الكل يقولون: ذهبت الكعبة للقاء رابعة». فأجابته رابعة:

يا إبراهيم ! وأية ضجة تحدثها أنت في الدنيا بأن أمصيت أربعين سنة حتى بلغت هذا المكان ؟ لأن الكل يقولون : إبراهيم يتوقف كل خطوة ليصلي ركعتين . فقال إبراهيم : نعم ! قد أمصيت أربعين سنة في اختراق هذه الصحراء . فأجابت رابعة : يا إبراهيم ! أنت جئت بالصلاة وأنا جئت بالفقر « ؛ وبكت طويلاً . وبعد أن زارت الكعبة عادت إلى البصرة . وفي وثبة من قلبها صاحت : «إلهي وعدت بجزاين لشئئين : القيام بالحج ، والصبر على الشدائد . فإذا لم يكن حجي صحيحاً عندك ، فما أكبرها مصيبة عندي ! لكن ما جزاء هذه المصيبة ؟ »

وفي السنة التالية قالت : «إذا كانت الكعبة قد أقبلت إلى في العام الفائت فأنا التي سأقبل عليها هذا العام» . وروى الشيخ أبو علي الفارمذي أنه لما جاء موسم الحج ، توجهت رابعة ناحية الصحراء وتقلبت على أضالعها حتى بلغت الكعبة ، في سبعة أعوام . فلما بلغت سمعت صوتاً يقول لها : «ماذا تريدن يا رابعة؟ إذا كنت تريدنني فسأتجلى لك بكل جلالي فتدوين تواء كما يذوب الماء . — فأجابت : إلهي ! ليس لي من الطاقة ما يبلغني هذه المرتبة . ولست أطلب إلا ذرة من الفقر الروحي » . فقال الصوت : «أى رابعة ! إن الفقر عاطفة خوف من غضبنا جعلناها في طريق الأولياء ، لكن إذا لم يبق عليهم ليلغوا إلينا إلا قيد الشعرة فقد يحدث أن يفسد أمرهم في الحال وينجسوا عن الغاية . أما أنت ، فلا تزالين في داخل السبعين حجاباً أو مقاماً . فطالما لم تخرجي من تحتها وتضعي قدمك في طريقنا، فإنك لن تقدرى على الحديث عن الفقر — فقال صوت : «يا رابعة! انظري إلى الأعلى!» ! فلما نظرت إلى الأعلى ، رأت بحراً من الدم معلقاً في الهواء وصاح لها صوت : «يا رابعة! إن هذا البحر من دموع الدم الساقطة من عيون أولئك الذين أحبونا وسعوا إلينا . ومنذ المقام الأول قضى عليهم إلى حد أنه لم يبق من أشخاصهم أثر في هذا العالم أو في الآخرة . فقالت رابعة : إلهي ! دعني أرى مثلاً على درجة السعادة التي

يصل إليها هؤلاء العشاق . فما أتمت هذه العبارة حتى أتاها الحيض وصارت غير طاهرة . وفي نفس الوقت ناداها صوت يقول : « إن المرتبة الأولى التي يبلغها العشاق يمثلها تماما إنسان تقلب على أضلاعه سبع سنوات كما يزور جدار أمن اللبن ، ولما اقترب من هذا الجدار أغلق الطريق على نفسه نتيجة عائق نشأ عن شخصه » . فلما نيست رابعة قالت : « إلهي ! لا تدعني كي أبقى في بيتي ، ولا تريد أن تقبلني في بيتك ؛ فيما أن تدعني أقيم هادئة في بيتي بالبصرة ، أو اسمح لي أن أدخل الكعبة ، وهي منزلك . لقد فتشت عنك قبل أن أحني رأسي أمام الكعبة ؛ دعني إذن أذهب ، فلست جديرة بدخول بيتك » . ثم عادت إلى البصرة وأقامت في خلوتها وانقطعت بكامل نفسها للعبادة .

ويروى أن عالمين ذهبا لزيارة رابعة ؛ وكانا جائعين ، فقدمت همارغيفين كانا عندها . وفي تلك اللحظة جاء شيخ يسألها على الباب ، فقدمت إليه الرغيفين . فدهش العالمان وجلسا يتأملان ما جرى . فشاهدا خادمة تحمل مفرشا من الخبز وضعته أمام رابعة وقالت : « إن سيدتي في خدمتك » . فلما عدت رابعة الأرفة وجدت ثمانية عشر . فأعادتها إلى الخادمة مع المفرش وقالت : خذها واذهي ؛ لقد أخطأت العدد . — فقالت الخادمة : كلام لم أخطيء . — فقالت رابعة : كلا ، بل تمت خطأ . فأخذت الخادمة المفرش وذهبت إلى سيدتها ، وروت لها كل ما حدث . فوضعت السيدة رغيفين آخرين مع بقية الأرفة وأرسلتها . فأحصت رابعة عددها فوجدته عشرين ، وضعتها أمام ضيفيها من العلماء . فلما فرغا من الطعام سألاها السر فيما حدث . فأجابت رابعة : « لما وصلنا عرفت أنكما جائعان فقلت لنفسي : ليس عندي إلا القليل . وفي تلك اللحظة جاء السائل الذي أعطيته الرغيفين ثم دعوت هذه الدعوة . إلهي ! لقد قلت : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها (١) » ،

وأنا من أجلك أعطيت رغيين ، فأعطني عشرة من كل واحد . فلما جاءت الخادمة بالثمانية عشر رغيًا قلت لنفسي : إما أن يكون أحد الناس قد أخذ منها اثنين ، وإما ألا تكون لنا . ورددها . فلما أعادتها بزيادة رغيين ، فهمت أن هذه لنا . وذات ليلة كانت رابعة تهجد . فدخلت قصبة في عينها دون أن تشعر . بها لأن عشقها لله كان متأصلا في أعماق قلبها !

ويحكى كذلك أن لصًا دخل بيت رابعة ، وسرق خاها ، ولكنه لم يجد مخرجًا ؛ غير أنه لم يكده يدع الخمار في مكانه حتى وجد المخرج . فأخذ الخمار من جديد ، لكن السبيل أعلق عليه . وفعل هذا سبع مرات : يأخذ الخمار ولا يجد المخرج ، إلا إذا أعاده إلى مكانه . هناك ناداه صوت يقول : « يالص ! لاجدوى في محاولاتك ، فمذ عهد طويل ورابعة قد وكلت إلينا السهر عليها ولا نسمح بدخول إبليس في خلوتها . وأنت أيها اللص ! تريد أن تسرق خاها ؟ ألا فتعلم أيها الشقي أنه حينما يكون أحد أحبائنا غارقا في النوم ، هناك صديق يسهر على أمره . »

كما يروى أن خادمة رابعة كانت تهيء طعاماً بالزيت لسيدتها . فلم يكن عندها بصل ، فقالت لها : « سأسأل جارتنا وأعود . — فقالت رابعة : منذ أربعين سنة وقد عاهدت الله ألا أسأل أحداً شيئاً غيره . فإذا لم يكن ثمت بصل ، فلا ضير . وفي الحال تبدى طائر يحمل بصلاً قشره وقطعه قطعاً وألقى به في المقلاة . فلم تأكل رابعة من هذا الطعام واكتفت بالخبز ، ثم قالت : « يجب على المرء ألا يفتر بحيل الشيطان . »

ويروى أيضاً أن رابعة صعدت جبلاً فأقبلت حولها كل الغزلان الموجودة ، وبقيت آمنة كل الأمان . ونجاة جاء الحسن البصرى فقبرت كل الغزلان ، فقال لها : « يا رابعة ! لماذا فرت كل الغزلان مني ، ولم تفر منك أنت ؟ فسألته : ماذا

أكلت اليوم يا حسن؟ — أكلت طعاماً طهى بزيت — فقالت رابعة :
يا من تأكل من دهنها ، كيف تريد ألا تفر منك؟»

ويحكى أن الحسن البصرى رأى رابعة جالسة على شاطئ الفرات ، فألقى على
الماء سجاده ووقف عليها وقال : يا رابعة ! تعالى لنصلى ركعتين على الماء —
فقالت : سيدى ! أمى أمور هذه الدنيا ما تريد أن تظهره لأهل الآخرة ؟ أظهر لنا
شيئاً لا يستطيع جمهور الناس أن يفعله . قالت هذا وألقت سجادتها فى الهواء
وصعدت عليها وصاحت : « تعال يا حسن ! نحن هنا فى مكان آمن وأبعد عن
عيون الناس » . وقالت تعزية للحسن : « سيدى ! ما فعلت أنت يستطيع السمك
أن يفعله ، وما فعلت أنا يستطيع الذباب أن يفعله . المهم أن نبلغ درجة أعلى من
هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما » .

ويروى أن الحسن البصرى قال : « بقيت ليلة ويوماً عند رابعة نتحدث
عن الطريق الروحى وأسرار الحق بحرارة بلغت حدّاً نسينا معه أنى رجل وأنها
امرأة . فلما انتهينا من هذه المناقشة ، شعرت بأننى لم أكن إلا فقيراً ، بينما هى
غنية بالإخلاص » .

ومرة أخرى ذهب الحسن البصرى وبعض أصحابه إلى رابعة . وكان الوقت
ليلاً ، فاحتجوا إلى مصباح فلم يجدوا . هنالك وضعت رابعة أطراف أصابعها فى فمها
ثم أخرجتها فظل يشع منها حتى مطلع الفجر نور كأنه نور مصباح . فإن سأل
أحد كيف حدثت هذه الكرامة فأخبره أن النور كان يشع من يد موسى .
فإذا قيل لك إن موسى — عليه السلام — كان نبياً وأن رابعة لم تكن نبية ، فأجب :
إن من ينفذ الأوامر التى آتى بها الأنبياء يشارك فى قدرتهم على الإتيان بالمعجزات ؛
فإذا كان للأنبياء معجزات ، فإت للآولياء كرامات . وهذه حقيقة يؤيدها
حديث الرسول عليه السلام حين قال : « من رد دانقاً — وهو سدس الدرهم —

من الحرام، فقد نال درجة النبوة^(١)، أو «الرؤيا الصادقة جزء من النبوة» [٦٦] -
ويحكى أن رابعة أرسلت إلى الحسن البصرى بثلاثة أشياء: قطعة شمع وإبرة
وشعرة وأمرت الرسول أن يقول له: «يا حسن! اشتعل كالشمع وأضى للناس؛
وابدأ بأن تكون متجرداً ثم اجعل؛ فإن فعلت هذين، صرنحيملاً كالشعرة إذا
أردت ألا يذهب جهدك سدى» .

وسألها الحسن البصرى: هل تزوجين؟ فأجابته: «الزواج ضرورى
لمن له الخيار؛ أما أنا فلا خيار لى فى نفسى، إى لربى وفى ظل أوامره،
ولا قيمة لشخصى. - فقال الحسن: فكيف بلغت هذه الدرجة؟ - بفنائى
بالكلية - فقال الحسن: أنت تعرفين لماذا؛ أما نحن فلا يوجد لنا هذا». ثم
أضاف: «أى رابعة! أخبرينى بشىء مما ألهمته - فأجابت رابعة: ذهبت
اليوم إلى السوق ومعى جزمتان من الحبال بعتهما بمثقالين من الذهب حتى أحصل
على طعام. وأخذت إحدى القطعتين فى كلتا اليدين بخافة أنى لو أمسكت بهما
معاً لجمالنى أضل الطريق القويم». وقال لها الحسن أيضاً: «لو كنت فى الجنة
بعيداً قدر نفس من وجه الله لبكيت إلى حد يثير شفقة الآخرين على. - فقالت
رابعة! حسناً! لكن من يهمل فى هذه الدنيا أو يسبح بحمد الله لحظة وهو ينوح
ويبكي فإن هذا آية على أنه فى الآخرة سيكون على الحال التى وصفتها».

وسئلت: «لماذا لا تزوجين؟ - فأجابت: هناك ثلاثة أشياء تسبب
الهم عندى، فإذا كان من يخاضنى منها تزوجت. - وماهى؟ - فأجابت:
أولها: هل إذا أنا مت أستطيع أن أتقدم بإيمانى طاهراً؟ والثانى إذا ما كنت
سأعطى كتابى يمينى يوم القيامة. والثالث إذا جاء يوم البعث وأخذ أصحاب
اليمين إلى الجنة وأصحاب المشامة إلى السعير، فمن أى الفريقين سأكون؟ -

فقالوا جميعاً: لسنا نعرف شيئاً عما سألته. — فقالت: إذا كان الأمر كذلك، وأنا في قلق من هذه الأمور، فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له! «

وسئلت: «من أين أتيت؟ — من العالم الآخر — وإلى أين تذهبين؟ — إلى العالم الآخر — وماذا تفعلين في هذه الدنيا؟ — أعبت بها: — وكيف تعبتين بها؟ — آكل من خبزها وأعمل عمل الآخرة». وسئلت أيضاً: «إنك بارعة في الكلام، أفلا تصلحين لحراسة رباط؟» فقالت: إني حارسة رباط فعلاً، لأنني لا أدع شيئاً يخرج مماني داخلي، ولا أدع شيئاً يدخل مما هو خارج».

وسئلت: «أى رابعة! أتحبين الله تعالى؟ — أوه! نعم أحبه حقاً. — وهل تكرهين الشيطان؟ إن حبي لله قد منعه من الاشتغال بكرهية الشيطان.»

ويروى أن رابعة رأت الرسول — عليه السلام — في المنام، وهو يسلم عليها ويقول: «يارابعة! أتحبينني؟» فقالت: يارسول الله! وهل ثمت من لا يحبك؟ لكن حبي لله تعالى قد ملاً قلبي إلى حد لم يجعل ثمت مكاناً لمحبة غيره أو كراهيته.»

وسئلت رابعة: «أترين من تعبدينه؟» فأجابت: لو كنت لا أراه لما عبدته». ويروى أنها كانت دأمة البكاء، فسئلت: لماذا كل هذا البكاء؟ فأجابت: «أحشى أن ينادى صوت في اللحظة الأخيرة ويقول: إن رابعة ليست جديرة بالمثل في حضرتنا». وألقىَ عليها هذا السؤال: «إذا تاب أحد من عباد الله أتقبل توبته؟ — إذا لم يتفضل عليه الله بالتوبة، فكيف يتوب؟ وإذا تاب عليه، فلا شك في أنه سيتقبل توبته». وقالت أيضاً: «ليس من المستطاع أن تميز بالنظر المقامات المختلفة في الطريق إلى الله، ولا أن تصل إليه باللسان فلتجعل قلبك مستيقظاً. فإذا استيقظ، رأيت بعيونه الطريق وكان في وسعك بلوغ المقام». وقالت أيضاً: «إن ثمرة العلم الروحي هي أن تصرف وجهك

عن مخلوق كما توجهه إلى الله الخالق وحده ، لأن المعرفة هي معرفة الله .

ويحكى أن رابعة رأت رجلاً عصب رأسه فسألته : « لماذا عصبت رأسك ؟ فأجاب : لأنه يؤلمني — فقالت رابعة : ما عمرك ؟ — ثلاثون عاماً . — وخلال هذه الأعوام الثلاثين هل كنت في غالب أحوالك سليماً أو مريضاً ؟ — كنت في الغالب سليماً . — ولما كنت سليماً ، هل عصبت رأسك يوماً علامة نعمة ، حتى تشكو الله تعالى الآن بسبب ألم يوم وتعصب رأسك هكذا ؟ ! »

ويحكى أن رابعة كانت تعتكف إبان الصيف في بيت منعزل لا تفارقه . فقالت لها خادمتها : « سيدتي ! غادري هذا البيت وتعالى تأمل آثار قدرة الله تعالى . — فأجابتها : بل ادخلي أنت وتعالى تأمل القدرة في نفسها » — وأضافت : « إن مهمتي أنا هي أن أتأمل القدرة » .

ويحكى أن رابعة صامت سبع ليال وسبعة أيام متوالية دون أن تتناول شيئاً ، ولا تنام الليل ، منقطعة إلى الصلاة . وفي الليلة الثامنة قالت لها نفسها (الأمانة بالسوء) وهي تنوح : « يا رابعة ! إلى متى تعذبنيني هكذا دون ما هوادة ؟ » — وخلال هذا الحديث النفسى سمع صوت قرع على الباب . ففتحت رابعة ، فكان رجل أحضر لها طعاماً في كأس . فأخذته رابعة ووضعت في البيت ؛ فلما تركته لإشعال المصباح أتى قط وأكل كل مافي الكأس . فلما عادت رابعة ورأت ما حدث قالت : « سأبحث عن ماء أفطر به » . فلما ذهبت للحصول على ماء انطفأ المصباح . فعادت ورفعت الجرة للشرب ، ولكنها سقطت من يديها وانكسرت . فزفرت رابعة زفرة كاد البيت يحترق منها وصرخت : « إلهي ! ماذا أردت بهذه المسكينة ! » فسمعت صوتاً يقول : « يا رابعة ! إذا شئت أعطيناك الدنيا بأسرها ؛ ولكن يجب من أجل هذا أن نزرع الحب الذي في قلبك لنا ، لأن حبنا وحب الدنيا لا يجتمعان معاً . فقالت رابعة : لما سمعتُ أني أخاطب على هذا النحو ، نزعت من قلبي كل

تعلق بأمور الدنيا وصرفتُ نظري عن كل الدنيويات. وها أنذا قد أمضيت ثلاثين عاماً لم أصلَ فيها دون أن أقول هذه الصلاة لعلها تكون آخر صلواتي ، ولم أمل من تكرار هذا القول : إلهي ! أغرقني في حبك حتى لا يشغلني شيء عنك ! »
ويحكى أن رابعة كانت تنوح باستمرار . فسئلت : لماذا تنوحين وما من ألم تشكين منه ؟ فأجبت : « وأأسفاه! إن العلة التي أشكومنها من نوع لا يستطيع طبيب أن يشفيه ، ودواؤها الوحيد هو رؤية الله . وما يعينني على احتمال هذه العلة هو رجائي في أن أبلغ رغباتي في العالم الآخر . »

ويحكى أنه أتى إلى رابعة كثير من الصالحين، فسألت أحدهم: « وأنت ، لماذا تعبد الله تعالى ؟ - فأجاب : لأني أخاف النار - وقال آخر : وأنا أعبده خوفاً من النار وطمعاً في الجنة - فقالت رابعة : ما أسوء العبد الذي يعبد الله تعالى رجاء دخول الجنة أو مخافة النار » ، وأضافت : فإذا لم يكن ثمة جنة ولا نار ، أفلا تعبد الله تعالى ؟ - فسألوها : « وأنت ، لماذا تعبدن الله ؟ - فأجبت : أعبده لذاته . أفلا يكفيني نعمة منه أنه يأمرني بعبادته ؟ »

ويروى كذلك أن جماعة من الصالحين ذهبوا لزيارة رابعة ؛ فلما رأوها وعليها أسمال ممزقة ، قالوا : « أي رابعة ! كثير من الناس سيساعدونك إن طلبت منهم المساعدة - فأجبت : إني أخجل من أن أسأل الناس شيئاً من متاع هذه الدنيا لأن شئون الدنيا ليست ملك أحد، وما هي إلا عارية في يد من هي في يده - فقالوا : هذه امرأة نبيلة العواطف . » ثم سألوها : « إن الله تعالى قد توج رؤوس أوليائه بنعمة الكرامات ومنطقهم بها ؛ ولكن هذه المقامات لم تظفر بها امرأة . فكيف بلغت هذه المرتبة ؟ - فأجبت : ما قلتموه صحيح ، لكن الكبرياء والغرور وادعاء الألوهية لم تصدر مطلقاً عن امرأة . ولم تصر امرأة فاسقة لامرأة أخرى . »
ويروى أن رابعة مرضت . فلما سئلت ماذا أصابها أجبت : « في هذه الليلة

عند الفجر اشتاق قلبي إلى الجنة ، فأصابني الله بهـ هذه المحنة حتى يرغنى على الاحترام . . وروى الحسن البصرى ، قال : « ذهبت يوماً إلى رابعة أسأل عن أخبار مرضها ، فرأيت تاجراً يبكي . فسألته : ما يبكيك؟ فأجاب : أتيت إلى رابعة بهذا السكيس من الذهب ، وأخشى ألا تقبله . فاذهب أنت واطلب منها أن تقبله لعلها تفعل . — فدخلت على رابعة ، هكذا قال الحسن ، ولم أكد أخبرها بهذا الذى قاله التاجر حتى نظرت إلى بمؤخر عينها وقالت : إنك أيها الحسن تعرف تماماً أن الله تعالى يعطى الطعام لمن لا يركعون له ، فكيف لا يعطيه من يغلى قلبه حباً لجلاله (هو يرزق من يسبه ، أفلا يرزق من يحبه^(١)) وأنا منذ عرفت الله صرفت وجهي عن كل مخلوق . والآن ! فكيف أقبل المال من إنسان ونحن لا نعلم أهو حلال أو حرام؟! ثم قالت : ذات يوم وضع فى المصباح زيت من بيت السلطان . ورفوت ثوبي الممزق على ضوء هذا المصباح ، فظل قلبي طوال أيام مغموراً بالظلمة ولم يضىء إلا حينما شققت الثوب الذى رفوته ، فاعتذر لهذا التاجر ودعه يذهب . » .

وذات مرة جاء تاجر غنى لزيارة رابعة فرأى بيتها هو يتداعى ، فأعطاه ألف درهم من الذهب وأهداها بيتاً جيداً . فذهبت رابعة إلى البيت ، ولم تكذب تستقر فيه حتى استفرقت فى تأمل الصور التى فيه ؛ فقالت فى الحال وهى تعمد إلى التاجر الألف درهم من الذهب : « أخشى أن يتعلق قلبي بهذا البيت فلا يعود فى استطاعتي أن أشغل نفسى بعمل الآخرة . إن كل رغبتى فى أن أفرغ لعبادة الله تعالى . » .

ويحكى أن عبد الواحد بن زيد وسفيان الثورى ذهبا يوماً لزيارة رابعة . فلما أبصرها أخذها الاجلال لها فأرتج عليهما ، وأخيراً قال سفيان : « أى رابعة ! ادعى الله حتى يخفف الآلام . — فسألته : ياسفيان الثورى ! من بهت إلى بهذه الآلام ؟ — فأجاب : إنه الله تعالى . — فقالت : إذا كانت مشيئة الله أن يتمحنى

(١) فى الأصل بالعربية .

بهذه المحنة: فكيف أتوجه إليه متجاهلة إرادته؟» وقال لها سفيان أيضاً: «أى رابعة! ماذا يود قلبك؟ - فأجابت: يا سفيان! وأنت الرجل العليم، كيف تنطق بهذه العبارات؟ إن الله تعالى يعلم أن قلبي يريد منذ اثنتي عشرة سنة بلحاً ناضجاً، وهو ليس ينادر في البصرة. ومع هذا فقد بقيت حتى اليوم لا آكل منه. لست إلا عبدة. وليس لي أن أتصرف وفق أهواء قلبي، لأني إذا أردت ولم يرد هو (= الله) لكان هذا مني جحوداً - فقال سفيان: ليكن! لست بقادر على أن أحدثك في شئونك؛ لكن حدثيني أنت عن شئوني - فقالت رابعة: لولا ميلك إلى هذه الدنيا لكنت رجلاً لا غبار عليك. قال سفيان: فصرخت باكياً: إلهي! ليتك ترضى عني! فقالت رابعة: ألا تحجل من أن تقول لله: ليتك ترضى عني - دون أن تفعل شيئاً لرضاء؟»

ويروي أن مالك بن دينار قال: ذهبت إلى رابعة فوجدتها تشرب من جرة مكسورة، وقد فرشت على الأرض حصيرة عتيقة ومجدتها من اللبن. فقلت وقلبي يغلي: يا رابعة! لي أصدقاء أغنياء، فإن سمحت لي سألتهم أن يعطوني شيئاً من أجلك - فأجابت: «لقد أسأت القول يا مالك؛ إن الله تعالى هو الذي يرزقني ويرزقهم. أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء؟ فإذا كانت هذه مشيئته، فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا».

ويحكى أن مالك بن دينار والحسن البصري وشقيق البلخي ذهبوا لزيارة رابعة فتحدثوا عن الإخلاص، فقال الحسن: «ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه» - فقالت رابعة: هذا غرور. وقال شقيق البلخي: «ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه». فقالت رابعة: هناك ما هو خير من هذا. فقال مالك بن دينار: «ليس بصادق في دعواه من لا يتلذذ بضر مولاه» - فصاحت رابعة: هنالك أفضل من هذا. فقالوا لها: تكلمي أنت إذن! فقالت رابعة: «ليس

بصادق في دعواه من لم ينسَ الضرب في مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللاتي
نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف » .

وكان أحد علماء البصرة يزور رابعة فأنشأ يتحدث عن شرور هذه الدنيا
فقالت رابعة : « آه ! لا بد أنك تحب هذه الدنيا . فإن من أحب شيئاً أكثر
مذكره . فمن يريد أن يشتري ثياباً ، يتحدث عنها كثيراً . فلو أنك تجردت تماماً
عن هذه الدنيا ، فإذا يهملك من خيراتها أو شرورها ؟ »

ويروى أن الحسن البصرى قال : عند صلاة الظهر ذهبت إلى رابعة ؛
وكانت قد وضعت قدرأفیه لحم ، فلما بدأنا الحديث عن المعرفة (= معرفة الله)
قالت : لا حديث خير من هذا ؛ والأفضل أن استمر فيه على أن أطهو اللحم ؛
فولم تنفخ في النار تحت القدر . فلما فرغنا من صلاة العشاء ، أحضرت رابعة ماء
مؤخبراً جافاً . ثم أفرغت ما في القدر ، فوجد أن اللحم الذي كان فيه قد طهى
بقدرة الله . فأكلنا من هذا ، وكان له طعم لم تتذوق مثله قط .

وقال سفيان الثوري : كنت عند رابعة ذات ليلة . فصلت حتى أشرق
الفجر . وصلت أنا كذلك . وفي الصباح قالت : « يجب أن نصوم اليوم شكراً
على هذه الصلوات التي أقمناها هذه الليلة . » ويروى أنها كانت تقول وهي لهيفة
القلب : « إلهي ! إن بعثت بي يوم البعث إلى النار لأذعت سراً يبعد النار عنى
وبألف سنة . - وكانت تقول : إلهي ! كل ما قدرته لي من خير في هذه الدنيا
أعطه لأعدائك ؛ وكل ما قدرته لي في الجنة امنحه لأصدقائك ، لأنني لا أسمى
إلا إليك أنت وحدك . » وكانت تقول : « إلهي ! إذا كنت أعبدك خوف النار
فأحرقني بنارها ، أو طمعا في الجنة فخرمها علي ، وإذا كنت لأعبدك إلا من
أجلك ، فلا تحرمني من مشاهدت وجهك » .

ويروى أن رابعة قالت : إلهي ! إذا بعثت بي إلى النار يوم البعث فسأصرخ

نأحثة: « ربى ! يامن أحبه كل هذا الحب ! أهكذا تعامل من يحبونك ؟ » فسمعت صوتاً يقول: « يارابعة ! لا تظنى بنا ظن السوء ، لأننا سنعطيك مقاماً بين المؤمنين حتى تسة طيعى أن تحدثينا عن أبرارنا » .

ويروى أن رابعة قالت ذات ليلة : « إلهى ! حينما أصلى ، اصرف عن قلبى كل وساوس الشيطان ، وبمنك وكرمك تقبل الصلوات التى تخالطها تلك الوساوس » :

وحينما حضرتها الوفاة جلس حولها نفر كبير من الصالحين ، فقالت لهم : انهضوا واخرجوا ، ودعوا الطريق مفتوحة لرسل الله تعالى . فنهضوا جميعاً وخرجوا . فلما أغلقوا الباب سمعوا صوت رابعة وهى تقول الشهادة . فلما تالفت النفس الأخير ، تجمع أولئك الصالحون وغسلوها وصلوا عليها صلاة الموتى ودفنوها فى مقرها الأخير .

ورويت رابعة فى المنام فسئلت : بماذا أجابت منكر ونكير ؟ فقالت : « أتانى منكر ونكير فسألانى : من ربك ؟ فأجبت : أيها الملكان ! اذهبا وقولا لحضرة الله تعالى : أنت تأمر بسؤالى ، أنا المرأة العجوز ، بين هذا العدد من عبيدك ، أنا التى لم أعرف غيرك ! أفسيئت مرة حتى تبعث إلى بمنكر ونكير يسألانى ؟ » . وقد زار محمد بن أسلم^(١) الطوسى ونعمى الطرطوسى قبر رابعة فقالا : « يا رابعة ! لقد افتخرت بأنك لم تحن رأسك أمام هذه الدنيا ولا الآخرة ، فأين أنت الآن ! » فصاح صوت من قبرها يقول : « حبذا ما حدث لى ! ما فعلت هو ما كان على أن أفعله ، والطريق الذى اكتشفته هو السبيل السوى » . والله وحده أعلم .

(١) راجع عنه « حلية الأولياء » ج ٧ ص ٢٣٨ — ص ٢٥٣ .

* الترجمة عن الفارسية وعن الترجمة الفرنسية لياثيه دى كورتى :

فريد الدين العطار : « إلهي نامه » بتصحيح هـ . ريتز ،
استانبول سنة ١٩٤٠ ، النشريات الإسلامية ، رقم ٢٢ :

(١)

ص ٢٢٠ = ص ٢٢١ .

حكاية الحسن البصرى مع رابعة وقطيع من الحيوان

خرج الحسن ذات يوم من البصرة ، وأقبل على رابعة فى الفلاة ، وكان قد اصطف من حولها سرب من الحيوان : غزلان وغير غزلان ، ما كادت تبصر الحسن قادمًا من بعيد يسلك الدرب حتى فرت جميعًا من أمام رابعة . شهد هذا الحسنُ فاستوقد لهم صدره ، ودبت له فى النفس عقارب الغيرة . هنالك التقت إلى رابعة وسألها أن تنبئ بصدق : لماذا فرت هذه الطباء السائرة على الطريق هنالك لما أبصرتنى ، ولم تفرّ منك ؟ أنترأها لا ترانى أهلا لها مثلك ؟ فأجابته رابعة سائلة إياه سرًا : أى شئ أكلت ؟ فقال : « أكلت جذور بصل . لقد كان عندى ، أيتها الطيبة الخاطر ، بصل وقليل من الشحم ، فأرسلت فى دم القلب بضعة شحم منصر ، هى تلك التى أكلتها فى تلك الساعة التى خرجت فيها .»

سمعت رابعة منه هذا السر ، فصاحت عجبًا بنبرة خشنة فيها صوت الرجولة :
« لقد أكلت من شحم هذا القطيع المسكين ، فكيف لا تريد منها أن تفرّ منك ؟ !
آه ! لو كنت رجلاً أزومًا خفيف الزاد مثل النملة لما يسّرت لديدان قبرك أن يكظها الطعام . لو كنت لا تأكل فى اليوم إلا تمرّة واحدة . لسلم تابوتك فى القبر من الديدان ، فهل تريد أن تكون أسير الديدان ؟ إن تمرّة واحدة لهى خيرٌ لك من تسمين الدود ، وإلا صرت للدود ظهيرًا ومعينًا فى طعامها وشرايبها ، وما أتملأ

معدتك إلا من أجل هذا ، لأنك صاحب مطبخ ومبرز ، فإن لم تخضع قلبك من هذين الجحيمين ، ذهبت من جحيم إلى جحيم آخر ، بذهابك من المطبخ إلى المبرز . لقد خيل إليك أنك ، وأنت لا تصبر على الطعام لحظة ، قد نلت ربحاً كثيراً . لقد قيل لك : طهر روحك ! لكنك دائب على تعيير جسدك . ألا فلتكن لباطنك عليك حرمة أبداً . إنما أنت تتعبد في الظاهر بحسب .

لقد قال رجل أشعل الروح في نفسه : إذا أكلت لقمة فاجلس واضرب جسدك .

(ب)

ص ١٥٩ — ص ١٦٠ :

حكاية رابعة رحمها الله

كانت رابعة (العدوية) صاحبة مقام ، ومع هذا فلم تكن تأكل طوال الأسبوع ، بل كانت خلاله لا تجلس ، إنما كانت في شغل دائم بالصوم والصلاة . فإذا خفقت من الجوع وانهارت ساقاها وسرى التكسر في أعضائها ، تناولت مع طعامها كأساً حلوة مستورة الوجود .

وهكذا بقيت رابعة في الألم والحسرة ، حتى اشتعل السراج في المكان فجاءت قطة فجأة ، وكانت رابعة قد ألقت الكأس في الطريق مقلوبة ، ومضت لإحضار الكوز ، حتى يفتح ذلك القلب الذي تكنت يومه الأحزان . هنالك وقع الكوز من يدها فكسر ، وبقي الكبد ظمآن .

فاشتعل ذلك الكبد من تأوه القلب

حتى قالت : صار العالم مشبوباً بالنار

هنالك صاحت ، وفي رأسها ألف دوار : إلهي !

ماذا تريد من هذه الحائرة المسكينة ؟ !

تقد أوقعتني في التباث مريج

ولكم تلقى بي في حماة الدم النجيم

فأناها الخطاب : إن رُمت الآن أن أرزقك من شهر إلى شهر قوتاً معلوماً،
(فعلتُ) . بيد أن هذا يخرج من قلبك حزن هذه السنوات الطوال . ففكرى
فالولّه من أجلى

والدنيا المحتمالة الفرارة لا يجتمعان في قلب واحد ، ولا في مائة سنة

فإن شئت أن تكوني دائماً مولعة بي

فعليك أن تتخذى من ترك الدنيا صناعتك الدائمة

ولن تنالى الوله حتى يكون لك هذا الأمر (أى ترك الدنيا)

فالولّه من أجل الله ليس مجاناً .

(ج)

ص ٣٦١ ، تحت عنوان

حكاية أبي يزيد :

ولكن كله « مادام » ..

إذا أضاءت على امرأة عجوز حيناً ما ، ردتها مثل رابعة شابة الدنيا .

كتاب « الروض الفاضل في المواعظ والرقائق » للشيخ الحريفيش

(المتوفى سنة ١٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م)

طبع المطبعة اليمينية بمصر سنة ١٣٠٤ هـ = سنة ١٨٨٦ م :

في : « المجلس السابع والعشرون فيما يجلو القلوب من القسوة ، بذكر أخبار النسوة » :

[ص ١١٧] ٠٠٠ قال الله تعالى — وهو أصدق القائلين — : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ^(١) » ، وقال تعالى : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخالصين والخالصات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظةين والحافظة ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً ^(٢) » .

فَقَرَنَ اللهُ — سبحانه وتعالى — ذكر النساء الصالحات بالرجال الصالحين . وللنساء أحوال وزهد وخير وصلاح كما في الرجال . وفي النساء من لهن الأوراد والسياحات والكشف ، وغير ذلك من الخصوصيات التي خصَّهن الله تعالى بها كمن مَضَيْنَ منهن في الصدر الأول مثل رابعة العدوية وشعوانة وريحانة وأم الخير وغيرهن من النساء المشهورات وغير المشهورات ، كما حكى عن رابعة العدوية — رحمها الله تعالى — أنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سَطْح لها وشدت عليها دِرْعَهَا وَخَارَهَا ثم قالت : « إلهي ! نارَتِ النجومُ ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها وخلا كلُّ حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ! » ثم تُقبل على صلاتها ، فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت : « إلهي ! هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعري ! أقبِلتَ مني ليلتي فأهنا ، أم رددتها عليّ فأعزى ؟ فوعزتك هذا دأبى ما أحسنتى وأعنتى . وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحتُ عنه ، لما وقع في قلبي من محبتك . ثم أنشدت :

يا سرورى ومنيتى وعمادى وأنيسى وعُدَّتى ومرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائى أنت لى مؤنسٌ وشوقك زادى
أنت لولاك ، يا حياتى وأنسى ، ماشئتُ في فسيح البلاد

(١) سورة الفتح : ٢٥ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٥ .

كَمْ بَدَتْ مِنْهُ وَكَمْ لَكَ عِنْدِي مِنْ عَطَاءٍ وَنِعْمَةٍ وَأَيَادِي
حُبِّكَ الْآنَ بُعِثِي وَنَعِيمِي وَجَلَالَ لَعِينِ قَلْبِي الصَّادِي :
لَيْسَ لِي عِنْدَكَ مَا حِيدَتْ بِرَاحٍ أَنْتَ مِنِّي مُمَكِّنٌ فِي السَّوَادِ
إِنْ تَكُنْ رَاضِيًا عَلَيَّ فَإِنِّي يَا مَتَى الْقَابِ! قَدْ بَدَأَ إِسْعَادِي

وقال سعد بن عثمان : كنت مع ذى النون المصرى رحمه الله فى تيه
بنى إسرائيل ، وإذا بشخص قد أقبل ، فقلت : يا أستاذ ! شخصٌ قد آتى . فقال
لى : انظر من هو ، فإنه لا يضع أحدٌ قدمه فى هذا المكان إلا صدِّيق . فنظرت
فإذا هى امرأة ، فقلت : إنها امرأة . صدِّيقة ورب الكعبة : فابتدر إليها وسلم
عليها فقالت : ما للرجال ومخاطبة النساء ! فقال : أنا أخوك ذو النون ولست من
أهل التهم . فقال : مرحباً ! حياك الله بالسلام ! فقال لها : ما حملك على الدخول
فى هذا الموضوع ؟ فقالت : آية من كتاب الله عز وجل - قوله تعالى : « ألم تكن
أرض الله واسعةً فهاجروا فيها » ^(١) ؟ ! - فقال لها : صفى لى الحبة . فقالت :
سبحان الله . أنت عارفٌ بها وتكلم بلسان المعرفة وتسالنى عنها ؟ ! فقال لها :
للسائل حق الجواب . فأنشدت تقول :

أحبك حين : حب الهوى
وحيباً لأنك أهلٌ لذا
فأما الذى هو حب الهوى
فذكرٌ شغلت به عن سواكا
وأما الذى أنت أهل له
فكشفت لى الحجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى
ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

(آخر) :

يا حبيب القلب مالى سواكا
فارحم ، اليوم ، مُذنباً قد أتاك
يا رجائى وراحتى وسرورى
قد أبى القلب أن يحيب سواكا

(وقيل) إنه للمات زوج رابعة العدوية استاذن الحسن البصرى فى الدخول

عليها هو وأصحابه . فأذنت لهم وأرخت ستراً وجلست وراءه . فقال لها أصحابه :
إِنَّهُ قَدْ مَاتَ بِعَلِّكَ وَلَا بَدَلَكَ مِنْ زَوْجٍ وَقَدْ انْقَضَتْ عِدَّتُكَ ، فَأَخْتَارِي مِنْ هَؤُلَاءِ
الزَّهَادِ مَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ . فقالت : نعم ! حباً وكرامة ! من هو أعلمكم حتى أزوجه
نفسى ؟ قالوا : الحسن البصرى . فقالت له : إن أحببتي عن أربع مسائل فأنا لك
أهل . فقال لها : سَلِي فَأَنَا أَحْبَبُكَ إِنْ وَقَفَنِي اللَّهُ تَعَالَى . قالت : ما يقول الفقيه
العالم إذا أُنْمِتُ : هل خرجت من الدنيا مسلمة أم كافرة ؟ فقال : هذا غيب ،
والغيب لا يعلمه إلا الله (١١٨) تعالى . قالت : فما يقول إن وُضِعْتُ فِي الْقَبْرِ
وسألني منكر ونكير ، أفأقدر على جوابهما ، أم لا ؟ قال : وهذا أيضاً غيب .
قالت : فإذا حُشِرَ النَّاسُ فِي الْقِيَامَةِ وَتَطَايَرَتِ الْكُتُبُ فَيُعْطَى بَعْضُهُمْ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ
ويعطى بعضهم كتابه بشماله — أفأعطى أنا كتابي بيمينى أم بشمالى ؟ قال :
وهذا أيضاً غيب . قالت : فإذا نودى فى الخلائق : فريق فى الجنة وفريق
فى السعير ، فمن أى الفريقين أكون ؟ قال لها : وهذا أيضاً غيب ولا يعلم الغيب
إلا الله عز وجل . فقالت له : فإذا كان الأمر كذلك ، وأنا فى قلق وكرب من هذه
الأربعة ، فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له ! ثم أشدت :

راحتى ، يا أخواتى ، فى خلوتى وحيبى دائماً فى حضرتى
لم أجد لى عن هواه عوضاً وهواه فى السبرايا محنتى
حيثما كنتُ أشاهدُ حسنه فهوَ محرابى إليه قبلى
إن أُمْتُ وَجِدْداً وما ثم رضا وأعتابى فى الورى ! وإشقتوى !
يا طيب القلب يا كلَّ المنى جُذْ بوصل منك يشفى مهجتى
يا سرورى وحياتى دائماً نشأتى منك وأيضاً نشوتى
قد هَجَرْتُ الخلقَ جمعاً أرتجى منك وَصِيلاً ، فَهُوَ أَقْصَى مُنْتَهَى

— ١٨ —

« النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى »، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩
ج ١ ص ٣٣٠ س ٩ — س ١٣ :

في كلامه عن سنة ١٣٥ : « . . . وفيها توفيت رابعة العدوية البصرية
الزاهدة العابدة ، وكانت مولاة لآل عتيك ، وكان سفيان الثوري وأقرانه يتأدبون
معها ؛ وكانت رابعة تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مُصَلَّأَها هجمة خفيفة
حتى يُسْفِرَ الفجر ثم تثب إلى الصلاة وتقول : يا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم لاتقومين !
يوشك أن تنامين (كذا) نومة لاتقومين منها إلا بصرخة < يوم النشور > .
ج ٢ ص ١٥ س ١٤ — س ١٥ :

في كلامه عن سنة ١٥٠ : « . . . وفيها توفي عبد العزيز بن سليمان أبو محمد
الراسبي من الطبقة السادسة من تابعي أهل البصرة : كان عابداً زاهداً ، كانت
رابعة تسميه سيد العابدين ؛ كان إذا ذكر القيامة والموت صرخ كما تصرخ الثكلى
ويصرخ الحاضرون من جوانب المسجد ، وربما وقع الميت والميتان من جوانب
المسجد ؛ قاله أبو المظفر^(١) في « مرآة الزمان » .

ج ٢ ص ١٠٠ س ١٣ — س ٢٤ :

في كلامه عن سنة ١٨٠ : « الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة »
قال : وفيها توفي . . . ورابعة العدوية . . . قالت : وقد تقدّمت وفاتها في قول
غير الذهبي .

— ١٩ —

« الكشكول » لمجد بهاء الدين العاملي ، طبع بولاق سنة ١٢٨١ ص ١٣٤ :
« قيل لرابعة العدوية : متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ قالت :
إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة .

(١) أي سبط ابن الجوزي .

«وقيل لها يوماً: كيف شوقك إلى الجنة؟ فقالت: الجار قبل الدار.
ومن كلامها، نفعتنا الله بها: ما ظهر من عملي فلا أعده شيئاً^(١)» .

أبو محمد عبد الله بن أسعد الليافعي المتوفى سنة ٧٦٩ هـ = سنة ١٣٩٨ م

« روض الرياحين في حكايات الصالحين »

القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ = سنة ١٩٠٦ م ، ص ١٠١ :

(١) « الحكاية السابعة والثمانون بعد المائة » عن خادمة رابعة العدوية

رضى الله عنها قالت :

كانت رابعة تصليّ الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت هجمة في مُصَلَّآهَا حتى يسفر الفجر ؛ فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فزّعة: يا نفس ! إلى كم تنامين؟ وإلى كم لاتقومين؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا بصرخة يوم النشور .

قالت (أى خادمة رابعة) : وكان هذا دأبها إلى أن ماتت . فلما حضرتها الوفاة ، دعتنى وقالت: لاتؤذنى بموتى أحداً ، وكفّنينى فى جُجَّتِي هذه — وكانت جبة من شعر تقوم فيها إذا هدأت العيون . قالت : فكفّناها بتلك الجبة وفى خمار صوف كانت تلبسه . فرأيتها فى المنام عليها حُلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً قط أحسن منها . قلت : يارابعة ! ما فعلت بالجبة التى كفناك بها . والحمار الصوف ؟ قالت : إنه والله نزع عنى وأبدلت به هذا الذى ترينه ؛ ووطويت أ كفانى وختمتُ ورُفعتُ فى عليين ليكون لى ثوابها يوم القيامة . فقلت لها :

(١) « قيل لرابعة العدوية : بم ترحبين أكثر ما ترحبين ؟ فقالت: يأسى من جل عملي » .

« الكشكول » لمحمد بن عبد الله بن العاصمى ، طبع القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ ، ص ٢٦٣ س ٢٠ .

لهذا كنت تعملين أيام الدنيا؟ فقالت: وما هذا عند ما رأيت مما أعدّ الله من كرامات،
الله عز وجل لأوليائه! قلت مَرِينِي بِأَمْرٍ أَتَقْرَبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى! فقالت: عليك،
بكثرته ذكره، يوشك أن تغتبطى بذلك في قبرك.

(ب) « الحكاية الثامنة والثمانون بعد المائة » -

روى عن أحمد بن أبي الحواري—رضى الله تعالى عنه— قال: كان لرابعة
أحوال شتى—يعنى زوجته رابعة الشامية— قال: فمرة يغلب عليها الحب،
ومرة يغلب عليها الأُنس، ومرة [١٠٢] يغلب عليها الخوف. فسمعتها في حال
الخوف تقول:

حبيب ليس يعدله حبيبُ	وما لسواه في قلبي نصيبُ
حبيبٌ غاب عن بصرى وشخصى	ولكن عن فؤادى لا يغيبُ
وسمعتها في حال الأُنس تقول:	
ولقد جعلتك في الفؤاد محذئى	وأبحتُ جسدى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس	وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسى
وسمعتها في حال الخوف تقول:	
وزادى قليلٌ ما أراه مُبَآئى	ألزاد أبكى، أم ل طول مسافتى
أتحرقنى بالنار يا غاية المنى!؟	فأين رجائى فيك أين مخافتى!؟

قال (أى أحمد بن أبي الحواري): وقلتُ لها وقد قامت بليل: ما رأينا من
يقوم الليل كدُّه غيرك! فقالت: سبحان الله! مثلك يتكلم بهذا!؟ إنما أقومُ إذا
نوديت. قال: جلستُ أأكل في وقت قيامها، فجعلت تذكّرنى. فقلت لها: دعينا
نَهْنَنَ بطعامنا. فقالت: ليس أنا ولا أنت ممن يتنصص عليه الطعام عند ذكر الآخرة.

وقالت: لست أحبك حبّ الأزواج، وإنما أحبك حبّ الإخوان.
وكانت إذا طبخت قدرًا قالت: كلها ياسيدى! فما نضجت الا بالتسبيح.

قال : وقالت لى اذهب فتزوج ، فتزوجت ثلاثاً . وكانت تطعمنى اللحم
وتقول : اذهب بقوتك إلى أهلك .

وقالت : ربما رأيت الجن يذهبون ويحيثون ، وربما رأيت الحور العين .
رضى الله عنها ونفعنا بها .

قلتُ : الظاهرُ — والله أعلم — أن هذه الرؤية المذكورة كانت فى اليقظة ،
فأما رؤية المنام فلغير الأولياء .

وهذه رابعة الشامية ، زوجة ابن أبى الحوارى كما ذكرناه ، وليست رابعة
العدوية البصرية التى تقدمت . وبعض أهل العلم يقول : هذه الشامية رابعة بالياء
المثناة المنقوطة بنقطتين من تحت ؛ وبعضهم يقول بنقطة واحدة كرابعة البصرية —
رضى الله عنها ونفع بهما أجمعين .

حكايات عن رابعة العدوية

(١) المخطوط رقم ١٢٤٢ عربى بالقاتيكان ، ورقة ١٨٣ :

قيل : دخل لص على رابعة العدوية رحمها الله تعالى ليلاً ، فنظر فى البيت
يميناً وشمالاً فلم يجد غير إبريق . فلما هم بالخروج قالت له رابعة : يا هذا ! إن كنت
من الشطار فلا تخرج بغير شىء . فقال : إنى لم أجد شيئاً . فقالت : يا مسكين !
توضاً بهذا الإبريق وادخل فى هذا المدع ، وصل ركعتين ، فإنك ما تخرج
إلا بشىء . ففعل ما أمرته . فلما قام صلى رفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت :
سيدى ومولاي ! هذا قد أتى بابى ولم يجد شيئاً عندى ، وقد أوقفته ببابك
فلا تحرمه من فضلك وثوابك !

فلما فرغ من صلاة الركعتين ، لذت له العبادة ، فما برح يصلى إلى آخر

الليل ، فلما كان وقت السحر دخلت إليه رابعة فوجدته ساجداً وهو يقول
في سجوده معاتباً نفسه - شعراً - :

إذا ما قال لى ربى أما استحييت تعصينى
وتخفى الذنب من خلقى وبالعصيان تأتبنى
فما قولى له لما يعاتبنى ويقصينى !؟

فقال له : حبيبي ! كيف كانت ليلتك ؟ فقال : بخير ، ووقتُ بين يدي
مولاي بذُلى وافتقارى ، فقبِلَ عذرى وجَبَرَ كسرى ، وغفر لى الذنوب ،
وبلغنى المطوب .

ثم خرج هائماً على وجهه . فرفعت رابعة كَفِّها إلى السماء وقالت : سيدى
ومولاي ! هذا وقف ببابك ساعةً فقبلته ؛ وأنا منذ عرفتك بين يديك أُتراك
قبلتنى ؟ فنوديتُ فى سرِّها : يارابعة ! من أجلك قبلناه ، وبسببك قربناه .

(ب) المخطوط رقم ٢٩٦ فاتيكان ص ٧٧ ب ، ضمن رسالة تسمى « كتاب
الصلاة » مجهولة المؤلف :

« وذكر أن رابعة العدوية كانت فى الصلاة ، فسجدت على البوارى
فدخلت قطعة قصب فى عينها فلم تشعر بها حتى إذا انصرفت من الصلاة . . . »
(أى إلى أن انصرفت من الصلاة) .

ذُكرها العطار فى « تذكرة الأولياء » : (راجعه قبلُ ص ١٤٨)

عبد الرحمن الجامى (المتوفى سنة ١٨٩٨ هـ = ١٤٩٢ م) : « نفحات الأنس
من حضرات القدس » ، مخطوط رقم ١٢٤ بالمكتبة الشرقية بجامعة القديس

يوسف ببيروت (راجع فهرست شيخو لها ، ص ٢٨٤ — ص ٢٨٥ ،
تحت رقم ١٢٤ : (١)

(٤٠٤) في ذكر النساء العارفات (٤٠٥) الواصلات إلى مراتب الرجال ...
رابعة العدوية رحمها الله تعالى :

كانت من أهل البصرة . وكان يزورها سفيان الثوري رضى الله عنه ويسألها
بعض المسائل ، وكان من المولعين بوعظها ودعائها . أتانا يوماً ورفع يده وقال :
« اللهم إني أسألك السلامة ! » فبكت رابعة . فسألها سفيان : ما يبكيك ؟
فقالت : أنت الذى عرضتنى للبكاء . فسألها : وكيف ذلك ؟ فقالت : ألم تعلم
أن سلامة الدنيا هي فى تركها ؟ وأنت غارق فيها ! ومن كلامها : لكل شيء
ثمرة ، وثمره العلم والمعرفة هي التقرب إلى الله . ومن قولها كذلك : أستغفر الله
من قلة صدق فى قولى أستغفر الله .

سألها سفيان يوماً : ما خير ما يتقرب به العبد إلى الله ؟ فأجبت : ألا يملك
فى الدنيا والآخرة شيئاً سواه .

وقال سفيان يوماً فى حضرتها : « واحزنانه ! » (٤٠٦) فقالت : « إنك
لتكذب ! إن كنت محزوناً ما هناك عيش . »

فى « كنوز الأولياء ورموز الأصفياء » لأبى الليث محرم بن أبى البركات
محمد الزبلى ، المخطوط بالظاهرية بدمشق برقم ٣٩٧٢ عام ، ترجمة صغيرة لرابعة
العدوية تقع من ١٤١ ب إلى ١٤٢ ب ، وأورد فيها عبارة العطار عن سبب ذكره

(١) سنتنصر هنا على ذكر الترجمة لهذا النص الفارسى الذى نشره من قبل ليس — نساو
Less-Nassau ص ٧١٦ ؛ وإن كنا لم نتمد عليه ، بل على المخطوطة المذكورة .

لها في صف الرجال^(١)، ثم نقل عن « رسالة القشيري » ثم عن ابن الجوزي ؛
وليس فيها شيء لم يرد في المصادر الأخرى .

ابن العماد الحنبلي ، « شذرات الذهب » ، طبعة القدسي ، القاهرة سنة
١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ م ، ج ١ ص ١٩٣ ، أخبار سنة ١٣٥٠ هـ :
« وفيها رابعة بنت اسماعيل البصرية العدوية ، شهيرة الفضل . وقيل توفيت
سنة خمس وثمانين ومائة ، ولا يصح اجتماع السريّ (= السري السقطي) بها ،
فإنه عاش حتى نيف الخمسين ومائتين . وروى أن سفيان الثوري قال بحضرتها :
واحزنناه ! فقالت : لا تكذب ! وقل : واقلة حزناه ! وسمعتة يقول : اللهم إني
أسألك رضاك . فقالت : تسأل رضا مَنْ لست عنه براصٍ ! وراها بعض إخوانها
في المنام فقالت : « هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمّرة بمناديل من نور . »
وقبرها على رأس جبل يسمى الطور ، بظاهر بيت المقدس ؛ وقيل : ذلك
قبر رابعة أخرى غير العدوية . وقيل لها في منام : ما فعلت عبيدة بنت أبي كلاب ؟
قالت : سبقتنا إلى الدرجات الملا . قيل : ولم ذلك ؟ قالت : لم تكن تبالي
على أيّ حالٍ أصبحت من الدنيا وأمست .

كتاب « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع »

تأليف أبي الحسين محمد بن أحمد اللطفي

في الحديث عن مذاهب الزنادقة :

ومنهم الروحانية ، وهم أصناف . وإنما سموا الروحانية لأنهم زعموا أن أرواحهم

تنظر إلى ملكوت السموات؛ وبها يعاينون الجنان ويجامعون الحور العين؛ وتسرح في الجنة. وسموا أيضاً الفكرية لأنهم يتفكرون في هذا حتى يصيرون إليه؛ فجعلوا الفكر بهذا غاية عبادتهم ومنتهى إرادتهم؛ ينظرون بأرواحهم في تلك الفكرة إلى هذه الغاية فيتلذذون بمخاطبة الإلهية لهم ومصاحفته إياهم ونظرهم إليه زعموا؛ ويتمتعون بجامعة الحور العين ومفاحة الأبيكار على الأرائك متكئين، ويسعى عليهم الولدان الخلدون بأصناف الطعام وألوان الشراب وطرائف الثمار. ولو كانت الفكرة في ذنوبهم الندم عليها والتوبة منها والاستغفار، لكان مستقيماً. وأما هذه الفكرة فبترها لهم الشيطان، لأنه لا يتلذذ بلذات الجنة إلا من صار إليها يوم القيامة -- وهكذا وعد الله عباده المؤمنين والمؤمنات.

ومنهم صنف من الروحانية زعموا أن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى يكون حبه أغلب الأشياء عليهم. فإذا كان كذلك عندهم وكانوا عنده بهذه المنزلة وقعت عليهم الخلة من الله فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها على وجه الخلة التي بينهم وبين الله، لا على وجه الحلال، ولكن على وجه الخلة كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه [٩١] — منهم رباح وكليب، كانا يقولان بهذه المقالة ويدعون إليها كذبوا! أعداء الله! وكيف يكون ذلك وإبراهيم الخليل — خليل الرحمن عليه السلام — يسأل يوم القيامة أن يشفع للناس إلى ربهم ليحكم بينهم فيقول: لست هناك، ويذكر ثلاث كذبات — كذا روى عن النبي عليه السلام أنه قال.

ومنهم صنف من الروحانية زعموا أنه ينبغي للعباد أن يدخلوا في مضمار الميدان حتى يبلغوا إلى غاية السبقة من تضيير أنفسهم وحملها على المسكروه. فإذا بلغت تلك الغاية أعطى نفسه كل ما يشتهي وتمنى، وأن أكل الطيبات كأكل الأرزاق من الأطعمة، وكان الصبر والحبيص عنده بمنزلة، وكان العسل والحل عنده بمنزلة.

فإذا كان كذلك فقد بلغ غاية السبقة وسقط عنه تضمير الميدان وأتبع نفسه ما شئت .
منهم ابن حيان ، كان يقول هذه المقالة .

ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا اشتغال للقلوب وتعظيم (ص : تعظيماً)
للدنيا ومحبة لها : لما عظمت عندهم تركوا طيب طعامها ولذذ شرابها ولين لباسها
وطيب رائحتها . فأشغلوا قلوبهم بالتعلق بتركها ؛ وكان من إهانتها مؤاتاة الشهوات
عند اعتراضها حتى لا يشتغل القلب بذكرها ويعظم عنده ما ترك منها > ورياح
وكليب < كانا يقولان هذه المقالة .

ومنهم صنف زعموا أن الزهد في الدنيا هو الزهد في الحرام . فأما الحلال
فباح لهذه الأمة من أطيب [٩٢] الطعام وغرائب الألوان وكفاية الخدم ولين
الرياش وسعة المنازل ووطاء المهاد وتشديد القصور وكفاية الحاجات وتركية
الطلبات وقضاء الأوطار . وأن الأغنياء أفضل منزلة عند الله من الفقراء لما
أعطوا من فضل أموالهم وقضوا من نوائب حقوقهم وأدركوا من منتهى
رغبتهم هم . — لقد قالوا خلاف ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — رواه
أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم
— خمسمائة عام . وروى عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً .
[مخطوط بالظاهرية بدمشق برقم ٥٩ توحيد ص ٩٠ — ٩٢]

من كتاب « شرح حال الأولياء » تصنيف الشيخ عز الدين بن عبد السلام
ابن غانم المقدسي ، مخطوط رقم ١٦٤١ عربي بالمكتبة الأهلية بباريس :
(١٢٥٣) شرح حال رابعة رضى الله عنها

كيف رأيت ^(١) الحبة ؟ قالت : ليس للمحب وحييه بين ، وإنما هو نطق

عن شوق ، ووصف عن ذوق . فمن ذاق عرف ، ومن وصف فما اتصف . وكيف
تصف شيئاً أنت في حضرته غائب ، وبوجوده دائب ، وبشهوده ذاهب ،
وبصحوك منه سكران ، وبفراغك^(١) له ملآن ، وبسرورك له ولهان ! فاهلية
تخرس اللسان عن الإخبار ، والحيرة توقف الجبان عن الإظهار ، والغيرة تحجب
الأبصار عن الأغيار ، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار . فاثمَّ إلا دهشة دائمة ،
وحيرة لازمة ، وقلوب هائمة ، وأسرار كاتمة ، وأجساد [٢٥٣ ب] من النقم غير
سالمة ، والحبة ، بدولتها الصارمة ، في القلوب حاكمة — (شعر):

وارحمتا للعاشقين ! قلوبهم في تيه ميدان المحبة هائمة
قامت قيامة عشقهم فنفسهم أبدأ على قَدَمِ التدلُّلِ قائمه
إمّا إلى جنات وصل دائم أو نار صيد للقلوب مُلازمه

يا رابعة ! فأنت^(٢) في ميدان المحبة رائعة ، فكيف كانت صورة الواقعة ،
حتى سميت رابعة ؟ والحلمة واحدة ، فمن أين هذه الشركة والمجامة ؟ فقالت :
يا قوم ! الموافقة شرط في الصحبة . أما نظرت إلى بنى الرغبة والرغبة ، إلى أن
شرب بجر المحبة في شربه ، فرأيته يقول لصاحبه في الفار : « لا تحزن إن الله
معنا » ما ظنك باثنين إن الله ثالثهما ؟ فتقدمت إلى خلوة الفار بأقدام المبياعة ،
فصاحت الغيرة من داخل الفار : ما هذه الواهية الجازعة ، التي كشفت القناع
ولم^(٣) تكن بدوتنا قانعة ؟ (شعر) :

كأسى وخمري والنديم : ثلاثة وأنا المشوقة في المحبة : رابعة
كأس السرّة والنعم يديرها ساقى المدام على المدى متتابعه
فإذا نظرتُ فلا أرى إلا له وإذا حضرتُ فلا أرى إلا معه
يا عاذلى إني أحب جماله تا الله ما أدنى لمَسَدِكَ سامعه

(٢) م : كم ..

(٢) م : فأنتى .

(١) م : بفرفك .

نكم بت من حرقى وفرط تعلقى (١) أجرى هيونان من عيونى (٢) الدامعه
لا عبرتى ترقا، ولا وصلى له يبقى ولا عينى القريحة هاجمه

« كتاب سير السالكات المؤمنات الخيرات » لأبى بكر الحصى ، مخطوط
رقم ٢٠٤٢ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ١٢٦ :

... ومنهن رابعة العدوية

وكانت عجوزاً كبيرة بنت ثمانين سنة ، كأنها الشن تكاد تسقط وتحتمها بارية.
وكانت (٣) إذا ذكرت الموت انتفضت وأصابتها رعدة . قال مسمع ورباح : أنها
رجل بأربعين ديناراً ، فقال : استعيني بهذه الدنانير على بعض حوائجك ! فبكت
ثم قالت : هو يعلم أنى أستحي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أريد
أن آخذها من لا يملكها ؟! قال عبد الله بن عيسى : دخلت على رابعة فرأيت
على وجهها النور وكانت كثيرة البكاء . فقرأ رجل آية فيها ذكر النار ؛ فسقطت ،
وسمعت وقع دموعها على البارية مثل الوكف وصاحت . فقمنا وخرجنا .

وكانت — رضى الله عنها — إذا مرت بقوم عرفوا فيها العبادة ، فقال لها
رجل : ادعى لى ! تلتصق بالحائط وتقول : من أنا يرحمك الله عز وجل ؟
أطع ربك وادءه فإنه يجيب المضطر .

قال ابن منظور : دخلت على رابعة وهى ساجدة . فلما أختت بمكانى رفعت
رأسها فإذا موضع وجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها . فسلمت ، ثم أقبلت على
وقالت : يابنى ! ألتك حاجة ؟ فقلت : جئتك لأسلم عليك . قال فبكت وقالت
[٢٦٦ هـ] سترك اللهم سترك اودعت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة وانصرفت

وقالت : استغفر الله - عز وجل - من قلة صدقي في قولي : أستغفر عز وجل .

لله درؤها من امرأة !

ما أنور قلبها !

قال أزهر بن هارون : دخل على رابعة رباح القيسي وصالح بن عبد الجليل وكلاب ، فتذاكروا الدنيا فأقبلوا يذءونها . فقالت رابعة : إني لأرى الدنيا ييرا بيعها في قلوبكم . فقالوا : ومن أين توهمت علينا ذلك ؟ فقالت : إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلمتم فيه .

قال لها شيخ من قريش : هل عملت عملا ترين أنه يُقبل منك ؟ فقالت : إن كان ؛ فمخافتي أن يُرد علي .

قال جعفر بن سليمان : أخذ بيدي سفيان الثوري وقال : مَر بنا إلى المؤدبة التي لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها . فلما دخلنا عليها رفع سفيان يديه وقال : اللهم إني أسألك السلامة ! فبَكَت رابعة فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : أنت عرَّضتني للبكاء . فقال لها : وكيف ؟ فقالت : أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها ؟ فكيف وأنت متلطح بها ! فقال سفيان : واحزنانه ! فقالت : لا تكذب ، قل : واقلة حزنانه ! لو كنت محزوناً ما هناك العيش . قالت : ياسفيان ! إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل : وأنت تعلم ، فاعمل .

كانت عبدة تحمد رابعة ؛ وكانت تقول عن رابعة : إنها تصلى الليل كله فإذا طلع الفجر [ف] كنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها وهي فرعة : يا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين . يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا بصرخة يوم النشور . قالت عبدة : وكان هذا دأب رابعة ، دهرها ، حتى ماتت . فلما حضرتها الوفاة قالت : يا عبدة ! لا تؤذني بوفاتي أحداً وكذبتني في جُبتى هذه - وكانت من

شعر ، تقوم فيها إذا هدأت العيون [٢٧ ا] - قالت : فكفناها في تلك الجبة وخار صوف كانت تلبسه .

قالت عبدة : فرأيتها بعد سنة أو نحوها في منامى وعليها حلة استبرق خضراء وخار من سندس أخضر لم أر شيئاً مثله . فقالت : يارابعة! ما فعلت [ب] الجبة التي كفناك بها والخار الصوف ؟ فقالت رابعة : والله نزع منى فأبدلت به هذا الذي ترينه على ؛ وطُـوِيت أ كفاني وُخِمَ عليها؛ ورُفِعَت في عليين ليكون لي ثوابها يوم القيامة . فقلت لها : لهذا كنت تعملين في الدنيا ؟ فقالت : وما هذا عندما رأيت من كرامة الله عز وجل لأوليائه ! فقلت : فما فعلت بنت أبي كلاب ؟ فقالت : هيهات هيهات ! والله ! سبقتنا والله إلى الدرجات العلى . فقلت : وبم وقد كنت عند الناس أكثر منها ؟ فقالت : لم تكن تبالي على أى حالة أصبحت من الدنيا وأمست . فقلت : ما فعل بشر بن منصور ؟ فقالت : بَخِ بَخِ ! أعطى والله فوق ما كان يأمل . فقلت : فمريني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل . فقالت : عليك بكثرة ذكره ، فيوشك أن تغتبطى بذلك في قبرك . والله أعلم .

* * *

[٣٨ ب] (رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري) .

٠٠٠ ومنهن رابعة بنت اسماعيل ، زوجة أحمد بن أبي الحواري خادم أبي سليمان^(١) رضى الله عنهم .

وهذه رابعة شامية ؛ ورابعة العدوية بصرية . قال أحمد بن أبي الحواري : قلت لزوجتي رابعة وقد كانت تصلى بليل : قد رأينا أبا سليمان وتعبنا معه ، فما رأينا من يقوم من أول الليل ! فقالت : سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا ! إنما أقوم إذا نوديت .

(١) أبو سليمان الداراني ، الصوفى الشافى المشهور المتوفى سنة ٢٠٥ هـ .

قال (أى ابن أبى الحوارى) : وجلست آكل فجعلتُ تذكرنى . فقلت : دعينا [٣٩] يهنا^(١) طعامنا بطعامنا فقلت : ليس أنا وأنت ممن يتنقص عليه الطعام عند ذكر الآخرة .

قال أحمد : قالت لى : أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله عز وجل أطلعه الجبارُ على مساوىء عمله فنشغل به دون خلقه ؟

وقال : قالت لى : إني لأضن^(٢) باللقمة الطيبة أن أطمعها نفسى ، وإنى لأرى ذراعى قد سمن فأحزن — ومعنى أضن أبخل أن آكلها ، نظراً منها إلى قوله عز وجل : « لن تناولوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون » . وأما خوف السمّن من ذراعها فلاجل أكل الدود له وخوفاً من وقوف يوم الحساب لأجل كثرة الأكل ، رضى الله عنها .

قال : وكنتُ إذا نظرتُ إلى وجهها ورقبتها فأحزن لذلك .

قال : وكانت تقول : لست أحبك حب الأزواج ، إنما أحبك حب الإخوان ؛ وإما رغبتُ فيك رغبة فى خدمتك ؛ وإما أحبُّ وأتمنى أن يأكل مالى مثلك ومثل إخوانك .

وكانت إذا طبخت قدرًا قالت : كله يا سيدى فما نضجتُ إلا بالتسبيح .

وقالت : لست أستحلُّ أن أمنعك نفسى وغيرى ، اذهب فتزوج ! فتزوجت ثلاثًا فكانت تطعمنى اللحم وتقول : اذهب بقوتك إلى أهلك . وكنتُ إذا أردت قربها نهاراً تقول : أسألك بالله تعالى لا تفطرنى اليوم ، وإذا أردتها بالليل تقول : أسألك بالله لما وهبنى الله عز وجل هذه الليلة .

وكان معها سبعة آلاف درهم أنفقتها على .

وكانت تقول لى : ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادى يوم القيامة ؛ ولا رأيت

(١) ص : يهنا

(٢) فى الصلب : لأظن ؛ والتصحيح بالهامش .

الثالج إلا ذكرت تطاير الصحف ؛ ولا رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر .
قال : وكانت تقول : ربما رأيتُ الجن يذهبون ويمحيثون ؛ وربما رأيتُ
الحور العين يستترن مني بأكامهن ؛ وقالت بيدها على رأسها .
ودعوتها يوماً فلم تجبني . فلما كانت بعد ساعة أجابتني وقالت : إنما منعي .
أن أحبيك أن قلبي قد كان امتلاً فرحاً بالله عز وجل (٣٩ ب) فلم أقدر
أن أحبيك .

قال أحمد : كان لرابعة زوجتي أحوال شتى : مرة يغلب عليها الخوف ومرة
يغلب عليها الأُنس ، ومرة يغلب عليها الحب . سمعتها في حال الحب تقول :
حبيبٌ ليس يعُدلهُ حبيبٌ ولا لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب^(١) عن بصرى وشخصي ولكن عن فؤادي لا يغيب .
وسمعتها في حال الأُنس تقول :
ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي .
فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلمي في الفؤاد أنيسي .
وسمعتها في حال الخوف تقول :
وزادى قليلٌ ما أراه مبلغى أَلزاد أبكى ، أم لطول مسافتي ؟
أتحرقني بالنار يا غاية المنى ؟ فأين رجائي فيك ! أين مخافتي ؟
والله أعلم .

« مرآة الزمان » لأبي المظفر يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي .
المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (= ١٢٥٧ م) ، مخطوط رقم ١٥٠٥ بالمكتبة الأهلية .

بيارس* ورقة ١٦١ ب (أخبار سنة ٢٤٦ هـ بعد الكلام عن زوجها أحمد ابن أبي حوارى) .

ذكر زوجة أحمد بن أبي الحوارى

عامّة الرواة على أن اسمها رابعة ، وكانت فى العبادة والزهد مثل رابعة بالبصرة ، لا بل أبلغ .

وروى عن أحمد بن أبي الحوارى أنه قال : كانت إذا طبخت قدراً تقول لى : كلها ! فوالله ما أنضجتها إلا بالتسبيح .

وروى أبو عبد الرحمن السلمى (١١٦٢) أنها قالت لزوجها أحمد : « ربما رأيت الحور العين يذهبن فى دارى ويحئن ويستترن بأكماهن منى » .

وروى ابن باكوويه عن أحمد بن الحوارى قال : قات لرابعة — وكانت تقوم الليل — : قدر أينما أباسليمان وتعبدنا معه ؛ ما رأينا من يقوم الليل^(١) إلا أنت^(٢) — قالت : سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا الكلام ! إنما أقوم^(٣) إذا نوديت .

وحكى أبو نعيم عن سرى السقطى قال : قدمت الشام فدخلت على أحمد بن أبي الحوارى المسجد فسلمت عليه وقالت : عظى وأوجز ! فقال : ما أحسن ؛ ولكن سر^(٤) إل المنزل فيه من يحسن . قال : فخرجت أطلب منزله ؛ وإذا براهب كبير ، خلفه صغير . فقلت للصغير : لم تتبع هذا ؟ فقال : لأنه طيبى يسقبنى الدواء . قال : فورد على قلبى من كلامه شىء لأعقله ؛ فجئت إلى أحمد فطرقت الباب ؛ فكلمتنى امرأة من وراء حجاب ، فذكرت لها قول الراهب . قال : فقالت « ياليت شعرى أى داء يسقيه : دواء الإفاقة أم دواء الراحة ! » فقلت : بينى ما تقولين .

* للمخطوط ترقيان لصفحاته أحدهما بالعربية والآخر بالفرنسية ويختلفان بقدر ورقة ، وقد اخترنا الثانى .

(١) وردت مكررة فى الأصل . (٢) ص : أنى (٣) ص : تقوم . (٤) ص : صير

فقلت : « أما دواء الإفاقة فالكف عن محارم الله تعالى ؛ وأما دواء الراحة فالرضا عن الله تعالى ». قال سرى : فوالله ما خرج كلامها من قلبي أبداً .

وقال أحمد : سمعت رابعة تقول : ما رأيت ثلجاً إلا تذكرت به تطاير الصحف ، ولا جراداً إلا ذكرت به الحشر ، ولا سمعت أذاناً إلا تذكرت به منادى يوم القيامة .

قال : ودفعت إلى يوماً خمسة دراهم وقالت : تزوج بهذه أو تسر (١) ، فإني أستنفر عنك .

قال : وكانت تطبخ الطبخ وتقول : كل اللحم فإنك قريب عهد بغرس وتحتاج إليه .

وكان لأحمد أربع نسوة .

قال : وكان لها أحوال في المحبة ، فتارة تقول :

حبيب ليس يعدله حبيب ولا لسواه (٢) في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصرى وسمعى ولكن عن فؤادى ما يغيب
وتارة يغلب عليها الأنس فتقول :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثى وأبحت سرى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليلس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسى
وتارة يغلب عليها الخوف فتقول :

وزادى قليل ما (٣) أراه ميلنى اللزاد أبكى ؟ أما لطول مسافنى ؟
أتحرقنى بالنار يا غاية المنى ؟ فأين رجائى فيك ! أين مخافتى ؟ !

توفيت رابعة من قبل أحمد في سنة تسع وعشرين ومائتين رحمة الله عليها .

* « نفعات الأنس من حضرة القدس » لعبد الرحمن الجامى
تعريب تاج الدين زكريا العمانى ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس
برقم ١٣٧٠ عربى ، ورقة ٢٣٦ : ١

رابعة العدوية رضى الله عنها

كانت من البصرة ، ويسأل منها سيفان الثورى مسائل ويذهب عندها
ويرغب إلى موعظتها ودعائها . فيوماً دخل عليها سيفان الثورى وقال : اللهم إني
أسألك السلامة . فبكت رابعة . فسألها : ما يبكيك . قالت : أنت أبكيتنى
قال سيفان : بم ؟ قالت : أما علمت أن السلامة فى ترك الدنيا وأنت مشغول بها ؟!
قالت : رابعة : لكل شىء ثمرة ؛ وثمره المعرفة تولّى الوجه إلى الله ^(١) تعالى .
وأيضاً عنها قالت : أستغفر الله من قلة صدق فى قولى أستغفر الله .

سألها سيفان (٢٣٦ ب) : أى شىء أفضل أن يقرب به العبد إلى الله ؟
قالت : ألا تطلب من الدنيا أو الآخرة غيره .

ويوماً قال سيفان عندها : واحزنناه ! قالت : لا تقل الكذب ! إن كنت
أنت محزوناً لا تكن مسروراً فى الحياة الدنيا .
وأيضاً عنها قالت : لا يكون حزنى أن أكون محزونة ، بل حزنى أنى
ما كنت محزونة .

* * *

(٢٣٧ ب) رابعة الشامية رحمها الله تعالى .

هى زوجة أحمد بن أبى الحوارى ، قال أحمد بن أبى الحوارى : كانت

(١) كلمة « الله » غير واضحة فى المخطوط وهذا الموضع والصفحات التالية عليه آثار سوداء
شبهته . فلا يقرأ إلا بعناء شديد .
* المخطوط يقع فى ٢٤٥ ورقم حجم ٢١٥ X ٥٥ مسطرتة ٢٥ ؛ تاريخ نسخه ١١٠٤ هـ

مختلفة الأحوال . يغلب عليها العشق والمحبة ، مرةً أنس ، ومرة خوف ، وفي حال غلبة المحبة تقول (شعراً) :

حبيب ليس يعدله حبيب وما لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصرى وشخصى ولكن عن فؤادى لا يفيب
وتقول في حالة الأنس (شعراً) :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثى وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسى
وسمعتها تقول في حالة الخوف (شعراً) :

وزادى قليل ما أراه مُبَانِي ألزاد أبكى ، أم لطول مسافتي ؟!
أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجأى منك ، أين مخافتي ؟!

وتقول لأحمد بن أبي الحوارى : لست أحبك حب الأزواج ، إنما أحبك حب الإخوان . وكانت لما تطبخ الطعام تقول : كل ياسيدى فما طبخت هذا الطعام إلا بالتسبيح .

قال أحمد بن أبي الحوارى يوماً : كان عندها طشت . قالت : ارفع هذا الطشت لأنى أرى الأمير هارون مات . فبعد تفحص تحقق [أن] مات هارون بالرشيد ذلك النهار .

سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨
مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ٩٥ (١٢١ م
٦ / ٣ لوحة ٢٠٨

رابعة العدوية

البصرية الزاهدة العابده الخاشعة ، أم عمرو ، رابعة بنت إسماعيل . ولاؤها
للمعتكبين ، ولها سيرة في جزء لابن الجوزي . قال خالد بن خدّاش : سمعت رابعة
صالحاً المرى يذكر الدنيا في قصصه ، فنادته : « يا صالح ! من أحب شيئاً أكثر
من ذكره ! » . وقال محمد بن الحسن [٣٠٨ ب] البرجلاني ، حدثنا بشر بن
صالح العتكي قال : استأذن ناس على رابعة ومعهم سفيان الثوري . فبتدأ كروا
عندها ساعة ، وذكروا شيئاً من الدنيا : فلما قاموا قالت لخادمتها : « إذا جاء
هذا الشيخ وأصحابه فلا تأذني لهم ، فإنّي رأيتهم يحبون الدنيا » ... وعن أبي يسار
مسمع قال : أتيت رابعة فقالت : « جثني وأنا أطبخ أرزاً ، فأثرت حديثك على
طبخ الأرز . » فرجعت إلى القدر وقد طبخت .

ابن أبي الدنيا : حدثنا محمد بن الحسين ، حدثني عيسى بن ميمون العطار ،
حدثني عبدة بنت أبي شوال وكانت تخدم رابعة العدوية ، قالت : كانت رابعة
تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت هجعة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها
تقول : « يانفس ! كم تامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا
تقومين منها إلا ليوم النشور » .

قال جعفر بن سليمان : دخلت مع الثوري على رابعة ، فقال سفيان : « واحزنناه ! »
فقالت : « لا تكذب ! قل : واقله حزنناه ! »

وعن حماد قال : دخلت أنا وسلام بن أبي مطيع على رابعة ، فأخذ سلام في
ذكر الدنيا ، فقالت : « إنما يذكر شيء هو شيء . أما شيء ليس بشيء - فلا » .

شيبان بن فروخ ، حدثنا زيار القيسي قال : كنت أختلف الى سميث
[بن عجلان]^(١) أنا ورابعة فقالت مرة : تعال يا غلام وأخذت بيدي ودعت
الله . فإذا جرة خضراء مملوءة عسلا أبيض : فقالت : « كل ! فهذا والله لم تحوم
بطون النحل » . ففرزت من ذلك قمنا وتركناه .

قال أبو سعيد بن الأعرابي : أما رابعة فقل حمل الناس عنها حكمة كثيرة :
وحكى عنها سفيان وشعبه وغيرهما ما يدل على بطلان ما قيل عنها : وقد
تمثلت بهذا [البيت]^(٢) :

ولقد جعلتك في الفؤاد محذئ وأبجت جسمي من أراد جلوسي
ففسبها بعضهم الى الحلول بنصف البيت ، و الى الاباحة — بتمامه : قلت : فهذا غلو
وجهل : ولعل نسبها الى ذلك مباحي حلولى ، ليحتج بها على كفره ، كاحتجاجهم^(٣)
بغير : « كنت سمعه الذى يسمع به . . »

قيل : عاشت ثمانين سنة ؛ توفيت سنة ثمانين ومائة :

أما رابعة الشامية العابدة فأخرى مشهورة [١٢٠٩] أصغر من العدوية :

وقد تدخل حكايات هذه فى حكايات هذه : والثانية هى القائلة : ماردى
أحمد بن أبى الحوارى عن العباس بن الوليد أمهر قالت : استغفر الله من قلة صدق
فى قولى « استغفر الله » :

(١) الزيادة عن « تاريخ الاسلام » للذهبي ورقة ١٦ ، مخطوط بدار الكتب المصرية .
برقم ٤٢ تاريخ .

(٢) عن « تاريخ الاسلام » (٣) فى « تاريخ الاسلام » : « ولأحسب ينسبها الى الحلولى .
مباحي لينفق بها زندقته ، كما احتجوا بالخبر النبوى : فأذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به . . الحديث .
قيل توفيت سنة ثمانين ومائة عن نحو من ثمانين سنة »

[لوحه ١٩١] رياح بن عمرو القيسى

العابد أبو المهاصر . بصرى زاهد متأله ، كبير القدر . سمع مالك بن دينار
وحسان بن أبي سنان وطائفة . وهو قليل الحديث ، كثير الخشية والمراقبة . روى
عنه سيار بن حاتم ، وعلى بن الحسن ابن أبي مریم ، وغيرهما . قال أبو بكر بن
أبي الدينار ، حدثنا على بن أبي مریم قال : قال رياح القيسى : لى نيف وأربعون
ذنباً قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة .

قال أبو معمر المقعد : نظرت رابعة إلى رباح يضم شيئاً من أهله ويقبله .
فقلت : « أتجبه ؟ » قال : نعم ! قالت : « ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعاً
فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه ! » . فغشى عليه ، ثم أفاق وقال : « رحمة منه تعالى
ألقاها فى قلوب العباد للاطفال » .

سيار ، حدثنا رياح بن عمرو : سمعت مالكا بن دينار يقول : « لا يبلغ العبد
منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ، ويأوى إلى مزابل الكلاب » .
قيل إن رياحاً روى عن الحسن البصرى ، وذلك فى « حلية الأولياء » .

من تاريخ الإسلام للذهبي ، مخطوط بدار الكتب المصرية

برقم ٤٢ تاريخ ج ٩ [ورقة ١١٧]

رياح بن عمرو القيسى البصرى الزاهد أبو المهاصر . كان خاشعاً خائفاً بكاءً .
روى عن مالك بن دينار ، وواصل بن السائب . وقيل إنه لقي الحسن البصرى .
روى عنه سيار بن حاتم ، وموسى بن داود ، ويزيد بن هارون وعمرو بن عون
وروح بن عبد المؤمن وطائفة : وقال أبو زرعة : صدوق : وذكره أبو داود
السجستاني فوهاه ، وقال : رجل سوء : قال على بن الحسن بن أبي مریم ، قال

«رياح القيسى : لى نيف وأربعون ذنباً قد استغفرت الله لكل ذنب مائة ألف مرة . وقال سيار : حدثنا رياح قال : قال لى عتبة الغلام : من لم يكن معنا فهو علينا .

وكان رياح يصرخ عند الموعظة ويفشى عليه .

من « شفاء السائل تمهيد المسائل » لولى الدين عبد الرحمن بن

خلدون ، المتوفى سنة ٨٠٨ هـ

مصور مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٢٩٩ ب

[ورقة ٣٤ ب]

وإن صدر عن أحد منهم [أى الصوفية أهل المكاشفة] كلمة من ذلك [أى من الكلمات الكشفية] على سبيل الندور سموه شطحا ، بمعنى أن حال الغيبة والسكر استولت عليه حتى تكلم بما ليس له فيه الكلام ، كما نقل عن أبى يزيد فى قوله : « سبحانى ما أعظم شأنى ! » ، وقوله : « جرت بحراً وقف الأنبياء بساحله » . وقول رابعة : « لو وضعت خمارى ما بقى بها أحد » .

« إحياء علوم الدين » لأبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

[ح ٤ ص ٢٧ ، القاهرة سنة ١٢٨٢ هـ]

ولا يطلبون (فى الجنة) إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم ، فهى فى غاية السعادات ونهاية اللذات .

ولذلك قيل لرابعة العدوية - رحمة الله عليها ! - : كيف رغبتك فى الجنة؟

فقلت : « الجار ، ثم الدار » . فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمشوقه المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر ، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ، ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه ، ومعناه أنه صار مستغرقاً بغيره وصارت همومه هماً واحداً وهو محبوبه ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لا لنفسه ولا غير نفسه ، وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر .

The first part of the document discusses the importance of maintaining accurate records of all transactions. It emphasizes that every entry should be supported by a valid receipt or invoice. This ensures transparency and allows for easy verification of the data. The second part of the document provides a detailed breakdown of the financial data for the quarter. It includes a table showing the revenue generated from various sources, as well as the associated costs and expenses. The final part of the document concludes with a summary of the overall financial performance and a recommendation for future actions.

فهرس الكتب

التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع:

١٧٠، ١١١، ٦٢.

(ج)

جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم:

١٩، ٤١، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٩.

حلية الأولياء: ٦٧، ١٠١، ١١٠،

١٥٧.

حياة القلوب: ١٨، ١٠٧.

الحيوان: ١٠٨.

(د)

دائرة المعارف الإسلامية: ٣.

(ر)

رابعة وزميلاتها المتصوفات في الإسلام:

٤٣٤.

الرد على الحريرية: ٣٩، ١١٢.

الرسالة القشيرية: ٣١، ٢٨، ١٢٤.

روض الرياحين في مناقب الصالحين:

٤٩، ١٦٥.

الروض الفائق في المواعظ والرقائق:

٢٣، ٢٤، ٤٨، ٥٢، ٧١، ٧٤،

١٦١.

(ز)

الزمان الوجودي: ٢٨.

(س)

سير السالكات المؤمنات الخيرات:

١٧٤.

(١)

تحف الاخصاص في فضائل المسجد

الاقصى: ٩٧.

تحف السادة الثقلين: ١١، ٥١، ٦٣،

٦٤، ٧٠، ٧٢، ١٠٢ — ٩.

١١٨.

احياء علوم الدين: ٧٠، ١٢٨، ١٨٥،

أخبار الحلاج: ٢٧.

الاستقامة: ١١١.

أسرار التوحيد: ١٠٩.

الاحاد في الاسلام: ٨١، ٨٥.

المهي نامة: ١٥٨.

الانساب: ٩.

الأنس الجليل: ٩٧.

الإنسانية والوجودية في الفكر

العربي: ٧١.

(ب)

بحث في نشأة المصطلح الفني للتصوف

الإسلامي: ٢٨، ٣٣، ٦٠، ٧٠،

١٠٣، ١٠٤.

بلاد الخلافة الشرقية: ٣.

البيان والتبيين: ٩، ١٠٨.

(ج)

تذكرة الأولياء: ٧، ١٦، ٢٢، ٣١،

٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٧٦،

٧٨، ٨٧، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٢،

٩٥، ١٠١، ١٤٣، ١٦٨.

لتعرف لمذهب أهل التصوف: ٢١،

٦٩، ٧٧، ٧٨، ٨٨، ١٠٩.

(ق)

قوت القلوب : ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٦٥ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٠ ، ١٠٧ ، ١١٠ ،
١١٣ ، ١١٩ ، ١٢١ .

(ك)

كشف المحجوب : ٨٩ ، ١٠٩ .
الكشكول : ١٦٤ ، ١٦٥ .
كنوز الأولياء ورموز الأصفياء : ١٦٩ .

(ل)

لسان العرب : ٥٩ .
اللمع : ٨٨ ، ١٠٨ .

(م)

مثير الغرام : ٩٧ .
مجموع نصوص غير منشورة خاصة
بالتصوف الإسلامي : ٣٩ ، ٥١ .
مجموعة رسائل وتعليقات وتقييدات :
٩٣ .

مجموعة الرسائل والمسائل : ٨٠ ،
٨٢ ، ١١٢ ، ١٣١ .
مرآة الزمان : ٣٤ ، ١٣٤ ، ١٧٨ .
مصارع العشاق : ٣٠ ، ٧٢ ، ١٢٢ .
١٣٣ .

معجم البلدان : ٣ ، ٥ ، ٨٩ ، ٩٩ .
مناقب الأبرار وشعار الأخيار : ٤٥ .
مناقب العارفين : ٩ ، ١١٢ .
المنحني الشخصي لحياة الحلاج : ٣٩ .

(ن)

النجوم الزاهرة : ٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ،
١٠٢ ، ١٦٤ .
نفحات الأنس من حضرة القدس :
٥٠ ، ١٦٨ ، ١٨١ .

(و)

وفيات الأعيان : ٣٠ ، ٩٧ ، ١٠٢ ،
١٠٣ .

(ش)

شخصيات قلقة في الإسلام : ١٣ ،
٣٦ ، ٣٩ .
شذرات الذهب : ٩٨ ، ١٠٢ ، ١١٢ ،
١٧٠ .

شرح حال الأولياء : ١٧٢ .
شطحات الصوفية : ٩٢ .
شكوى : ٥١ ، ١١١ .

(ص)

صمود الكرم : ٧٧ .
صفة الصفوة : ٦ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣٠ ،
٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
١٠٢ ، ١٢٤ ، ١٢٨ .
صورة الأرض : ٣ ، ٥٠ .

(ط)

طبقات الأولياء : ٥ ، ١١ ، ٢٣ ، ٥١ ،
٨٤ ، ٩٨ ، ١٣٥ .
طبقات الشعرائي : ٥٣ ، ١٠١ ، ١٠٧ .
طبقات الصوفية : ٢١ ، ٣٣ ، ٣٥ ،
٧٩ ، ١٠٢ .
الطبقات الكبرى : ١١ .

(ع)

عذاب الحلاج : ٧٠ .
عقلاء المجانين : ٢٦ ، ٣٢ .
عوارف العارفين : ٣١ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٦ .
عيون التواريخ : ٦ ، ١١ ، ٢١ ، ٩٧ ،
١٠٢ ، ١٢٣ .

(ف)

فاوست الثاني : ٧٤ .

فهرس الأعلام

- (١)
- ابراهيم بن أحمد القرمسيني : ١٢٩ .
ابراهيم بن آدم : ١٩ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٤٥ ، ١٤٦ .
ابراهيم بن بشار الرمادي : ١٢٤ .
ابراهيم بن محمد الزكي : ١٢٤ .
ابراهيم بن يوسف : ١٢٩ .
ابراهيم الخليل (عليه السلام) : ٦٣ ، ١٧١ .
ابراهيم الثرباصي : ١٠١ .
بازن بن أبي عياش : ٥٩ .
ابن أبي الدنيا : ١٢٣ ، ١٨٢ .
ابن أبي عيينة : ٥ .
ابن تفرى بردى : ٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ١٠٢ ، ١٦٤ .
ابن تيمية : ٣٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ١١٢ ، ١٣١ .
ابن الجوزي : ٦ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٩٧ .
١٠٢ - ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٩ ، ٦٤ ، ٧٨ .
ابن حبيب البراز : ١٢٥ .
ابن حوقل : ٥ .
ابن خلكان : ٩ ، ١١ ، ٣٠ ، ١٠٢ - ٣ ، ٧ ، ٣٢ .
ابن الراوندي : ٨١ ، ٨٢ .
ابن شاكر الكندي : ٦ ، ١١ ، ٢١ ، ٩٧ ، ١٠٢ - ٣ ، ٢٢ .
ابن عربي : ٨٦ ، ١٣٨ .
ابن العباد الخبلي : ١٠٣ - ١٢ ، ٧٠ .
- ابن القيسراني : ٩٨ .
ابن محمد النامي : ١٢٥ .
ابن المقفع : ٨٥ ، ٨٦ .
ابن منظور : ١٢٦ ، ١٧٤ .
ابن يحيى : ١٢٢ .
أبو أسماء بن منيب العنكي : ٩ .
أبو بكر البرقاني : ١٢٤ .
أبو بكر الحنفي : ١٧٤ .
أبو بكر القرشي : (انظر القرشي) .
أبو بكر الكلاباذي : (انظر الكلاباذي) .
أبو بكر محمد الأروستاني : ١٢٩ .
أبو جعفر الرازي : ١٣١ .
أبو جعفر المدني : ١٢٦ .
أبو الحسين بن عبد الجبار : ٢٥ ، ٢٦ .
أبو اسين اللطى : ٦١ ، ٦٢ ، ١١١ ، ١٧٠ .
أبو الحلال : ٩ .
أبو حنيفة : ٣١ .
أبو الخير الأقطع : ٨٨ ، ٨٩ .
أبو السمعود بن شبل : ١٣٩ .
أبو سعيد بن أبي الخير : ١٠٩ .
أبو سعيد الخراز : ١٢٢ .
أبو سليمان الداراني : ٢٨ ، ٣١ ، ٤٥ .
٥٨ ، ١١٣ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ٧٦ .
أبو طالب العساري : ١٣٤ .
أبو طالب المكي : ٥٤ ، ٦٣ ، ٦٥ .
٦٦ ، ٧٠ ، ١٠٧ - ١٠ ، ١٣ .
أبو عبد الله الجهمي : ٤٥ .
أبو عبد الله البناجي : ٤٥ .
أبو عبد الرحمن السلمي : ٤٤ ، ١٢٨ -

الأسود بن كلثوم : ١٠٨ .

الأفلاكي : ٩٠ ، ٩١ ، ١١٢ .

الوسى : ١١٢ .

أم الخير : ١٦١ .

أم الدرداء : ١٠٨ .

أوستيا : ١٤ .

أوغسطين : ١٤ ، ١٧ ، ٧٦ .

أيوب السجستاني : ١٠٨ .

(ب)

بأفيه دي كورتى : ٧ ، ١٥٧ .

بجالة بن عبدة العنبري : ١٠٨ .

بشر بن الحارث الحافي : ٥٧ .

بشر بن السرى : ٤٥ .

بشر بن منصور : ١٢٨ ، ٧٦ .

بلال بن رباح : ١٤ ، ١٣ .

بهاء الدين العاملى : ١٦٤ ، ٦٥ .

بولس : ١٤ ، ١٧ .

(ت)

تاج الدين زكريا العثماني : ١٨١ .

تريزا الآبيلية : ٧ ، ١٦ ، ١٨ .

٢٧ .

التوزى : ١٢٤ ، ٣٢ ، ٣٤ .

التويرجى النقمشبندى : ٧٢ .

(ج)

الجاحظ : ٩ ، ١٠٨ .

جامى : ٥٠ ، ١٨٦ .

جبرين (عليه السلام) : ٢٨ .

جرتشن : ٧٤ .

جعفر بن أحمد السراج : ١٢٦ ، ٣٠ .

جعفر بن جرقاس : ١٠٨ .

جعفر بن زيد العبدي : ١٠٨ .

جعفر بن سليم : ١٢٧ .

جعفر بن سليمان الضبيعي : ٦٥ .

١١٨ ، ٣٦ ، ٧٥ .

٢٩ ، ٣١ ، ٧٩ .

أبو علي الفارمذى : ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٦ .

أبو علي الفقيه : ١١٠ .

أبو الغنائم بن النمرسى : ٤٥ ، ١٢٩ .

أبو القاسم الحريرى : ١٢٤ .

أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابورى :

٢٦ ، ٣٢ ، ١١٣ .

أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب : ١١٣ .

أبو القاسم الزيدى : ٨٧ .

أبو الليث العتكي : ٩ .

أبو الليث محرم الزبلى : ١٦٩ .

أبو محمد الحلال : ١٢٩ .

أبو معمر : ١١٢ ، ١٣٤ .

أبو معمر عبد الله بن عمرو : ١١٠ .

أبو ناصر : ٤٥ ، ١٢٩ .

أبو نصره : ٩ .

أبو نعيم : ٥٣ ، ٦٧ ، ١٠١ ، ١٠٠ .

١٣ ، ٧٩ .

أبو هريرة : ١٧٢ .

أبو يزيد البسطامى : ٩٢ ، ١٦٠ .

أحمد بن أبي الحواري : ١١ ، ٢٨ .

٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ .

٥٣ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ٢٦ ، ٢٨ .

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٦٧ .

٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .

٨٢ .

أحمد بن جعفر بن سلم : ١٢٥ .

أحمد بن عبد الخالق : ١٢٥ .

أحمد بن علي اليهودى : ١٢٦ ، ١٣٠ .

أحمد سامح الخالدى : ٩٧ .

آزبرى : ٢١ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ١٠٩ .

أزهر بن مروان : ١٢٦ .

أزهر بن هرون : ١٧٥ .

أبي حنيفة بن أحمد بن علي : ١٢٩ .

(ومن هنا برد ذكر اسمها إلى
آخر الكتاب) ..

راشد بن علقمة الأهوازي : ١١٥ .

رايمة الشامية : ١١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٩٨ ،

٤٩ ، ١٠٠ ، ١٦ ، ٣٩ ، ٢٩ ، ٦٦ ،

٦٧ ، ٧٦ ، ٨١ .

رزق الله بن عبد الوهاب بن وهب :

١٢٦ ، ٣١ .

رياح بن عمرو القيسي : ١٨٠ ، ١٩٠ ،

٣٤ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ،

١٠٣ ، ١٠٠ ، ١١ ، ١٣ ، ٢٢ ، ٢٥ ،

٣٥ ، ٤١ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٨٤ ،

ريحانة : ١١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٦١ .

(ز)

الزبيدي : ١١ ، ٥١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ،

٧٢ ، ١٠٢ ، ٩٠ ، ٨٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ،

(س)

السراج القاري : ٣٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ،

٨٨ ، ١٠٨ ، ٢٢ ، ٢٣ .

السري السقطي : ٣٢ ، ٨٨ ، ١٧٠ ،

٧٩ ، ٨٠ .

سمد بن عثمان : ٧٠ ، ١٦٢ .

سميد بن المسيب : ٣١ .

سفيان بن عيينة : ٤٥ .

سفيان الثوري : ٩ ، ٣١ ، ٦٥ ، ٩٠ ،

١٠٣ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٧ ،

٢٧ ، ٣٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٤ ،

٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٨١ .

سقراط : ١٤ .

سلام الأسود : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،

١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،

١٨٧ .

جعفر الصادق : ٥٩ .

جيته : ٨٢ .

(ح)

حاتم بن الليث الجوهري : ١٢٤ .

الحارث بن سعيد : ١١٤ .

حبيب بن أبي ثابت : ١٠٨ .

حرب بن جرفاس : ١٠٨ .

الحريفيش : ٢٣ ، ٢٤ ، ٨٤ ، ٥٢ ،

٧٠ ، ٧١ ، ١٦٠ .

الحسن البصري : ١٨٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٤٨ ،

٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٨٨ ،

٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ ،

٥٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٢ ،

الحسن بن أحمد النقيه : ١٢٥ .

الحسن بن عبد الملك بن يوسف : ١٢٩ .

الحسين بن صفوان : ١٢٢ ، ١٦٠ ، ٢٧ ،

٣٣ ، ٣٤ .

الحلاج : ٢٧ ، ٣٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٩ ،

حماد بن زيد : ٦٥ ، ١١٨ .

حماد بن سلمة : ٩ .

حيونة : ٢٩ ، ١١٥ ، ١١٦ .

(خ)

الخضر (عليه السلام) : ١٤١ .

ابن خلدون : ١٨٥ .

(د)

دلف : ١٤ .

الداراني : (انظر : أباسليمان الداراني) .

(ذ)

الذهبي : ١٦٤ ، ١٨٣ .

ذو النون المصري : ٥٩ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ١٢٢ ، ٦٢ .

ذيوجانس : ٩١ .

(ر)

رابعة المدوية : ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ...

- عبد العزيز الراسبي : ٣٤ ، ١٦٤ .
عبد القادر الجيلاني : ٥٧ ، ٥٨ ، ١٣٩ .
عبد الوارث : ١٢٢ ، ٢٤ .
عبد الواحد بن بكر : ١٢٩ .
عبد الواحد بن زيد : ٢٢ ، ٥٠ ، ٥١ ،
٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ١٠٤ ، ٨٠ ،
١١٦ ، ١٨ ، ٥٤ .
عبدة بنت أبي شوال : ١٢٧ .
عبيدة بنت أبي كلاب : ١٧٠ ، ٧٥ ، ٧٦ .
عتبة بن غزوان : ٣ .
العتيقي : ١٢٥ .
عتيك بن النضر : ٩ .
عثمان بن آدم : ١٠٨ .
عثمان بن عمر بن للشاب : ١٢٥ .
عصام بن عثمان الحلبي : ١٤٣ .
القطار : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ،
١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣١ ،
٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ،
٥٠ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
١٠١ ، ٣ ، ٤٢ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٦٩ .
علي بن عمر بن علي التجار : ١٢٩ .
علي بن الحسن التنوخي : ٢٢ ، ١٢٧ .
علي بن محمد بن الشران : ١٢٧ .
علي بن موفق : ١٢٩ .
علي الحريري : ٣٨ ، ١١٢ .
علي عمر الحلي : ١٢٧ .
عمر بن الخطاب : ٣ ، ٥٤ .
عمر بن محمد : ١٢٦ .
عنيس بن مرعوم القطار : ١٢٧ .
عون بن ابراهيم : ١٣١ .
عيسى زادن : ٨ ، ٣٢ ، ١٤٣ .
عين القضاة الهذلي : ٥١ ، ١١١ .

- السندوني : ١٠٨ .
السهروودي : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
٥٧ .
سهل بن سعد : ١١٧ .
سيف بن سبيعة : ٩ .
(ش)
الشجا الخارجية : ١٠٨ .
الشمراني : ١١ ، ٥٣ ، ١٠٧ .
شموانه : ١٦١ .
شقيق البلخي : ١٥٥ ، ٨٨ .
شمس الدين السيوطي : ٩٧ .
شيبان بن فروخ : ١٢٦ ، ٢٧ .
شيخو : ١٦٩ .
(ص)
صالح بن عبد الجليل : ١٢٦ ، ٧٥ .
صلة بن أشيم : ١٠٨ .
صهيب الرومي : ١٢ .
(ض)
ضياء الدين الكشخاني : ١٩ ، ٤١ ،
٦٠ .
(ع)
عامر بن عبد قيس : ١٠٨ .
العباس بن حمزة : ١٣١ .
العباس بن الوليد : ١٢٦ .
عباسه الطوسي : ١٤٢ .
عبد اسحق بن ابراهيم : ١٢٥ .
عبد الله بن أيوب : ١٢٦ .
عبد الله بن عمر : ٩ ، ١٧٢ .
عبد الله بن عيسى : ١٣٤ ، ٣٢ ، ٧٤ .
عبد الله بن المولي بن أبي الحواري : ٤٥ .
عبد الرحمن بن عبد الله القرشي :
١٣٣ .
عبد الرحمن الجامي : ١٦٨ ، ١١٨ .

- محمد (صلى الله عليه وسلم) : ١٤ ، ٥٤ ،
١٢٢ ، ٨٥ ، ٧٢ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥
٠٧٢ ، ٧١ ، ٥١ ، ٤٩ ، ٤٣ ، ٤٢
محمد بن أبي حاتم : ١٢٥ .
محمد بن أبي منصور : ١٢٥ ، ٢٦ ،
٠٣٠ ، ٢٩ ، ١٧
محمد بن أبي نصير الحميدي : ١٢٩ .
محمد بن أحمد بن سعيد : ١٢٥ ، ١٣١ .
محمد بن ادريس : ١٢٦ ، ١٣٠ .
محمد بن اسحق السراج : ١٢٤ ، ١٢٩ .
محمد بن أسلم الطوسي : ١٠١ ، ١٥٧ .
محمد بن الحسين : ١٢٦ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ٣٤ .
محمد بن سليمان الهاشمي : ٥٠ ، ٥١ ،
٠٢٥ ، ١٨ ، ١٣ ، ٥٩ ، ٥٨
محمد بن طيفور : ١٢٩ .
محمد بن عبد الله الدقاق : ١٢٦ ،
٠١٣٠ .
محمد بن عبد الله القطيبي : ١٣٣ ،
٠١٣٤ .
محمد بن عبد الباقي : ١٢٦ ، ٢٩ ،
٠٣١ ، ٣٠ .
محمد بن عبده بن حرب القاضي :
٠١٢٧ .
محمد بن علي الإسنوي : ١٠٧ .
محمد بن علي الكوفي : ١٢٧ .
محمد بن عمرو : ١٢٥ ، ١٣٢ .
محمد بن محمد النجار الرازي : ١٢٩ .
محمد بن هبة الله الطبري : ١١٧ .
محمد بن واسع : ١٠٨ .
مذعور بن الطفيل : ١٠٨ .
المرتضى الزبيدي : (أنظر الزبيدي)
مروان بن معاوية الفزاري : ٤٥ .
مريم (عليها السلام) : ١٤٢ .

(ع)

الفزالي : ٣٦ ، ٧٠ ، ١١٨ ، ١٨٥

(ف)

- فرنسيسكو الأسبزي : ٩٣ ، ٩٤ .
فريد الدين المطار : (أنظر المطار) .
فستفالد : ٩٩ ، ٥ ، ٣ .
الفضل بن موسى البصري : ١١٥ .
الفضيل بن عياض : ٣١ .
فيلين : ٢٨ .

(ق)

- فتادة : ٩ .
القرشي : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ،
٠٣٤ .
القشيري : ١٢٢ ، ٣٦ ، ٢٨ .

(ك)

- كرامرز : ٥ ، ٣ .
كراوس : ٢٧ .
كلاب : ٧٥ ، ١٢٦ .
الكلاباذي : ١٠٩ ، ٨٨ ، ٦٩ ، ٢١ .
كليب : ١٥٧ ، ١٢٦ .

(ل)

- لوستراج : ٣ .
ليس : ١٦٩ ، ٥٠ .
ليفي لافيدا : ٧٢ .
(م)
مارجرت اسمث : ٤٣ .
ماسينيون : ١٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٣ ،
٠١٠٣ ، ٧٠ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥١ ، ٣٨
٠١١ ، ١٠ ، ٤ .
مالك بن دينار : ٥٣ ، ٥٩ ، ٧٩ ، ٧٨ ،
٠٣٧ ، ١١١ .
الحاجي : ٦٠ ، ٦٧ .

(٥)

- المهادى : ٨٥ .
- المجورى : ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٩ -
- هرون الرشيد : ١٨٢ ، ١٤٥ -
- ه . ريتز : ١٥٨ .
- ه . هورناتير : ٧٧ .
(و)
- وحية الكيلاني : ٢٦ .
- وهيب بن الورد : ٣١ .
(ي)
- اليافعي : ٢٩ ، ١٦٥ .
- ياقوت : ٣ ، ٥ .
- يزيد بن الهلب : ٩ .
- يزيد الرقاشي : ٥٩ .
- يعقوب بن يوسف : ١٢٥ .
- يوحنا الصليبي : ٧١ ، ٧٧ .
- يوسف (عليه السلام) : ٨٨ .
- يوسف بن عبد المتكى : ٩ .

- مسمع بن عاصم . ١٢٥ ، ٣٣ ، ٧٤ .
مضر القاري : ٥٩ ، ٦٧ .
مماذة المدوية : ١٠٨ .
- معروف الكرخي : ٦٠ .
- المقدسي : ٩٧ ، ١٧٢ .
الناوي : ٥ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٣ ،
٣٤ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٧٨ ،
٧٩ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٣٥ .
- المهدي : ٨٥ .
- موسى (عليه السلام) : ٣٨ ، ٩٤ ،
١٤١ ، ٤٥ ، ٤٩ .
- المولى بن أبي الخوارى : ٤٥ .
- ميمونة السوداء : ١٧ .
(ن)
- نساو : ٥٠ ، ١٦٩ .
- نعمى الطرطوسى : ١٠١ ، ١٥٧ .
- نيكلسون : ٧ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٦ ،
٤٠ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
١٠١ ، ٨ ، ٩ ، ٤٢ .